الوصـــايا في الأدب الأندلســـي

إعـــــداد

حذيفة عبدالله عزام

المشرف

الأستاذ الدكتور صلاح جرار

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

حزيران، ٢٠٠٧

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة " **الوصـــايا في الأدب الأندلســـــــــي**" وأجيزت بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٣

أعضاء لجنة المناقشة التوقيع	التوقيع
الأستاذ الدكتور صـــــلاح محمد جـــرار ، مشرفاً أستاذ – الأدب الأندلسي الجامعة الأردنية	....
الدكتور محمد علي أبو حمدة، مناقشاً أستاذ مساعد – النقد الأدبي الجامعة الأردنية	....
الدكتور حمــــدي محمود منصـــور، مناقشاً أستاذ مشارك – الأدب الجاهلي الجامعة الأردنية	....
الدكتور فايز عبد النبي القيسي، مناقشاً أستاذ مشارك – الأدب الأندلسي جامعة مؤته	....

الإهــــــــــداء

إلى روح أبي الطاهرة رحمه الله تعالى ..

إلى أمي الغالية حفظها الله تعالى ..

أهدي بحثي هذا ..

شـــــكر وتقديـــــر

قال تعالى: " **ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين** " النمل الآية (١٩)

أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى كل من مدّ يد العون لي ، وساعدني في إنجاز هذه الرسالة ، وأخص بالشكر أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور صلاح جرار الذي حاطني بعلمه، ولم يأل جهداً ووقتاً في توجيهي لإخراج هذه الرسالة .

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى السادة أعضاء لجنة المناقشة : الدكتور محمد علي أبو حمدة، والدكتور حمدي منصور ، والدكتور فايز عبد النبي القيسي .

لهم مني جميعاً كل الشكر والتقدير.

حذيفة عبد الله عزام

فهرس المحتويات

الوصـــايا في الأدب الأندلســـــــي

إعــداد الطالب
حذيفة عبدالله عزام

المشرف
الأستاذ الدكتور صلاح جرار

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في الوصايا في الأدب الأندلسي مـن نـاحيتي الشكل والمضمون، والكشف عما يميز هذا الفن عن غيره من موضـوعات الأدب الأخـرى، وبيـان خصوصيته من حيث الظرف العام، وعلاقته بحياة المجتمعات والأفراد على حد سواء ومعرفـة ما يختص به على مستوى المبنى والمعنى، ثم تحديد الموضوعات العامّة التي ينتظمها، ثم أشهر أعلام هذا الفن من الكتّاب والشعراء، وصلته بالأدب المشرقي والتاريخ العربي بالإضافة إلـى علاقته بالدين.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

جاء التمهيد ليقدم بين يدي الدراسة بشيء عن تاريخ الوصايا في الأدب العربي، وليقدم بعض وصايا العرب في المشرق عبر عصور الأدب المختلفة، ثم يبين علاقـة ذلـك بـالأدب الأندلسي ويكشف النقاب عن كتاب الوصايا الأندلسيين، ويبين أهم موضوعات الوصـايا مَثَّـل الباب الأول الوصايا النثرية في الأدب الأندلسي وقد انتظمه فصلان: الأول تناول موضـوعات الوصايا النثرية، وقد امتد ليشمل مباحث ثلاثة هي الوصايا الاجتماعية والدينية والسياسية، وجاء الفصل الثاني قصيراً ليتحدث عن خصائص الوصايا النثرية بشكل عام.

وتناول الباب الثاني الوصايا الشعرية في الأدب الأندلسي وقد جاء فـي فـصلين الأول استغرق ثلاثة مباحث تحدثت عن موضوعات الوصايا الشعرية الدينية والاجتماعية والسياسية، وجاء الفصل الثاني من هذا الباب للحديث عن الخصائص الفنية للوصايا الشعرية.

ومَثّل الباب الثالث دراسة فنية لوصيتين أندلسيتين وقد جاء في فصلين: الأول خُـصّص لتحليل وصية لسان الدين بن الخطيب لأبنائه، وبيان مضمونها، وتحليل مبناها. والفصل الثـاني أُفْرِدَ لتحليل وصية أبي مروان الجزيري لأبنائه في مبناها ومعناها.

ثم جاءت الخاتمة لتبين أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج.

ومن خلال العرض توصلت الدراسة إلى أن أدب الوصايا في الأندلس، فن مستقل قـائم بذاته يعالج موضوعات خاصة، ويقدم مضمونه على نحو مخصوص على مستويات التركيـب واللغة والجملة والكلمة المفردة، ثم إنه فن له أعلامه الذين ساهموا في الفنون الأدبية الأخـرى، وهو فن انتظم الشعر والنثر على حد سواء.

مقدمــــــــــة

الحمد لله بارىء الثقلين، والصلاة والسلام على جد السبطين وعلى آله وصحبه الطيبين، وبعد.

فإن الدارس لتراث هذه الأمة لا يستطيع وهو يقلب الصفحات ويغوص بين السطور والكلمات إلا أن يعترف بعظمة هذا التراث، وعبقرية العقول التي أنتجته، وإبداع الأيدي التي خطّته، وليس الغرض من وراء هذه الدراسة إثبات المنزلة الرفيعة لهذا التراث وأصالته؛ إذ لا يتّسع الميدان لذلك، ولكنها قراءة في فن أدبي انتظم النثر والشعر على حد سواء، ونما وازدهر في بيئة الأندلس؛ فقد كان لاختلاف حياة العرب في الأندلس في بداية توطيد أركان الدولة واستقرارها ثم انهيارها أثر في تشكّل تجارب ذاتية وعامة للإنسان الأندلسي تنوعت بتنوع المكان والزمان والظروف المحيطة به، واختلفت باختلاف العوامل الرافدة لها، تأثرت بعلوم المشرق والحياة الأندلسية الخاصّة، وظروفها في الاحتكاك بالأمم والثقافات الأجنبية، وتباين الخبرات الإنسانية فنشأ فن الوصايا تقليداً وإبداعاً سياسياً واجتماعياً ودينياً؛ إذ استمر الخلفاء يوصون رعاياهم وأبناءهم، وبادل بعض الرعية من العلماء والمقرّبين الخلفاء الوصايا فيما يستجدُّ به الحال في شؤون الدول والحُكم، ووصّى الآباء والأمهات أبناءهم، ووصّى الخطباء والوعّاظ العامة في الأندلس كما وصّى غيرُهم منذ العصر الجاهلي.

وتأخذ هذه الدراسة على عاتقها دراسة فن الوصايا في الأدب الأندلسي؛ وتنطلق من كون الوصايا حاجة اجتماعية وسياسية ودينية تنتقل بها الخبرات الإنسانية من جيل إلى جيل ومن السلف إلى الخلف.

أمّا الهدف فهو دراسة هذا الفن الأندلسي، وتناوله بالتحليل والنظر في موضوعاته ومضامينه وسبر أغواره وكيفيات الخطاب فيه؛ إذ تفترض هذه الدراسة أن كتّاب الوصايا يلجأون إلى استخدام اللغة على نحو مخصوص، ويحشدون خبراتهم الذاتية، ويفيدون من تجارب الآخرين، ويتوسّلون بالشاهد القرآني، والحديث النبوي الشريف، والأقوال، والأمثال، والأشعار، والنصوص المأثورة.

أمّا الإطار الذي اجتهدت الدراسة في التزام حدوده، فهو استقراء عينات من الوصايا السياسية والدينية والاجتماعية في النثر والشعر، وتحليلها، وتصنيفها، وبيان مضامينها، ثم كشف النقاب عن خصائصها الفنية، والدراسة إذ تسعى لتحقيق ذلك تتوسّل بالمناهج النقدية المختلفة حيثما اقتضى الأمر ذلك.

ولم أقف على دراسة من قبل تعرض لهذا الموضوع تفصيلاً، فقد تعرّض بعض الدارسين لجزئيات من مادة هذه الدراسة ضمن دراسات عامة لأدب الوصية، أو دراسات خاصة لها في بيئة زمانية أو مكانية محددة، وهي تلتقي مع هذه الدراسة في إطارها العام وهي:

- أدب الوصايا في العصر الجاهلي، جهاد رضا، رسالة ماجستير، ١٩٨٧. وهي تتناول نشوء هذا الفن ومكوناته وموضوعاته والظواهر الفنية والنقدية وقيمته التاريخية في إطار العصر الجاهلي.

- الوصايا في الأدب العربي القديم، د. سهام الفريح، ١٩٨٨. وهي دراسة عامة لهذا الفن في المشرق العربي من العصر الجاهلي وحتى العصر العباسي، وهي تلتقي مع دراستنا في الإطار العام فقط.

- أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، د. أحمد أمين مصطفى، ١٩٩٠، وهي دراسة تقتصر على مدة زمنية محددة في جغرافية المشرق، ولا تعرض للوصايا الأندلسية.

- تاريخ الوصايا، فرج محمود أبو ليلى، ١٩٩٧. وهي دراسة تاريخية لبعض نصوص الوصايا على امتداد عصور الأدب العربي في المشرق فقط حتى عهد الأمين، يكتفي فيها المصنف بإيراد النصوص دون دراسة أو تحليل.

أما على صعيد الإطار الخاص، وأعني به فن الوصية في الأندلس، فقد تعرّض مجموعة من الباحثين خلال حديثهم عن النثر الأندلسي إلى فن الوصية، وتحدّثوا عن موضوعاتها وأساليبها، ولكنه حديث مقتضب لا يكاد يتجاوز بضع صفحات في كل كتاب، حيث عرضوا أجزاء من اثنتين أو ثلاث وصايا في إطار إشارات مقتضبة، وتحليل سريع. وهذه الدراسات هي:

- أدب السياسة والحرب في الأندلس، علي لغزيوي، ١٩٩٧، مكتبة المعارف، الرباط، د.ط، ص٤٣٤-٤٤٠.

- النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله، علي بن محمد، دار العرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص٤٥٦-٤٦٨.

ولذلك فإنّ هذه الدراسة -وإن تطلعت إلى الإفادة من الدراسات السابقة- تستشرف أبعاداً إضافية في تناول الموضوع، وتحاول أن تتصدى لدراسة هذا الفن الأدبي في

البيئة الأندلسية، لِتَضَعهُ في سياقه الثقافي والسياسي والاجتماعي العام، فهي لا تكتفي برصد نصوص الوصايا، بل تسعى إلى دراستها وتحليلها، وبيان أشهر كتّابها، وخصائصها، واتجاهاتها.

وتحاول الدراسة الإجابة عن كثير من الأسئلة المرتبطة بهذا الموضوع، من نحو:

- مَن أشهر كتّاب الوصايا؟
- بِمَ تميزت الوصية الأندلسية؟
- ما أشهر الوصايا الأندلسية؟
- ما أثر البيئة الأندلسية على الوصية في الأندلس؟
- ما هي اتجاهات كتّاب الوصايا الأندلسيين؟
- ما مضامين الوصايا الأندلسية؟
- كيف تقدم الوصايا النثرية الأندلسية مضمونها الوعظي؟
- ماذا تقدم الوصايا الشعرية؟
- كيف تقدّم الوصايا الشعرية الأندلسية مضمونها؟

وأسئلة أخرى... ومن هنا تبرز أهمية هذه الدراسة.

أما محتويات هذه الدراسة فقد توزّعت على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة على النحو الآتي:

قدّم التمهيد بين يدي الدراسة بشيء مقتضب عن تاريخ الوصايا موضحاً علاقتها بالمجتمع الإنساني ثم بين خصوصية المجتمع الأندلسي ، وعرض لأشهر كتّاب الوصايا الأندلسيين محرراً المصطلحات.

وتناول الباب الأول الوصايا النثرية وانتظم ثلاثة مباحث الأول للوصايا الدينية والثاني للاجتماعية والثالث للسياسية، وخصص الفصل الثاني منه للخصائص الفنية للوصايا النثرية.

أما الباب الثاني فقد أفرد للحديث عن الوصايا الشعرية في الأندلس، وقد تناول الفصل الأول منه مضامين الوصايا الشعرية وجاء في مباحث ثلاثة الأول للوصايا الدينية والثاني

للاجتماعية والثالث للسياسية، واستقل الفصل الثاني من هذا الباب بالحديث في الخصائص الفنية للوصايا الشعرية.

وتناول الباب الثالث دراسة تطبيقية لوصيتين أندلسيتين، وقد جاء في فصلين تناول الأول وصية لسان الدين بن الخطيب النثرية لأبنائه، وتناول الفصل الثاني وصية أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الشعرية لأبنائه.

ثم ذيّلت الدراسة بخاتمة تبين أهم ما توصلت إليه مِن نتائج.

وهذا الجهد رغم ما واكبه من أرَقٍ وسهد لا يزال في المهد، ويرنو للرعاية والعهد، فإن قارب المجد فلله الفضل والحمد، وإن صادف الصّد فهو عَلَيَّ رد.

"**وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب**".

التمهيـــــــــــــــد

معنى الوصية:

(وصى) الواو والصاد والحرف المعتل: أصلٌ يدل على وَصْلِ شيء بشيء. ووَصيتُ الشيءَ : وصلْتُه. ويقال: وطِئنا أرضاً واصية، أي إنّ نبتها متصل قد امتلأت منه. ووصيتُ الليلة باليوم: وصلْتُها وذلك في عمل تَعملُه.

والوصيّةُ من هذا القياس، كأنه كلامٌ يوصى أي يُوصَل يقال: وَصّيتُه توصيةً. وأوصيْتَه إيصاء[١].

وأوصى: أوصيت له بشيء. وأوصيت إليه، إذا جعلته وصِيَّك ، والاسم الوِصاية والوَصاية، بالكسر والفتح.

وأوصَيْتُه[٢]، ووصيّتُه أيضاً توصية – بمعنى، والاسم الوصاة، وتواصى القوم، أي أوصى بعضهم بعضاً وفي الحديث "**استوصوا بالنساء خيراً فإنهنّ عندكم عوان**"[٣].

ووَصيتُ الشيء بكذا إذا وصلته؛ قال ذو الرُّمة[٤]:

نَصي الليل بالأيام حتى صلاتُنا

مقاسَمةٌ يشتقُّ أنصافها السَفْر

وأوصى الرجل ووَصّاه: عهد إليه، وتواصى القوم: أوصى بعضهم بعضاً[٥].

وفي القرآن الكريم: "**يوصيكُم اللهُ في أولادِكُم للذكرِ مثلُ حظِ الأنثيين**"[٦] وقوله تعالى: "**وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكّرون**"[٧].

والوصية هنا عهد من الله عز وجل على المؤمنين أن يوفوه ويقوموا به، وهو من عموم

---

(١) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس،(٣٩٥هـ). معجم مقاييس اللغة، تحق: عبد السلام هارون ج٦، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. (مادّة وصى)

(٢) الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري،(٣٩٨هـ). تاج اللغة وصحاح العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩.(مادّة وصى)

(٣) سنن الترمذي ٤٦٧/٣.

(٤) ذو الرمّة، غيلان بن عقبة، ديوانه، تحق: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٨، ص١٩٩.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، (مادة وصّى).

(٦) سورة النساء، آية١١.

(٧) سورة الأنعام، آية ١٥٢.

ما كُلّفوا به من الفرائض.

وذلك من مثل قوله تعالى:"**وَوَصّى بها إبراهيمُ بنيه**"(١) وهي هنا أيضاً نقل لما كَلّف الله عز وجل به عباده.

ومنه قوله تعالى" **شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**"(٢).

وقوله تعالى: "**ووصّينا الإنسان بوالديه إحسانا**"(٣).

وقوله تعالى: "**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين**"(٤).

وقوله تعالى: "**ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة**"(٥).

وقوله تعالى: " **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**"(٦).

وفي الحديث الشريف: "**استوصوا بالنساء خيراً**"(٧).

وقد جاءت الوصية في غير موضع في الشعر من مثل قول طرفة بن العبد(٨):

يَرعين وسمياً وصى نبته　　　فانطلق اللونُ ودقّ الكشوح

وهي هنا بمعنى الوصل أي نباته متصل.

أمّا الوصية المراد بها تناقل العِبر، وتوجيه الدروس فقد جاءت في غير موضع من

---

(١) سورة البقرة، آية١٣٢.
(٢) سورة الشورى، آية١٣.
(٣) سورة الأحقاف، آية١٥.
(٤) سورة البقرة، آية١٨٠.
(٥) سورة البلد، آية١٧.
(٦) سورة العصر، آية٣.
(٧) سنن الترمذي، ٣/٤٦٧.
(٨) الأعلم الشنتمري، ديوان طرفة بن العبد، تحق لطفي الصقال ودرة الخطيب، مجمع اللغة العربية، دمشق ، ص١٤٦.

الشعر كقول عنترة[١]:

ولقد حفظت وصـــاة عمـــي بالـــضحى إذ تقلص الشفتان عن وَضَـــح الفـــم

ومنه ما جاء على لسان عبد قيس بن خفاف البرجمي[٢]:

أوصيك إيـــصاء امـــرىءٍ لـــك ناصـــح طـــبنٍ بريـــبِ الـــدهر غيـــر مغفـــل

فالوصية إذن من الوصل والاتصال ويتضمن هذا الاتصال المعنيين المادي والمعنوي، وهو على أية حال محاولة للاستمرار فهو ضد الانقطاع. وهذا هو المبتغى من المعنى الاصطلاحي الـــذي ننشده في هذه الدراسة وهو إيصال الخبرة ونقل التجربة ومدّ جسور المعرفة التي يتناقلها البشر بغية تحقيق الخير لهم بشكل عام أياً كان ميدان تلك الوصية، فالوصية تضمن اتصال الـــسلوك السليم والرأي السديد عن طريق نقله للأجيال وللمجايلين أيضاً وعليه فالوصية تلتبس بالنـــصح والإرشاد والوعظ والحكمة[٣]. يَدلُّ على ذلك ما جاء في سنن الإمام أبي داود[٤] : "حدّثنا أحمـــد بن حنبل ثنا الوليد بن مسلم ثنا ثور بن يزيد قال حدثني خالد بن معدان قال حدثني عبد الرحمن بن عمر السلمي وحجر بن حجر قالا: أتينا العرباض بن سارية وهو ممن نزل فيـــه "**ولا علـــى الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه**"[٥] ما فـــسلمنا وقلنـــا أتينـــاك زائـــرين وعائدين ومقتبسين فقال العرباض : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبـــل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: "**أوصيكم بتقوى الله والـــسمع والطاعـــة وإن عبـــداً حبشياً فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشـــدين تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعـــة ضلالة**".

يتضح من هذه القصّة التباس معنى الوعظ بالوصية وأنهما كانتا تعنيان شيئاً واحداً، على

(١) الخطيب التبريزي، شرح القصائد العشر، تحق: فخر الدين قباوة،ط١، المكتبة العربية، حلب، ١٩٦٩، ص٣٠٣. انظر ديوان عنترة، دار صادر، بيروت، لبنان، ط، ١٩٩٢م، ص٢٩.

(٢) المفضل الضبي، المفضليات، تحق: أحمد شاكر هارون، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ص٣٨٤.

(٣) وقد حاول جهاد رضا أن يميز بينها في رسالته التي سبقت الإشارة إليها في مقدمة هذا العمل.

(٤) مسند أبي داود ٦١٠/٢

(٥) سورة التوبة ، آية ٩٢

أن الوصية في النصوص السابقة تدل على أن الموصي مخاطِب أعلى من المخاطَب فالله عز وجل يوصي عباده وهو السلطة الإلهية التي تمثل الخطاب الأعلى إطلاقاً.

ثم إن ابراهيم أوصى أبناءه وهو سلطة نبوية أولاً ثم أبوية ثانياً، وهما سلطتان، وإن اختلفتا، لكنهما تتقاطعان في كونهما سلطة عليا.

وعمٌّ عنترة مسؤول وصاحب سلطة أيضاً، وهو إذ يوصيه ليس رجلاً عاديّاً بالنسبة لعنترة فهو أكبر منه سِنّاً وقدراً ومكانة؛ ولا تخفى مكانة العم عند الجاهليين على أحد، لذا فهو خطاب الأعلى لمن هو أدنى منه.

على أن النصح وإن قارب الوصية إلا أنه ينماز عنها بشيء بسيط، يدل على ذلك أن ابن سيدة[١] جمع بين اللفظين في عنوان واحد بقوله: "النصيحة والوصاة". ثم إن الحكمة والإرشاد والوعظ كذلك تلتبس كلها جميعاً بالوصية؛ إذ يوصي المرء ناصحاً ومرشداً وواعظاً، يصدر في ذلك كله عن حكمة ذاتية وخبرة شخصية مكتسبة من علاقاته وحياته الاجتماعية، أو حصّلها مما سمع أو توصل إليه بشكل عام بصرف النظر عن الطريقة.

فالوصية إذن نقل أمين للتجارب السابقة، والخبرات المكتسبة والمعارف، يُقدّمها الموصي من أجل تحقيق الفائدة للمتلقين. وقد عرف الأدب العربي عدداً كبيراً من الوصايا التي صدرت عن عدد كبير من الأشخاص من ذوي الخبرات المتعددة، والرؤى المختلفة.

تاريخ الوصية:

يثبت تاريخ العصر الجاهلي وما قبله وجود محاولات مبكرة للوصايا، وهو أمر طبيعي، فالوصية حاجة اجتماعية وإنسانية عامّة؛ إذ جُبِلَ الإنسان على أن يكون كائناً اجتماعياً، يعيش ضمن مجتمع يرتبط مع أفراده بعلاقات مختلفة ومتفاوتة، تنتظمها أنواع متباينة من العواطف الإنسانية، وهو الأمر الذي يحتّم عليه أن يسعى إلى محاولة استنقاذ أولئك المقربين من مخاطر الوقوع في شَرَك الحياة، ومن مخاطر التورط في كثير من الأوضاع المريبة، وذلك كي يُجنّبهم كثيراً من النتائج السلبية، وهو إذ يفعل ذلك يقدم لهم خلاصة تجاربه وعصارة مكتسباته وخبراته ليعبر بهم إلى بر الأمان وليختاروا لأنفسهم طريقاً قويماً ونهجاً صحيحاً اهتدى الموصي بنفسه إليه بعد أن عركته الأيام وجرّب منها ما شان وزان، وليجنّبهم لأواء المعبر ووعثاء السفر

(١) ابن سيده، المخصص، ١٢: ٢٥.

وليبتدأوا من حيث انتهى.

والحق أن هذا الهاجس – وهو نقل الخبرات حرصاً على الآخرين – قد دفع الكثيـــرين لِيَبُثّوا غيرهم وصاياهم ونصائحهم وحكمهم وعظاتهم.

فقد أوصى الأنبياء والمرسلون في الكتب السماوية ناقلين عن الله جلّ وعلا كثيراً مـــن الوصايا، وقد تناقل الكهنة والأحبار والرهبان والرجال والنساء تلك الوصايا عبر الأجيال، وهي وصايا وإن غُيّر كثير منها لما اكتنف الكتب السابقة من تحوير لمّا لم يتعهدها الله عـــز وجـــل بحفظه، إلا أن جزءاً غير يسير منها بقي نقياً، وقد جاءت الرسالة المحمدية لتؤكّده فيما بعد.

وقد احتفظت أمهات مصادر التراث العربي بكثير من تلك الوصايا، بل إنّ القرآن الكريم صرّح ببعضها، ومن تلك الوصايا قوله تعالى في محكم التنزيل على لسان سيدنا إبراهيم عليـــه السلام وهو يوصي أباه قائلاً(١):"**يا أبت لا تعبدُ الشيطان إنّ الشيطان كان للرحمن عصيّا**".

ومنه ما جاء على لسان يعقوب عليه السلام في وصيته لأبنائه قبيـــل خـــروجهم إلـــى مصر:"**لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة**"(٢).

ومما جاء من ذلك في المدونات العربية قول النبي إدريس عليه الـــسلام(٣): "**لا تحلفـــوا كاذبين، ولا تُحلّفوا الكاذبين ،فتشاركوهم في الإثم**".

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية عرفوا الكتب السماوية السابقة، وتناقلوا مـــضامينها، ثم إن الشعوب والحضارات كانت تحتفل بالحكمة والحكماء وأصحاب الرأي والكهنة والـــسحرة والعائفين والمنجمين، فكانوا يلجأون إليهم إن استعصى عليهم أمرٌ، وأولئك النفر كانوا يقـــدّمون النصائح والوصايا للناس.

وقد اتصلت الخبرات الإنسانية بشكل عام وتقاطعت، حتى إننا نقع على بعض الوصـــايا المنسوبة إلى آدم عليه السلام ونوح عليه السلام(٤)، وأيّاً كانت صحة تلك الوصايا فهي روايات تناقلها الناس وأثرت فيهم.

---

(١) سورة مريم، آية ٤٤.

(٢) سورة يوسف، آية ٦٧.

(٣) القفطي، تاريخ الحكماء ، مطبعة المثنى، ص٦.

(٤) انظر، سهام الفريح، الوصايا في الأدب العربي القديم، (١٩٨٨)، مكتبة المعلا، الكويت،ط١، ص١٨.

ولا يقف الأمر عند هؤلاء، بل إن الملوك والأمراء أوصوا رعاياهم، إذ كان ثمة ممالك ودول أوصى حُكامها أبناءهم بسلسلة من الوصايا، وأياً كان الرأي في حقيقة نسبة تلك النصوص فقد أوردتها المدونات العربية على أنها جزء من ثقافة تلك العصور. ومن تلك الوصايا وصية قحطان بن هود لأبنائه قبل موته بقوله(١): "**أوصيكم بذي الرحم خيراً، وإياكم والحسد، فإنه داعية إلى القطيعة فيما بينكم وأخوكم يعرب أميني عليكم، وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا أمره، واحفظوا وصيّتي، واعملوا بها، واثبتوا عليها ترشدوا...**".

والوصية ليست مرهونة بشخص معين أو ظرف خاص، فالحياة البشرية بتقلباتها تستدعي ذلك؛ إذ يحتاج الإنسان إلى الوصية في تنظيم شؤون حياته الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية، وفي معاملاته وخصوماته. ونصوص الوصايا الواردة من العصر الجاهلي متعددة تنتظم أغراضاً شتى.

وقد نقلت الكتب عدداً كبيراً من الوصايا في العصر الجاهلي، وهي وصايا صادرة عن أشخاص متعددين من الرجال والنساء، يبثون فيها متلقيهم فيضاً من خبراتهم ونصائحهم في شؤون الحياة وتصاريفها كُلّها.

فمن ذلك أكثم بن صيفي الذي وقف خطيباً بين يدي كسرى قائلاً(٢): "**إن أفضلَ الأشياءِ أعاليها، وأعلى الرجالِ ملوكهم، وأفضلُ الملوكِ أعمُّها نفعاً،وخيرُ الأزمنةِ أخصبُها وأفضلُ الخطباء أصدقُها، والصدقُ منجاة والكذبُ مهواة. والشرُ لُجاجة والحزم مركبٌ صعبٌ، والعجز مركب وطيء. آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر وخير الأمور الصبر، وحسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي.من فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء، شر البلاد بلاد لا أمير بها. شرّ الملوك من خافه البريء، المرء يعجز لا محالة، أفضل الأولاد البررة، خير الأعوان من لم يُراء بالنصيحة. أحق الجنود من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلغك المحل. حسبك من شر سماعه. الصمت حكم وقليل فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدد نفر ومن تراخى تآلف**".

واضح أن النص ينطوي على وصايا كثيرة في مجالات متعددة في شؤون الحكم والحياة

---

(١) وانظر فيه: دعبل بن علي الخزاعي، وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود، تحق: نزار أباظة، دار صادر– بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٢٦. الهمداني، الإكليل في أخبار اليمن وأنساب حمير، تعليق نبيه فارس، برشتن ،ج٨، ص١٧٧.

(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ١٩٣٣، مطبعة البابي الحلبي ، مصر، ج١، ص٢١-٢٢.

بشكل عام، وهو وإن بدا موجزاً منقطعاً إلا أنه يقدم شاهداً واضحاً على حشد المعارف والخبرات في نصّ يخدم موقفاً معيناً يقتضيه.

والتاريخ يروي لأكثم بن صيفي جملة من الوصايا والحكم التي وردت على أنها نصوص مترابطة في بعض المواضع، ووردت على أنها جملة من الجمل القصيرة والحكم والأمثال، وهي كلها تقع في باب الوصايا؛ إذ قدم فيها أكثم بن صيفي، وهو من أشراف قومه، وهو من كبار الحكماء خلاصة خبراته وعصارة تجاربه، ومما يذكر من وصاياه(١) ما قاله ردّاً على طلب للنعمان بن خميصة البارقي حين كتب إليه قائلاً:"**مثّل لنا مثالاً نأخذ به**:، فأجابه أكثم بن صيفي: "**قد حلبت الدهر أشطره فعرفت حلوه ومره، عين عرفت فذرفت، إنّ أمامي ما لا أسامي، رب سامع بخبري لم يسمع بعذري، كل زمانٍ لمن فيه، في كل يوم ما يكره ، كل ذي نصرة سيخذل، تباروا فإن البر ينمي عليه العدد، كفوا ألسنتكم ، فإن مقتل الرجل بين فكيه، إن قول الحق لم يدع لي صديقاً، الصدق منجاة، لا ينفع مع الجزع التبقي، ولا ينفع مما واقع التوقي، ستساق إلى ما أنت لاق، حيلة من لا حيلة له الصبر، كونوا جميعاً ، فإن الجمع غالب، تثبتوا ولا تسارعوا فإن أحزم الفريقين الركين، رب عجلة تهب ريثاً...**".

والنص طويل نوعاً ما نورد بعضه فقط، وهو حافل بالمعاني السامية، والنصائح اللطيفة، التي تشهد بطلب الوصايا والإقبال عليها من الخاصّة والعامّة.

كما أننا نجد وصايا لآخرين كثر غير أكثم بن صيفي فذاك خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها وحكمُها، قس بن ساعدة الأيادي(٢) صاحب الخطبة المشهورة"**أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت... أما بعد فإن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، نجوم تغور وبحار تمور ولا تغور، وسقف مرفوع ومهاد موضوع...**"

وكان هناك عدد من الوصايا التي صدرت عن الآباء لأبنائهم قبيل وفاتهم فذاك سعد العشيرة يوصي أبناءه قائلاً(٣):"**يا بني ،اتقوا إلهكم بالليل والنهار، وإياكم وما يدعو إلى الاعتذار، ودعوا قفو المحصنات تسلم لكم الأمهات، وإياكم والبغي على قومكم تعمر لكم**

---

(١) انظر النص كاملاً: أبو هلال العسكري،(١٩٦٤). **جمهرة الأمثال**، المؤسسة العربية الحديثة للنشر. ج١، ص٣٩٣-٣٩٥

(٢) انظر: أبو الفرج الأصفهاني،(١٩٥٥). **الأغاني**، دار الثقافة، بيروت،ج١٥، ص١٩٢.

(٣) انظر: أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، ج١٥، ص١٩٢.

الساحات، ودعوا المراء والخصام تسلم لكم المروءة والأحلام، تحببوا إلـى العـشائر تهـبكم العمائر..."

ومن تلك الوصايا ما أوصى به مالك بن المنذر البجلي أبناءه ونورد بعضه[١]:"...**يا بني كونوا جميعاً ولا تفرقوا ، فتكونوا شيعاً، فإن موتاً في عز خيرٌ من حياة في ذل وعجز، وكل ما هو كائن كائن، وكل جمع إلى تباين، الدهر صرفان ، فصرف رخاء، وصـرف بـلاء واليـوم يومان، فيوم حبرة ويوم عبرة، والناس رجلان ، رجل معك، ورجل عليك...**".

وقد أوصى عمرو بن الغوث بن طيء ولده، وأوصى قيس بن معد يكرب ولـده أيـضاً وغيرهم[٢].

على أن الوصايا لم تقتصر على الرجال فقد أوصت النساء بنـاتهن وقـد نهلـن مـن محصول خبراتهن فتلك أمامة بنت الحارث أوصت ابنتها يوم حملت إلى زوجها الحـارث بـن عمرو قالت[٣]:"**أي بنية، إنّ الوصية لو تُركت لعقل أو أدب، أو مكرمة في حسب لتركت ذلـك منك، ولزويته عنك، ولكن الوصية تذكرة للعاقل، ومنبهة للغافل. أي بنية، إنه لـو اسـتغنت المرأة بغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس عن الزوج، ولكـن للرجـال خُلـق النساء، كما لهن خلق الرجال. أي بنية، إنك فارقت الحواء الذي منه خرجت، والوكر الذي منه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك ملكاً، فكوني له أمة يكن لك عبداً، واحفظي عني خلالاً عشراً، تكن لك دركاً وذكراً، فأما الأولى والثانيـة فالمعاشـرة لـه بالقناعة وحسن السمع له والطاعة، فإن في القناعة راحة القلب، وحسن السمع والطاعة رأفة القلب. وأما الثالثة والرابعة فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا طيب الـريح. واعلمي، أي بنية ،أنّ الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجـود. وأمـا الخامسة والسادسة فالتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حـرارة الجـوع ملهبـة، وتنغيص النومة مغضبة. وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ بماله، والرعاية على حشمه وعياله، فإنّ الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير. وأمـا التاسعة والعاشرة فلا تفشي له سراً، ولا تعصي له أمراً، فإنك إن أفشيت سرّه لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، واتقي الفرح لديه إن كان ترحاً، والاكتئاب عنـده إذا كـان**

---

(١) أبو حاتم السجستاني، (١٩٦١).**المعمرون والوصايا**. تحق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربيـة، القاهرة، ص١٢٢.

(٢) انظر السابق، ص١٢٣-١٢٥.

(٣) السابق، ص١١٩.

فرحاً، فإن الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواك، ورضاه على رضاك، فيما أحببت وكرهت، والله يخير له، ويصنع لك برحمته".

ويبدو أن موضوع الزواج قد حمل عدداً من الآباء على أن يوصوا أبنـــاءهم وبنـــاتهم والعامة على حدٍّ سواء فقد أوصى أكثم بن صيفي(١) في ذلك قال: "**إياكم ونكاح الحمقاء، فـــإن نكاحها غرر، وولدها ضياع**"،وسعد العشيرة(٢)، قال:"**إياكم ونكاح الورهاء ؛ فإنها أدوأ الداء**".

ثم إن الشعراء أوصوا من فيض تجاربهم ونصحوا لأقوامهم وأصدقائهم وأهليهم فـذاك لقيط بن يعمر الأيادي(٣) في قصيدته التي بعث بها إلى قومه محذراً إياهم:

يـــا قـــوم لا تـــأمنوا إن كنـــتم غُيُـــرا — على نـــسائكم كـــسرى ومـــا جمعـــا
قوموا قيامـــاً علـــى أمـــشاطِ أرجلكـــم — ثم افزعوا قد ينالُ الأمرَ مـــن فزعـــا
هـــذا كتـــابي إلـــيكم والنـــذير لكـــم — لمن رأى منكم رأيـــاً ومـــن ســـمعا

ومن ذلك وصايا زهير بن أبي سلمى وحكمه الكثيرة في التعامل مع الحيـــاة والخـــلان والأصحاب، وفي البخل والكرم، والشجاعة والحروب؛ إذ قال(٤):

فـــلا تكـــتمن الله مـــا فـــي نفوســـكم — ليخفـــى ومهمـــا يُكـــتم اللهُ يعلـــمِ
يـــؤخر فيوضـــع فـــي كتـــاب فيـــدّخر — ليـــوم حـــساب أو يعجـــل فيـــنقم
ومـــا الحـــرب إلا مـــا علمـــتم ،وذقـــتم — ومـــا هـــو عنهـــا بالحـــديث المـــرّجم
متـــى تبعثوهـــا تبعثوهـــا ذميمـــة — وتـــضرم إذا أضـــريتموها فتـــضرم
ومـــن لـــم يـــصانع فـــي أمـــور كثيـــرة — يُـــضرّس بأنيـــاب ويوطـــأ بمنـــسم
ومن يجعل المعروف مـــن دون عرضـــه — يَفِـــرْهُ ومـــن لا يتـــق الـــشّتم يُـــشتم

---

(١) الميداني، أبوالفضل، (١٩٥٥). **مجمع الأمثال**. تحق: محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ،ج٢، ص١٨٢.
(٢) المعمرون والوصايا، ص١٢٢، الورهاء: الحمقاء.
(٣) ديوان لقيط، ص٤٦.
(٤) موسوعة الشعر العربي، مطاع صفدي وإيليا حاوي، شـــركة خيـــاط للكتـــب ، بيـــروت، ١٩٧٤، ج٤، ص٣١٨.وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، ضبطه وعلق عليه بركات يوسف هبّود، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢١٧-٢٥٥.

ومـــن يـــك ذا فـــضل فيبخـــل بفـــضله ... علـــى قومـــه يـــستغن عنـــه ويـــذمم
ومن يـــوف لا يـــذمم ومـــن يُهـــد قلبـــه ... إلـــى مطمـــئن البـــر لا يـــتجمجم
ومـــن هـــاب أســـباب المنايـــا ينلنـــه ... وإن يـــرق أســـباب الـــسماء بـــسلم
ومن يجعل المعـــروف فـــي غيـــر أهلـــه ... يكـــن حمـــده ذمّـــاً عليـــه وينـــدم
ومن لـــم يَـــذُد عـــن حوضـــه بـــسلاحه ... يهـــدّم ومـــن لا يظلـــم النـــاس يظلـــم
ومـــن يغتـــرب يحـــسب عـــدواً صـــديقه ... ومـــن لـــم يكـــرّم نفـــسه لـــم يكـــرّم

ويبدو واضحاً مما سبق أن الوصايا حضرت في ثقافة العصر الجاهلي وكانت تأتي في اللحظات الحاسمة والمواقف الحساسة ذات الخصوصية كمواقف الزواج ومفارقة الأهل، ومواقف الموت ومفارقة الدنيا وغير ذلك، وهي بذلك تضمن إيصال الخبرة من المفارق للمقيم، أو العكس.

وإذا كانت الوصايا في العصر الجاهلي قد تبوّأت منزلة مرموقة، فإنها قد بلغت أوجها وقفزت إلى الصدارة ببزوغ فجر الإسلام، وبلغ الخط البياني للوصايا في بداية عصر الإسلام ذروته وتأثرت بمفاهيم الدين الإسلامي الحنيف، واتخذت لها منه موارد عذبة تنهل منها وتصدر عنها؛ إذ تغيرت حياة العرب بمبعث البشير النذير والسراج المنير، واهتدوا بهديه وغدا القرآن الكريم المثل الأعلى في الوصايا التي تضمن صلاح الدنيا والآخرة؛ إذ نقرأ في الوصايا المبثوثة في محكم التنزيل ما ينظم علاقة العبد بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بأخيه المسلم، وعلاقته بزوجه وعائلته، بل إن الدين الحنيف ما ترك أمراً إلا ووجّه المسلمين فيه الوجهة القويمة وقد سبق بيان الآيات التي دلت صراحة على الوصايا باللفظ، ولعل في كثرة الآيات الكريمة التي تحمل المضامين الوعظية، وفي أن الدراسة ستأتي على ذكرها في مواضع مختلفة ممتدة على طول البحث لعل في ذلك كله مندوحة عن ذكرها هاهنا[١].

فالعصر الإسلامي الجديد حافل بالوصايا على اختلاف أشكالها وألوانها وأصنافها جاء

---

(١) انظر على سبيل المثال المواضع الآتية:
- سورة الرعد، الآية ١٨-٢٨.
- سورة الإسراء، الآية ٢٣-٢٩.
- سورة المؤمنون، الآية ١-١١.
- سورة الشورى ، الآية ٣٦-٤٣.

بعضها ليؤكد ما جاء في الشرائع السابقة، وجاء بعضها الآخر خطاباً خاصاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد جاء بعضها مباشراً في حين جاء بعضها الآخر غير مباشر يقدم في سياق القصص القرآني وضرب الأمثال.

ولم تقتصر الوصايا على القرآن الكريم وحده بل في كلام الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كمٌّ هائل من الوصايا الخاصة والعامة الصادرة عن الوحي الإلهي على لسان مَن لا ينطق عن الهوى وقد عَجّت فيها كتب السيرة النبوية فمنها ما جاء لعموم المسلمين وجمهور الصحابة، ورسله إلى الملوك والأقوام الأخرى، وأوصى قادة السرايا، وأوصى المسلمين منظماً بذلك شؤون حياتهم.

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المهاجرين والأنصار وقد جاء فيه(١):"...**وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس...**".

ومثل هذه النصوص كثير يصدر عن وحي إلهي، ويرد على لسان أفصح العرب جمع الحكمة واحتوى النصائح والمواعظ التي ترمي إلى تنظيم حياة المسلمين، على أن الدراسة ستتبع كثيراً من وصاياه صلى الله عليه وسلم في ثنايا البحث. ولعله من الجدير هنا أن نشير إلى خطبة حجة الوداع وما اشتملت عليه من لطائف جمّة ومعانٍ سامية، وهي الخطاب النبوي الأخير الجامع الذي وجهه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمة الإسلام قبيل أن يختاره الله عزوجل إلى جواره؛ إذ قال عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم(٢):"**أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن**

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، (د.ت). تحق: عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي (د.ط) ، بيروت، ص١٤٠.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٣٧١-٣٧٢.

ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أمّا بعد، أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبــداً، ولكنــه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرّمونــه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرّموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شــهراً. منهــا أربعة حرم: ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكــم علــيهن أن لا يوطئن فرُشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً. وإنكم إنمــا أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله.

فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيّه، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمنّ أن كل مــسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منـــه، فلا تظلمن أنفسكم. ألا هل بلغت؟".

ومن نصائحه عليه الصلاة والسلام ووصاياه لمرسليه إلى الأقوام ما أوصى به عيّــاش بن أبي ربيعة لما بعثه إلى بني عبد كُلال وقال له(١): "**خذ كتابي بيمينك وادفعــه بيمينــك فــي أيمانهم ، فهم قائلون لك: اقرأ، فاقرأ:"لم يكن الذين كفــروا مــن أهــل الكتــاب والمــشركين منفكين"(٢) فإذا فرغت منها فقل: آمن محمد وأنا أول المؤمنين، لن تأتيك حجّة إلا وقد دحضت، ولا كتاب زخرف إلا وذهب نوره، ومحّ لونه، وهم قارئون. فإذا رطنوا فقــد ترجمــوا، فقــل: حسن، آمنت بالله وبما أنزل من كتاب الله فإذا أسلموا، فسلهم قُضُبهم الثلاثة التي إذا تخضّروا لها سُجِد لهم: وهي الأثلُ، قضيبٌ مُلمّعٌ ببياض،وقضيب ذو عُجَر كأنه من خيــزُران والأســود البهيم، كأنه من ساسم. ثم اخرج بها فحرِّقها في سوقهم.**

---

(١) ابن عبد ربه،،(٢٠٠١). **العقد الفريد**. تحق: محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط١، مج٢، ص٤٣.
(٢) سورة البينة، آية١ "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة".

ووصاياه صلى الله عليه وسلم كثيرة مبثوثة في كتب الأحاديث وكتب السير والتاريخ وقد سار على نهجه الصحابة رضوان الله عليهم في ذلك .

وللخلفاء الراشدين وصاياهم أيضاً فهذا أبو بكر رضي الله عنه أوصى الصحابة في غير موضع موضحاً لهم سبل الرشاد ومن ذلك كتابه إلى الأمراء في حروب الردة؛ إذ قال يوصيهم(١):" **هذا عهد أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم برعاية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرروا له ...**".

وقد أوصى أبو بكر رضي الله عنه حين حضره الموت عمر بن الخطاب فقال(٢):"**إني مستخلفك وموصيك بتقوى الله يا عمر، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل. واعلم أنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة. وأنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق. ويحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً. وإنما خفّت موازين من خفّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا. ويحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً.**

إنّ الله جلّ ذكره ذكر أهل الجنة بحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم فإذا ذكرتهم فقل إني لأخاف ألا أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار بسوء أعمالهم ، فإذا ذكرتهم فقل إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء.

وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً لا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة، فإن حفظت وصيتي فلا يكونن غائبٌ أحب إليك من الموت ولست بمعجزه".

كما أوصى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل موته فقال(٣) مخاطباً عبد الله بن عمر:"أي بُنيّ! **إذا قام الخليفة بعدي فأته فقل إن عمر يقرأ عليك السلام، ويوصيك بتقوى الله**

(١) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، الشيخ محمد الخضري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ص٢٣-٢٤.

(٢) المبرد، أبو العباس، (٢٨٦هـ)، **التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا**. تحق: ابراهيم الجمل، مراجعة: محمود سالم، نهضة مصر للطباعة والنشر، ص١٣٥.

(٣) المبرد، مرجع سابق، ص١٣٦.

لا شريك له، ويوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً: أن تعرف لهم سابقتهم، ويوصيك بالأنصار خيراً أن تقبل من محسنهم وتتجاوز عن سيئهم. ويوصيك بأهل الأمصار خيراً فإنهم غيظ العدو وجباة الفيء، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم. ويوصيك بأهل البادية خيراً، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن تأخذ من حواشي أموالهم فتُردّ على فقرائهم، ويوصيك بأهل الذمة خيراً، وأن تقاتل من ورائهم ولا يُكلفوا فوق طاقتهم".

وقد أوصى سائر الخلفاء الراشدين من بعدهم، وسار على نهجهم الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً(١).

وقد أوصى الشعراء في صدر الإسلام جمهور المتلقين جملة من الوصايا التي صدروا فيها عن الدين الجديد ومن ذلك قول حسان بن ثابت(٢):

أعرض عن العوراء إن أسمعتها

واقعد كأنّك غافلٌ لا تسمعُ

وَدَع السؤال عن الأمور وبحثها

فلَرُبّ حافر حفرة هو يُصْرَعُ

والزم مجالسة الكرام وفِعْلَهُم

وإذا اتّبعت فأبصِرَن مَن تتبَعُ

لا تَتْبَعَنَّ غَوايةً لصبابة

إنّ الغواية كلَّ شرٍّ تجمعُ

وقد سار خلفاء بني أمية على نهج الخلفاء الراشدين في الوصايا، فمعاوية بن أبي سفيان أوصى ابنه يزيد لما شعر بدنو أجله ومما جاء في وصيته قوله(٣):"**...يا يزيد أمّا إذا لم تُصب الرشد فإني قد وطّأت لك الأمور، وذللت لك أهل العز، وأخضعت لك رقاب العرب، وكفيتك الرحلة والترحال وجمعت لك ما لم يجمعه واحد، وإني لست أخاف أن ينازعك هذا الأمر إلا ثلاثة نفر: الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير. فأما ابن عمر فرجل قد**

---

(١) انظر: المبرد أبو العباس، **التعازي والمرائي والمواعظ والوصايا**، ص١٣٧، ١٤١، ١٤٢، والعقد الفريد، ج٢، ص٣١٥.

(٢) حسان بن ثابت، (١٩٦١). **الديوان**. دار صادر، بيروت، ص١٥١.

(٣) المبرد، **التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا**، ص١٣٩-١٤٠.

وقذتهُ العبادة، وتخلى من الدنيا وشغلته نفسه بالقرآن، ولا أظنه يقاتل عليها إلا أن تأتيه عفواً.

وأما الذي يجثم جثوم الأسد ويروغ روغان الثعلب، فإن أمكنته الفرصة وثب فابن الزبير، فإن هو فعل فاستمكنت منه فقطعه إرباً إرباً إلا أن يلتمس منك صلحا، فإن فعل فاقبل منه واحقن دماء قومه تُقبل قلوبهم إليك.

وأما الحسين بن علي فإن له رحماً وحقاً وولادة من رسول الله ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه عليك، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو كنت صاحبه عفوت عنه".

وقد أوصى عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز وكثير من خلفاء بني أمية وأمرائهم وولاتهم(١).

وقد أوصى الأدباء والكتاب والشعراء، وحملوا للناس خبراتهم في أمور الحياة.

فابن قتيبة يوصي العلماء والأدباء بقوله(٢): "**إذا أردت أن تكون عالماً فاطلب فناً واحداً، وإذا أردت أن تكون أديباً فتفنن في العلوم**".

وقد سار الولاة والخلفاء والكتّاب والأدباء في العصر العباسي على هذا النحو ونورد على سبيل المثال إحدى وصايا الخليفة المنصور إلى ابنه المهدي(٣): "**يا أبا عبدالله: إني قد ولدت في ذي الحجة، ووليت في ذي الحجة، وهجس في نفسي أني أموت في ذي الحجة من هذه السنة، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي، يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب، احفظ يا بني محمداً صلى الله عليه وسلم وفي أمته، يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم، الزم الحلال، فإن فيه ثوابك في الآجل وصلاحك في العاجل، وأقم الحدود، ولا تعتد فيها فتبور، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه، وأزجر عن معاصيه من الحدود، لأمر به في كتابه، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً، مع ما ادّخر له عنده من العذاب العظيم، فقال:"إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا**

---

(١) انظر: المبرد، **التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا**، مصدر سابق، ص١٤٣-١٥٣.

(٢) العقد الفريد، ج٢، ص٣٥٩.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**. تحق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة،ج٦، ص٣٤٤-٣٤٥.

أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم" فالسلطان يا بني حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودين الله القيم، فاحفظه وحطه، وحصنه وذب عنه، وأوقع بالملحدين فيه، واقمع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم، والمثلات بهم، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن، واحكم بالعدل ولا تشطط، فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم للعدو، وأنجع في الدواء، وأعف في الفيء فليس بك حاجة مع ما أخلفه لك، وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة وإياك والأثرة، والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمّن السبل وخص الواسطة، ووسع المعاش، وسكّن العامة، وأدخل المرافق عليهم، واصرف المكاره عنهم، وأعدّ الأموال وأخزنها، وإياك والتبذير، فإن النوائب غير مأمونة، والحوادث غير مضمونة، وهي من شيم الزمان، وأعد الرجال والكراع والجند ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد، فتتدارك عليك الأمور وتضيع، جد في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً فأولاً، واجتهد وشمّر فيها ، وأعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل، باشر الأمور بنفسك ولا تضجر، ولا تكسل ولا تفشل، واستعمل حسن الظن بربك، وأسيء الظن بعمالك وكُتّابك، وخذ نفسك بالتيقّظ، وتفقّد من يبيت على بابك، وسهّل أذنك للناس، وانظر في أمر النزاع إليك، ووكّل بهم عيناً غير نائمة، ونفساً غير لاهية، ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة، ولا دخل عينه غمض إلا وقلبه مستيقظ، هذه وصيتي إليك والله خليفتي عليك".

هذه وصية سياسية مهمة ينقل أمير المؤمنين من خلالها لفلذة كبده ووصيّه على الخلافة خلاصة تجاربه في شؤون الحكم وسياسة الرعية، وهو إذ يوصيه يبين له كيفية التعامل مع الرعية والعمال ثم يبين له ما يحفظ به علاقته مع الله عز وجل، ويقدم له خلاصة تجربته لتظل الرعية آمنة في سربها طائعة لأمر ربها صادقة في ولائها وحبها، وهذا لا يكون إلا بيقظة القائم على أمر المسلمين وحذّره كما حثّه على التعفف في أموال الخزانة للاستعانة بها على صروف الدهر وتقلب الأيام، وحضّه على تطبيق أحكام الشريعة منصفاً لا متجنياً. وهي وصية جامعة مانعة، ذكّر فيها بحق الله على ولي أمر المسلمين، ثم بحقّه على رعيته وحقهم عليه.

ووصايا المنصور كثيرة، ثم إن وصايا غيره من الخلفاء والأمراء كثيرة أيضاً، مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ[١].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري، ج٨، ص٦٤٨-٦٥٠.

وقد تناقل الأدباء وصايا الأمم السابقة والحضارات الأخرى فكانت وصاياهم حاضرة في متناول المجتمع العربي[١]، كما قدم كثير من الوعاظ والنساك والأدباء جملة من الوصايا والمواعظ بين يدي الخلفاء و العامة والأهل والأصحاب، وقد دارت تلك الوصايا حول مضامين دينية وتعليمية وسياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية عامة تناولت مختلف جوانب الحياة بالتحليل وقدمت خلاصة التجارب الإنسانية في علاجها وكيفية التعامل معها[٢]، وقد تبادل الخلفاء والأمراء مع جمهور المثقفين والسياسيين الوصايا والنصائح[٣].

أما مساهمات الشعراء في هذا فكثيرة نورد جملة منها على سبيل المثال لا الحصر ومن ذلك قول أبي تمام[٤]:

اصبر على كيد الحسود	**فإن صبرك قاتله**
فالنار تأكل بعضها	**إن لم تجد ما تأكله**

وقول أبي العتاهية[٥]:

لا تمس في الناس إلا رحمة لهم	**ولا تعاملهم إلا بإنصاف**
واقطع قوى كل حقد إن مضمره	**إن زل ذو زلة أو إن هفا هاف**
وارغب بنفسك عما لا صلاح له	**وأوسع الناس من بر وألطاف**
ولا تكشف مسيئاً عن إساءته	**وصل حبال أخيك القاطع الجافي**
فتستحق من الدنيا سلامتها	**وتستقل بعرض وافر واف**

ولا أدل على ذلك مما قاله المتنبي في كثير من المواضع، منها[٦]:

---

(١) فقد أورد ابن المقفع كثيراً من الوصايا الفارسية،انظر: ابن المقفع،الأدب الكبير والأدب الصغير، دار الجيل، بيروت، ص٦٥، ٧٤، ٧٥.

(٢) انظر: الوصايا في الأدب العربي القديم، سهام الفريح، ص١٤٨-١٧٢..

(٣) انظر: تاريخ الوصايا ، فرج محمود أبو ليلى، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٩٧، ص١٧٧-١٧٩.

(٤) ديوان أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ص٢٤١.

(٥) ديوان أبي العتاهية، (٢١٠هـ). دار صادر، بيروت،(١٩٨٠)، ص٣٨٩.

(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، تحق: كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ج٤، ص٩٤-٩٥.

لا افتخـــــار إلا لمــــن لا يــــضام　　مــــدركٍ أو محــــارب لا ينــــام

ليس عزماً مــا مــرض المــرء فيــه　　ليس هما مــا عــاق عنــه الظــلام

واحتمــــال الأذى ورؤيــــة جانيــــــ　　ـــه غــذاءٌ تــضوى بــه الأجــسام

ذلَّ مــــن يغــــبط الــــذليل بعــــيشٍ　　رب عــيش أخــفّ منــه الحمــام

كـــل حلـــم أتـــى بغيـــر اقتـــدار　　حُجّـــةٌ لاجـــىءٌ إليهـــا اللئـــام

مــن يهــن يــسهل الهــوان عليــه　　مــا لجــــرح بميــــت إيــــلام

هذا عرض موجز لبعضٍ من الوصايا المشرقية المقتطفة من العصر الجاهلي وعــصر صــدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي، وقد رافق هذه الوصايا في المشرق والتي اشترك في إنتاجها عدد كبير من الأمراء والوزراء والملوك وأصحاب الرأي والعامة من الرجال والنساء – رافقها وصايا في الأندلس أيضاً، فالأندلس كانت تَعُجُّ بالأحداث السياسية المتقلبة، وكانت محــطّ أنظار أهلها الذين خسروها لصالح الفاتحين، ومطمعاً يتنافس عليه الفاتحون أنفسهم ومغنماً ظلّ محلّ نزاع أهل المشرق والمغرب على حدٍّ سواء، كما كان للاحتكاك بالثقافة الجديــدة للــسكان الأصليين وعاداتهم وتقاليدهم دورٌ في تولُّد جيل مغايرٍ للجيل الأول الذي وطئت أقدامــه أرض الأندلس، وانعكس هذا على حياتهم وعلى نتاجهم الأدبي.

أنواع الوصايا الأندلسية:

جاءت الوصايا الأندلسية كسابقاتها في المشرق العربي في مُختلف الضروب والمجالات من اقتصادية وسياسية واجتماعية ودينية فجاء بعضها فطرياً عفوياً(١)؛ انطلق أصحابها فيها من بث تجاربهم العادية التي اكتسبوها من حياتهم اليومية وقد جاءت من بعض الخبراء والحكمــاء

(١) انظر: جبران، محمد سعود ،(٢٠٠١). **فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب**. ليبيــا، ط١، ج٢، دار المدار الإسلامي، ص٦٨-٧١.

وأصحاب الرأي في مواقف عامة وخاصّة، كما صدرت عن الآباء والأمهات والإخوان.

وجاء بعضها مقصوداً، انطلق أصحابها فيها من توظيف معارفهم ومكتسباتهم التي حصلوها بعد أن عركتهم الحياة وعجمتهم الأحداث فعمدوا إلى صياغتها بطرق مختلفة، كي تؤدي الغرض الذي وضعت من أجله وذلك في سياقات متعددة، وجاء كثير منها رداً على طلب وجواباً عن سؤال، إذا طُلب إلى الموصي أن يقدم خلاصة تجربته في بعض المواطن، وأن يدلي بدلوه في غير أمر من أمور الحياة، بل إن بعضهم كتب موصياً على لسان بعض الأمراء والحكام، فجاءت وصيته مفصلة مسبقاً، محبوكة بناء على طلب ذلك الأمير أو الحاكم بحيث عبرت عما يشاء من معانٍ، وجاءت موافقة لما يحب بحيث ترضي رغباته، وتوصل خطابه إلى رعيته، وتشرح فلسفته الخاصة وهو بهذا – أي الكاتب – ينطق بلسان غيره ويستخدم ألفاظه لتؤدي معاني غيره وتعبر عنها.

كيف صارت فناً؟

الحق أن كتابة الوصايا وإن جاءت لحاجة فطرية أملتها ظروف الحياة بشكل عام، فإنها انتقلت من سياق القول الفطري العفوي، وأصبحت فناً أدبياً ينتظم الشعر والنثر على حد سواء له أصوله وطرائقه وآدابه وخصائصه وتقاليده، فقد أرسى كُتّاب الوصايا وناظموها قواعد عرفية وعاها جمهور أصحاب الوصايا وصدروا عنها، وإن لم تكن معلنة فيما يشبه القوانين المسبقة التي يُصدرُ عنها لتحقيق شروط معينة حتى يندرج العمل ضمن جنس أدبي عام فيسلك في عداده.

والمتتبع لنصوص الوصايا الأندلسية يجد أنها تنهل من معين الدين الحنيف وتصدر عن المعاني الإسلامية صدوراً واضحاً؛ إذ تتخذ من الإسلام مصدراً وهدفاً في آن معاً، فتنطلق منه لتصل إليه، ولعل طبيعة الحياة الأندلسية التي انساقت في الملذات من جهة، وغرقت في الحروب والفتن من جهة أخرى جعلت أصحاب الوصايا يلحون على المعاني الإسلامية والقيم الدينية، حتى يردوا الناس إلى جادّة الصواب، ويعيدوهم إلى الطريق القويم والصراط المستقيم، لا سيّما وأن دويلات الأندلس ظلت تتهددها الأخطارُ الخارجية المتمثلة بالدول المجاورة، وتتوعّدها الأخطار الداخلية المتمثلة بالتنافس على السلطة من جانب والتنافس الأندلسي (الإسلامي) الإسباني (المسيحي) من جانب آخر، وهو الأمر الذي دفع أصحاب الأقلام، وحملة الرايات التنويرية ممن استشرفوا المستقبل، وأدركوا سوء العاقبة إلى تبصرة الناس وتنويرهم بضرورة

الاتعاظ والاعتبار، وترك الترف والمنازعات ورفع لواء الجهاد والدفاع عن دولة الإسلام في الأندلس ضد ما يحدق بها من أخطار، والحفاظ على مكتسبات الفتح.

فأصحاب الوصايا إذن – كما سنرى – هم المثقفون والأدباء والكتاب والعلماء وأكابر رجالات الدولة، والأمراء والولاة والحكام والقضاة والزُّهاد، وكل هؤلاء يُحرّكهم هاجس واحد، شَدُّ العُرى وبلوغ الذُّرى نحو كشف الغُمة وتوحيد الأمة وجمع الكلمة، ليأخذ كلٌّ دوره ويستشعر مسؤوليته في الحفاظ على هذا الصرح، فالأمراء والحكام يأملون من شعوبهم أن تصطف خلفهم في حشد ضد الأعداء أياً كانوا، والمثقفون والعلماء والأدباء يسعون إلى الإصلاح بين الرعية والحكام وفي سبيل بلوغ هذا المرام أقبلوا على إنتاج وصايا للرعية ووصايا للحكام على حدٍ سواء، كلها تسعى إلى التوفيق وخلق حالة من الانسجام والرضا بين الراعي والرعية بغية الوصول إلى مجتمع ملتئم ملتحم متآلف منسجم، وهذا هو هَمُّ المثقفين عادةً في كل المجتمعات وليس هذا حكراً على المجتمع الأندلسي فحسب.

وسيتضح من الفصول الآتية أن كتّاب الأندلس وشعراءها اشتركوا في إنتاج الوصايا الأندلسية التي أثرت المكتبة العربية بنصوص نوعية مهمة تنتمي إلى هذا الجنس الأدبي الخاص؛ إذ ستكشف الدراسة أن كثيراً من الشعراء على اختلاف مستوياتهم، وتباين شهرتهم، وتعدد توجهاتهم ساهموا بشكل أو بآخر في رفد هذا الباب؛ إذ نقع على مقطوعات من القصائد الشعرية أو بعض أبيات من قصيدة تنتظم غرض الوعظ والإرشاد وتوصي الناس بخلاصة تجربة الشاعر وخبرته، فابن خاتمة الأنصاري، وابن اللبانة الأندلسي، وعبد الكريم القيسي، والبسطي، وابن شهيد الأندلسي، وابن الجيّاب الغرناطي، وأبو عبدالله الحداد، وابن دراج القسطلي، وابراهيم بن سهل الإشبيلي، وابن خفاجة، ومرج الكحل الأندلسي، ولسان الدين بن الخطيب، والمعتمد بن عباد، وابن شكيل الأندلسي، وأبو العباس الأعمى التطيلي، ويحيى بن حكم الغزال، وابن حمديس، وابن جبير، وابن الأبّار والحكيم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وبحتري الأندلس، وابن هانىء الأندلسي، كل هؤلاء وغيرهم كانت لهم يد في نظم المقطوعات الشعرية في الوصايا وإن تفاوت كماً ونوعاً، وكان للسان الدين بن الخطيب وابن الجنان، وابن هود، وابن سعيد، وأبي بكر بن القصيرة، ويوسف بن تاشفين، وغيرهم من رجال الدولة والحكام والأمراء مساهمات في الوصايا النثرية، على أن للسان الدين بن الخطيب اليد الطولى في هذا الفن[١] وسيتلو بيان ذلك.

---

(١) انظر ، نفح الطيب، ج٦، ص٣١٥.

وقد اعتمد كل أولئك وغيرهم على خبراتهم وما حصلوه من معارف في صياغة وصاياهم ونقل خبراتهم إلى الآخرين؛ إذ فرضت ثقافة الموصي ونشأته ومعرفته وخبرته وتوجهاته الفكرية ودرجة صلته بالدين ومقدار معاشرته للناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومعرفته بأحوالهم، نوعاً خاصاً من الوصايا في مضمونها ولغتها وشكلها العام، وعليه فقد أثّرت ثقافة الموصين في نتاجهم، فجاءت تلك الوصايا مختلفة متباينة في شكلها ومضمونها، على ما سيظهر جلياً في الصفحات القادمة.

وتتناول هذه الدراسة هذا الفن [(١)] الأدبي بالدراسة والتحليل؛ إذ عمدت إلى جمع الوصايا المتناثرة في كتب الأدب والتاريخ، وفي دواوين الشعراء، ثم قامت بتصنيف تلك الوصايا وتبويبها، ثم دراستها من حيث الشكل والمضمون، على أنها تركت التفصيل في ذلك إلى الباب الأخير، الذي عالجت فيه وصيتين أندلسيتين من حيث المبنى والمعنى.

وهذه الدراسة في سعيها الحثيث لبلوغ ذلك المقصد تأمل أن تبلغ مُرادها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، والله أسأل الهداية والرشاد والإصابة والسداد.

---

(١) وقد سمى لسان الدين بن الخطيب هذا الفن (أدب الوصايا والزواجر والعظات) في كتابه الريحانة، انظر فنون النثر في آثار لسان الدين ، ص٦٦.

الباب الأول

الوصايا النثرية في الأدب الأندلسي

يعرض هذا الباب للوصايا النثرية في الأدب الأندلسي في محاولة لجمع متفرقهـــا، ولَمِّ شملها، وتبويبها وترتيبها، وتصنيفها ليسهل على طلبة العلم والباحثين تتبعها في بحثٍ ينتظمها ، وبيان موضوعاتها ومضامينها، وتتبع أشهر قائليها ثم بيان خصائصها من خلال دراستها في محاولة لإيجاد سمات عامة تنتظمها وتجمعها.

ويقع هذا الباب في فصلين: الأول: موضوعات الوصايا النثرية، ويقع في ثلاثـــة مباحث، الأول يختص بالوصايا الدينية، والثاني: يختص بالوصايا الاجتماعية، والثالـــث: السياسية، وقد حظي المبحث الثالث بالنصيب الأوفر من هذا الباب، كما حظي لسان الدين بن الخطيب بالكم الأكثر من الوصايا النثرية بين الكتّاب الأندلسيين.

ثم جاء الفصل الثاني قصيراً ليتحدث عن خصائص هذه الوصايا.

الفصل الأول

موضوعات الوصايا النثرية

جاءت الوصايا – بشكل عام – لتنقل عموم الخبرة الشخصية والعامّة التي تحصلت لدى الموصي إلى الآخرين، فَشَرَع الموصي يستنفر طاقاته اللغوية وإمكاناتــه المعرفيــة لينتج نصوصاً وعظية في المقام الأول، أدبية في المقام الثــاني؛ إذ كــان الهــدف الأول الإيصاء فكانت تلك النصوص (الوصايا) نسيجاً متكاملاً وظفت فيه اللغة من أجل حَمْــل مضمون وعظي ناصح يوصي به صاحب الوصية، ولمّا كان الموصي حريصاً علــى ألا يدخر شيئاً عن المتلقين عرجت الوصايا على موضوعات شتّى وميادين مختلفة فكان منها الديني الذي ينظّم العلاقات بين العبد وخالقه وهذا النوع من الوصايا كثيراً ما ينهل مــن معين القرآن الكريم والسنّة النبوية، مُرَغّباً مرهّباً، وكان منها الاجتمــاعي الــذي يــنظّم العلاقات الإنسانية العامّة والخاصّة، والتعاطي في شؤون الحياة، وكان منها السياسي الذي ينظّم علاقات السلاطين وأولي الأمر برعيتهم من جانب وينظّم علاقات الرعيّة بهم مــن جانب آخر. على أنّ الوصايا تتسع لأكثر من ذلك؛ إذ تأتي على الحديث في كثيــر مــن الموضوعات التربوية والأدبية والقضائية العامّة والخاصّة.

وقد أوردتها الدراسة ضمن هذه الأبواب الثلاثة بغية التنظيم في العرض وقد تمت الإشارة إليها في مواضعها.

والصفحات القادمة تفصل الحديث في موضوعات الوصايا وفق مباحــث ثلاثــة تصنّف الوصايا النثرية إلى دينية واجتماعية وسياسية.

المبحـــث الأول

الوصايــا الدينيـــة

نَهَل الشعراء والكتاب من معين الدين الإسلامي الحنيف في القــرآن الكــريم والــسنة النبوية، وقد حاولوا في كثيرٍ مِمّا أنتجوه في هذا المضمار أن يحثوا الناس على امتثال أوامر الله عزّ وجل، فقد كانت التعاليم الدينية مصدرهم الذي ينطلقون منه ليصلوا إليه، فكتبوا موصــين الناس بضرورة العمل الصالح وحفظ القرآن والحفاظ على الصلاة والــصيام وإقامـــة شـــعائر الإسلام، فجاءت الوصايا الدينية لتَحُضَّ المتلقين على امتثال أوامر الله عز وجل واجتناب نواهيه والتزام جادّة الشريعة والطريق القويم.

ففي التحذير من الركون إلى الدنيا وما فيها من متاع الغرور وضرورة التنبّه والعمــل لملاقاة الخالق عزّوجل يقول ابن الجنّان[١]: "**ولا تخدعنّكم هذه الدنيا الدنيّة بتهاويــل الأباطيــل وأضغاث الأحلام، ولا تنسينكم خُدعها المُموّهة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام، فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدوث الحوادث وإلمام الآلام...**".

وفي الحض على عمل الخير وذكر الله، وتغيير المنكر، وحَثّ الآخرين على فعل ذلك يقول ابن الجنان بلسان ابن هود[٢]: "**استوفوا ضروب الصالحات واستقصوها، واعملوا أعمال البرّ وخصّوها، واذكروا آلاء الله وقصوها ...واشتدوا في تغيير المنكرات كلها، واحسموا أدواءها من أصلها، ورغبوا الناس في الطاعات واندبوهم إليها، ووضحوا لهم أعمالهم وحرّضوهم عليها**". والحقُّ أن وجود ابن هود ضمن دائرة ملوك الطوائف المتناحرين بشكل عام، وحربه مع المأمون بن ذي النون الذي كان يرأس دولة طليطلة التي حاربت دول ابن هود في سرقسطة جعلت ابن هود يلجأ إلى حَشد أبناء شعبه حوله، ومحاولة شَدِّ الصفوف حتى ينجح في حربه ضد الطليطليين[٣].

ومن هذا ما أوصى به الأمير أبو يعقوب أهل غرناطة ردّاً على مبايعتهم إيّاه بقوله:"**...والذي**

---

(١) هوابن الجنّان، محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري. نفح الطيب، ج٧، ص٤٢٨.

(٢) هوأحمد بن سليمان بن هود، عميد بني هود وعظيمهم. نفح الطيب، ج٧، ص٤١٣.

(٣) انظر: ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار المغرب**. مكتبة صادر، بيروت، ج٣، ص٢٧٨.

نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته، والاستعانة به والتوكّل عليه"[١].

وفي الحضّ على تعلم القرآن وتنشئة الأولاد على تَعَلُّمِه وتدبّر أحكامه، يقول لسان الدين[٢]: "**وَعلّموا القرآن صبيانكم فهو أسُّ المبنى، وازرعوه في تراب ترائبهم فعسى أن يجنى**". ويتضح هنا تأثر لسان الدين بن الخطيب بقوله تعالى في كتابه العزيز:"**يخرج من بين الصلب والترائب**"[٣].

ويلتمس القارىء أن لسان الدين لم يزج باللفظة اعتباطاً، وإنما التفت إلى حسن استثمارها؛ لتؤدي معنى يفيض جمالاً، وهو هنا يؤكد ضرورة تعليم الصبيان كتاب الله قبل بلوغهم الحلم.

وقد حَثّ على ذلك ابن الجنان في وصيّته على لسان ابن هود قائلاً[٤]: "**مُرُوهم بأن يُعَلّموا أولادهم كتاب الله تعالى فإن تعليمه للصغار يطفىء غضب الرب...**".

ويؤكد ابن الجنّان على لسان ابن هود ما ذهب إليه لسان الدين بن الخطيب بضرورة تعليم الناشئة كتاب الله قبل أن يبلغوا الحلم، فتلهيهم الدنيا وشهواتها ولذاتها ولم يُفَوِّت – على سبيل الترغيب– ذكر أثر ذلك الفعل وما أعَدّ الله لفاعله.

وفي نبذ البِدَع يقول لسان الدين[٥]: "**وائنفوا مِن الحوادث الشنيعة، والبدع التي تَفُتُّ في عضد الشريعة**". ولسان الدين في وصيته هذه ينهل من معين محمد صلى الله عليه وسلم ويقتبس من قوله :"**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ**"[٦] وقوله صلى الله عليه وسلم:"**وشرّ الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار**"[٧].

---

(١) عبد الملك بن صاحب الصلاة، (١٩٨٧).المنّ بالإمامة تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحّدين. تحق:عبد الهادي التنادي، دار العرب الإسلامي، بيروت، ص٢٦٥.

(٢) نفح الطيب، مصدر سابق، ج٧، ص٣٨٠.

(٣) سورة الطارق، آية٧.

(٤) السابق، ج٧، ص٤١٣.

(٥) هو ذو الوزارتين، لسان الدين بن الخطيب، طبيب وفيلسوف وكاتب وشاعر ومؤرخ بارع ووزير وسياسي له العديد من المؤلفات، نفح الطيب، ج٧، ص٣٨١.

(٦) صحيح البخاري ٩٥٩/٢.

(٧) صحيح مسلم، ج٢، ص٥٩٢.

ومن الوصايا في الحَثّ على الصدقة والإنفاق في سبيله تعالى قول لسان الدين[١]: "**فاشتروا مِن الله كرائم أموالكم بالصدقات وأنفقوا في سبيله يربحكم أضعاف النفقات**".

وفي الحضّ على التوبة قبل فوات الأوان يقول ابن الخطيب[٢]: "**يا طرداء المخالفة، إنكم مدركون فاستبقوا باب التوبة، فإن ربّ تلك الدار يجير ولا يجار عليه، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما هداكم**".

وقدْ رَدّ لسان الدين الوعظَ إلى كلام الله تعالى مبيناً أن الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها من الظروف والأحوال والأقوال فالوعظ يأتي من منبعين[٣]: لسان الحال وهو الأبلغ؛ إذ تقف القبور الموحشة والقصور الخالية وما تحتوي عليه من حكايات وأخبار لتعظ البَشَر ويتفكروا فيها. ولسان المقال وهو الوعظ بالقول الصادر عن أولي العلم وذوي الخبرة. وابن الخطيب إذ يصدر عن هذا يؤكد أنّ الوعظ الأجدى والأنجع هو الصادر عن الذات الإلهية لقوله[٤]: "**آه! أيُّ وعظٍ بعد وعظ الله تعالى يا أحبابنا يُسْمَعُ؟ وفي ماذا وقد تبيّن الرشد مِن الغِيِّ يُطْمَع؟ يا مَن يُعطي ويَمْنَع**".

وفي الحضِّ على الجهاد والدفاع عن الإسلام وأُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم، والمساجد، وإغاثة المستغيث من المسلمين، وإعانتهم بالكلمة والنفس والمال كتب لسان الدين بن الخطيب في غير موضع يقول[٥]:

"**وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينُكم فانصروه، وجواركم الغريبُ فلا تخفروه وسبيلُ الرشد قد وَضُح فلتبصروه، الجهادَ الجهادَ فقد تعيّن، الجار الجارَ فقد قرر الشرع حقّه وبَيّن، الله الله في الإسلام، اللهَ اللهَ في أمةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، الله الله في المساجدِ المعمورةِ بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، قد استغاثَ بكم الدينُ فأغيثوه، قد تأكدَ عهدُ الله وحاشاكم أن تنكُثوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن مِن الإعانةِ أعانَكُم الله تعالى عند الشدائدِ، جَدِّدوا عوائدَ الخير يصلُ الله تعالى لكم جميل العوائدِ، صِلُوا رَحِمَ الكلمة، واسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة... أدركوا رمَق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل**

---

(١) نفح الطيب، ج٧، ص٣٨٠.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق، ج٦، ص٣١٦.

(٤) نفح الطيب، ج٦، ص٣١٧.

(٥) السابق، ج٦، ص١٦٥-١٦٦.

الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده".

وفي الحضّ على إعداد العدّة لملاقاة العدو والتجهّز لذلك بالخيل والسلاح يقول لسان الدين[١]: "**وأهم ما صرفتم إليه الوجوه، واستدفعتم به المكروه، العملُ بأمره جلّ وعلا في الآية المتلوّة، والحكمةِ السافرةِ المجلوّة، من ارتباطِ الخيلِ وإعداد القوة، فمن كان ذا سعة في رزقه، فليقم لله بما استطاع مِن حَقّه، وليتّخذ فرساً يعمر محلّته بصهيله، ويقتنْه مِن أجل الله وفي سبيله...**" وهو يقول في موضع آخر في المعنى نفسه[٢]: "**أعدوا الخيل وارتبطوها**". وهو هنا يشير إلى قوله تعالى:"**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**"[٣].

وكان للمنامات أثر في تشكيل الوصايا؛ فقد وَجَّهت المنامات أصحابها في تمثلهم لبعض الفقهاء والصالحين، ومِن ذلك ما أورده الغرناطي في جَنّة الرضا من أنه رأى الشيخ أبا إسحق الشاطبي في المنام وسأله أن يوصيه فأوصاه بتقوى الله وخشيته قال[٤]: "**لقد رأيت في عالم النوم الشيخ أبا إسحق الشاطبي رحمه الله، ولم أدركه بسِنّي ولكنّي علمتُ في النوم أنه هو، وأخبرتُ بذلك وهو رجل أميلُ اللون للصُّفرة،خفيف العارضين، عليه جُبّة مختصرة وقبَلا ومثلها عَرْيٌ حَوليّ اللون كأنه مِلَفٌ بلدي الصنع صُبِغ تلك الصبغة فكنت أسأله أن يوصيني فقال لي: (اتق الله واخشه) فأخبرت بصفته وملبسه وما صدر لي منه من الوصاة الشيخ الأستاذ أبا عبدالله المُجاري**".

وهذا النص دالٌّ على أهمية الوصية، ودورها في تحريك الأمور، وحفز الناس على الإقدام على الأعمال الخَيّرة.

ومما جاء في هذا الغرض ما أوصى به لسان الدين بن الخطيب ابن مرزوق يحثه على الزهد في الدنيا بقوله[٥]: "**دَع الدنيا لأهلها فما أوكس حظوظهم، وأخَسَّ لحوظهم، وأقلَّ متاعهم، وأعجل إسراعهم، وأكثر عناءهم، وأقصر إناءهم**".

---

(١) نفح الطيب، ج٧، ص٣٨١.

(٢) السابق، ج٧، ص٣٨٧.

(٣) سورة الأنفال، آية٦٠.

(٤) الغرناطي، أبو يحيى ابن عاصم ،(١٩٨٩). **جنة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى.** تحق: صلاح جرار، دار البشير، عمان، ط١، ج١، ص١٤١-١٤٢.

(٥) هو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق، لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتّاب،ج٢، ص٣٤٣.

ومنه ما صدر عنه في موضع آخر قوله[١]: "**اتقوا الله في نفوسكم وانصحوها، واغتنموا فرص الحياة وارتجوها**".

ومنه ما قاله القاضي عياض موصياً جمهور الناس موجهاً إيّاهم وناصحاً لهم[٢]: "**أيّها الناس: اسلكوا جَوادّ الحقائق، واتركوا بُنيان الطريق، ولا تَغُرّنكم الدنيا بكواذب المخارق، فإنها كثيرة البوائق ، جَمّة العوائق، قاطعة للأسباب والعلائق، تاركة لمن هام بها مفارق، تدير دوائرها بكل صامتٍ وناطِق، كم أهلكت مِن الخلائق، وطوت من الفراعين والعمالق، وطوّحت من القياصِر والبطارق، وطرحت العُصم من أعلى الشواهق...**".

ولا يفوتنا أن ننوّه إلى وصية لسان الدين بن الخطيب لأبنائه وهي وصية حَشَدَت معاني دينية كثيرة في الفرائض والنوافل وما يُقام به الدين وما تطلب به مرضاة الله عز وجل وسيأتي تحليل هذه الوصية باستفاضة في الباب الأخير من هذه الدراسة.

ولَعلّه ليس من نافلة القول أن أدباء الأندلس وعلماءها إذ انطلقوا في إنتاج هذا الكم من الوصايا دفعتهم إلى ذلك ظروف الدول وتقلبها في المحن، وغياب الاستقرار السياسي، واستشعار أصحاب الرأي لقرب الزوال، وسوء العاقبة والمآل حتى إننا لنجد مؤلفات كاملة – كما سبقت الإشارة – تتأمل الوضع القائم فتجمع النصوص من التاريخ من المشرق والمغرب وتستخلص العبر والدروس وتوجّه الناس نحو تدارك الأمر في محاولة لاستنقاذ ما يمكن استنقاذه ولَعلَّ في خاتمة ابن عاصم الغرناطي لمؤلفه جنة الرضا خير شاهد على ذلك إذ يقول[٣]: "**فلنقدّر قدر هذا التدارك الذي أخذ بأيدينا من مهاوي الانتقام، ولنتأمل موقع هذا التلافي الذي أحلّنا من تجديد النعمة بأسنى مقام... اللهم هل بلغت وبالغت في النصح وأبلغت اللهم فاشهد، اللهم فاشهد**".

---

(١) ريحانة الكتاب، ج٢، ص٤٣٩.

(٢) محمد بن عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، ولي قضاء دانية وغرناطة، كان حميد السيرة نزيهاً متواضعاً. أبو عبدالله محمد، التعريف بالقاضي عياض، تحق : محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، د.ت، ص٨٦.

(٣) جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى،ج٣ ، ص٣٠٦.

المبحـــــث الثانـــــي
الوصايـــــا الاجتماعيـــــة

تَرَك الموصي لمتلقيه فيضاً مِن خبراته ومشاهداته فَسَجَّل له خلاصة تجاربه وعصارة شبابه، وتَرَك له أسساً وقواعد عامّة في التعامل مع الآخرين المقرّبين منهم والأبعدين على اختلاف طبقاتهم وأطيافهم وميولهم.

وفي معاملة الآخرين أوصى ابن سعيد ابنه بأن يُنْزِلَ كُلّ شخص منزله، لقوله:

"**وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء، ولا الكفء بمعاملة الأعلى**"(١).

ولم يقصد ابن سعيد من وصيته إساءة الظن بالناس جميعاً، فالناس ليسوا سواءً؛ ولذا احترز ابن سعيد ليأمن اللبس وليضمن عدم إساءة الفهم، وهو مع هذا كله لا يغفل فطنة ابنه وفراسته ولباقته ونباهته فيقول(٢):

"**ولا يحملنّك أيضاً هذا القول أن تطنّه في كل أحد، وتعجل المكافأة، وليكُن حُسن الظن بمقدار ما، واصبر بقدرٍ ما، والفَطِن لا تخفى عليه مخايل الأحوال، وفي الوجوه دلالات وعلامات**".

وحَذّر ابن سعيد ابنه مِن الاكتفاء بصاحب واحد ناصحاً إيّاه أن يمد جسور المعرفة بينه وبين الآخرين قائلاً:

"**وإياك ان يغرّك صاحبٌ واحد عن أن تذخر غيره للزمان، وتطيعه في عداوة سواه، ففي الممكن أن يتغيّر عليك فتطلب إعانة عليه أو استغناء عنه فلا تجد ذخيرة قدمتها، وكان هو في أوسع حال وأعلى رأي بما دبره بحيلته في انقطاعك عن غيره، فلو اتفق لك أن تصحب من كل صناعة وكل رياسة من يكون لك عُدّة لكان ذلك أولى وأصوب**"(٣).

ويبدو ابن سعيد واثقاً من قوله الذي هو ثمرة سني عمره وخلاصة تجارب حياته التي عجمتها الأحداث وعركتها الأيام حتى استوت على سوقها واستقام عودها وفي هذا يقول:

---

(١) هو موسى بن محمد بن عبد الملك، أبو عمران، نفح الطيب، ج٢، ص٣٥٧.
(٢) السابق، نفسه.
(٣) نفح الطيب، ج٢، ص٣٥٧.

"وسَلْني فإنّي خبير، طال والله ما صحبت الشخص أكثر عمري لا أعتمد على سواه، ولا أعتدّ إلا إياه، منخدعاً بسرابه، موثوقاً في حبائل خطابه، إلى أن لا يحصل لي منه غير العَضّ على البَنان، وقول: "لو كان ولو كان"(١).

كما أوصى ابن سعيد ابنه بمخالطة الناس بقدر محدود فلا يكثر مِن الزيارة أبداً على أن لا يجافي أحداً، حتى يحفظ ما بينه وبين الآخرين قائلاً:

"وأقلل من زيارة الناس ما استطعت، ولا تَجْفُهم بالجملة، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ولا ضجر ولا جفاء، ولا تقل أيضاً أقعد في كسر بيتي ولا أرى أحداً، وأستريح من الناس، فإن ذلك كسل داع إلى الذل والمَهانة، وإذا علم عدوّ لك أو صديق منك ذلك عامَلاكَ بحسبه، فازدرَاك الصديق وجسر عليك العدو"(٢).

ولا يكتفي الموصي بذلك، وإنما يحدد لمخاطَبه أيّ الناس يخالط ويقارب لقول ابن سعيد:

"ولتحرص جهدك على أن لا تصحب أو تخدم إلاّ ربّ حشمة ونعمة، ومن نشأ في رفاهية ومروءة، فإنك تنام معه في مِهاد العافية"(٣).

وهو لا يكتفي بإسداء النصيحة بل يحشد البراهين ليجعلها تنزل مِن سامعه منزل القناعة، لقوله:

"وإن الجياد على أعراقها تجري، وأهل الأحساب والمروءات ينكرون منافعهم متى كانت عليهم فيها وَصْمة"(٤).

ويسوق الأمثلة لذلك لقوله:

"وقد قيل في مجلس عبد الملك بن مروان: أشربَ مصعب الخمر؟ فقال عبد الملك – وهو عدوّ له محارب له على الملك– : لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه. والفَضْلُ ما شهِدت به الأعداء"(٥).

فهو يرسم حدوداً للعلاقة مع الصاحب على أن يسودها حسن المعشر لأن الدنيا دار مفارقة وتغيُّر.

---

(١) نفخ الطيب، ج٢، ص٣٥٧.

(٢) السابق نفسه.

(٣) نفح الطيب، ج٢ ، ص٣٥٨.

(٤) السابق،ج٢، ص٣٥٨.

(٥) السابق نفسه.

وهو إذ يقدّم لمتلقيه ما يجب عليه فعله ينصحه بأن يؤدي ما عليه من واجبات، وأن يحرص على إبقاء الود على أن لا يُغفِلَ الحذر؛ لأن الإنسان لا يُؤمَن وقد استشهد لذلك بحشد مِمّا أثر عن العرب قال:

"**واحذر كل ما بيّنه لك القائل: كُلُّ ما تغرسه تجنيه إلا ابن آدم فإنّك إذا غرسته يقلعك، وقول الآخر: ابن آدم يتمسكن حتى يتمكن، وقول الآخر: ابن آدم ذئب مع الضعف، أسد مع القوة**"(١).

لذا نراه يُلحّ على اختبار الأصحاب مورداً قصص السلف في ذلك(٢)، مؤكداً ضرورة التنبه إلى الأقوال والأفعال قال: "**... واستَمْلِ مِن عين مَن تعاشره وتفقد في فلتات الألسن وصفحات الأوجه**"(٣).

وفي عدم الانقياد وراء الحاسدين الذين يكرهون علوّ شأن غيرهم أوصى ابن سعيد ابنه قائلاً:

"**ومتى رَفَعَك الزمان إلى قوم يَذُمون من العلم ما تحسنه حسداً لك، وقصداً لتصغير قدرك عندك، وتزهيداً لك فيه. فلا يحملك ذلك على أن تزهد في علمك، وتركن إلى العلم الذي مدحوه، فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مَشيُ الحَجَلة فرام أن يتعلّمه فصعب عليه، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه، فبقي مخبل المشي**"(٤).

ثم أوصاه بالإقبال على الحياة وعدم الركون إلى مَن يمقت الآخرين ويذمّ الزمان ، قال: "**ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزّمان وأهله، ويقول: ما بقي في الدنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يستراح فيه، فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممّن صحبه الحرمان، واستحقّت طلعته للهوان، وأبرموا على الناس بالسؤال، فمقتوهم، وعجزوا على طلب الأمور من وجوهها فاستراحوا إلى الوقوع في الناس، وإقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم، وتعذير أمورهم**"(٥).

وفي تَرْك التسويف في الأعمال، ومبادرة شؤون الحياة، وفضل العزم والعمل، أوصى

---

(١) نفح الطيب، ج٢، ص ٣٥٨.
(٢) السابق، ص٣٥٨-٣٥٩.
(٣) السابق، ج٢، ص٣٥٩.
(٤) السابق، ج٢، ص٣٦٠.
(٥) السابق نفسه.

لسان الدين بعض من استدعى منه الموعظة قائلاً: "**مَن أضاع الفرصة، تجرّع الغُصّة، إن كان لك مِن الزمان شيء فالحال، وما سواه محال. تارك أمره إلى غد، لا يفلح للأبد. الإنسان ابن ساعته، فليُحطْها مِن إضاعته. التسويف سُمُّ الأعمال، وعَدُوّ الكمال**"(١).

وقد وَجَّه لسان الدين الوُعّاظ كي يغتنموا الوقت المناسب لبث نصائحهم قال: "**ولا تَعْدِل الوعظ البليغ باللسان الفصيح، والقلب القريح، فإذا رأيتَ الأرض قد اهتزّت ورَبَت، وهضابَ القلوب القاسية قد تَقلّبت، فشَمّر للغراس والزرّاع عن الذراع، واغتنم السراع والإسراع**"(٢). وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلّم يتَخوّل الصحابة رضوان الله عليهم بالموعظة كراهة السآمة عليهم(٣).

ومن الوصايا الاجتماعية النصح بالاعتدال في شؤون الحياة وعدم الإسراف، وفي هذا كتب الرئيس أبو عبد الرحمن إلى أبي النصر: "**أنا – أعزك الله – عليك شحيح، ولك فيما تأتيه، وتحتذيه نصيح فالزمان يساعد، والأيام تعوف وتباعد، فأقصِر مِن هذه الهِمَّة واقتصر من أمورك على المهمة، التي تفجأ مع الأوقات، ولا يُلجَأ فيها إلى ميقات، واقتصد في مواهبك، وأقصد إلى العدل في مذاهبك، ولا تَكَلّفَ في الجود بسرف، ولا تقف من التبذير على شرف**"(٤).

والوصايا الاجتماعية تنظم شؤون الحياة، وتوجّه السلوك نحو العيش النافع فقد أوصى ابن سعيد ابنه بحسن الخُلُق ، والأدب، واجتناب الريب في إقامته بدار الغربة حتى لا يلحقه الندم، ولا يفارقه البِرّ ولا الكرم(٥).

وفي سائر شؤون الحياة أوصى ابن سعيد ابنه بالرضا، والتسليم للقدر، لأن الأفكار مجلبة للهموم قال:

"**وآكد ما أوصيك به أن تطرح الأفكار، وتسلّم للأقدار:**

واقبل من الدهرِ ما أتاكَ به … مَنْ قرّ عيناً بعيشه نفَعَه

إذ الأفكار تجلب الهموم، وتضاعف الغموم، ومُلازمة القُطُوب، عنوان المصائب

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص٣٣٢.

(٢) السابق، ص٣١٥.

(٣) رواه البخاري، ج١، ص٣٨.

(٤) قلائد العقيان، ج١، ص٢٠٠.

(٥) نفح الطيب، ج٢، ص٣٣٥.

والخطوب، يستريب به الصاحب، ويشمت العدوّ المجانب، ولا تضرّ بالوساوس إلا نفسك، لأنّك تنصر بها الدهر عليك، ولله درُّ القائل:

إذا ما كنتَ للأحزان عَوْناً   عليك معَ الزّمان فمن تلوم

مع أنه لا يردّ عليك الفائتَ الحزن، ولا يرعوي بطول عتبك الزمن"(١).

وعلى تأكيدهم أهمية الشعر، والإفادة مِن الآخرين، نَبّه الموصون إلى ضرورة محاكمة خبرات السابقين إلى العقل قبل الأخذ بها، وهذا ينطبق على ما جاء به الشعراء، وفي هذا قال ابن سعيد في وصيته لابنه:

"**وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه، حتى تتدبره، فإن كان موافقاً لعقلك مصلحاً لحالك قوّاه ذلك عندك، وإلاّ فانبذه نبذ النواة، فليس لكل أحد يُتَبسّم، ولا كل شخص يُكَلّم، ولا الجود ممّا يُعم به، ولا حسن الظنّ وطيب النفس ممّا يعامل به كل أحد"**(٢).

وقد أوصى ابن سعيد ابنه بضرورة التعقل، والإفادة مِن تجارب الآخرين قال:

"**ومن سبقك بيوم فقد سبقك بعقل، فاحتذي مثله من جَرّب ، واستمع إلى ما خلّد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال، فإنّها خلاصة عمرهم، وزُبدة تجاربهم، ولا تتكّلْ على عقلك، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طولَ أعمارهم وابتاعوه غالياً بتجاربهم يُربحك، ويقع عليك رخيصاً، وإن رأيت مَنْ له مروءةٌ وعقل وتجربة فاستفد منه، ولا تضيّع فعله ولا قوله، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك، وحَثّاً لك واهتداء"**(٣).

وقد جاءت بعض الوصايا لتقدم توصيات في حق بعض الناس ممّن يسعون في أمر ما، فهذا أبو الفضل بن حَسَداي يكتب إلى ابن عمّار موصياً بابن الجد منوهاً إلى مكانته وقدره، ليجد له مكانة عند ابن عمّار، ومنه ما كتبه أبو المطّرف بن الدَّباغ يوصي برجل ركبه دين وقد وقع في أسر النصارى فدفع ماله افتداءً لنفسه فبيّن في تلك الوصية حالَ الرجل طالباً له يد العون.

غير أنّ هذا النوع من الوصايا لا يتمتع بحضور كبير في الوصايا النثرية الأندلسية؛ فالوصايا في الأندلس، كما اتضح وسيتضح، تضرب في موضوعات مختلفة، وتتناول قضايا متعددة، منها ما له علاقة بالدين وتنظيم علاقات المجتمع وأمور الدولة وهي غير مقتصرة على

---

(١) نفح الطيب، ج٢، ص٣٥٦.

(٢) نفح الطيب، ج٢، ص٣٥٦.

(٣) نفح الطيب، ج٢، ص٣٥٦.

تلك النماذج المحدودة من التوصيات كما يرى بعض الباحثين(١).

ومِن لطيف ما يقع عليه المتتبع للوصايا في العهد الأندلسي وصايا ابن حزم الأندلسي ونصائحه وعظاته للعشاق التي تكوّنت لديه، وتحصّلت بعد طول دراية وخبرة شهد له فيها القاصي والداني، وحسده عليها العدو قبل الصديق.

وجُلّ وصاياه هذه وردت في كتابه طوق الحمامة، ومنها ما جاء في باب السفير، إذ أوصى المحبين بتَخَيُّر سفرائهم بقوله(٢): "**ويجب تخيُّره وارتياده، واستجادته واستفراهه، فهو دليل عقل المرء، وبيده حياته وموته، وستره وفضيحته بعد الله تعالى، فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة، حاذقاً يكتفي بالإشارة، ويقرطس عن الغائب، ويُحسن من ذات نفسه، ويضع من عقله ما أغفله باعثه، ويؤدي إلى الذي أرسله كل ما يشاهد على وجهه ، كأنما كان للأسرار حافظاً، وللعهد وفياً، قنوعاً ناصحاً**".

ومن وصاياه في العشق ما حضّ عليه مَن وَجَد صديقاً مخلصاً بأن يحافظ عليه بقوله(٣): "**فإن ظفرت به يداك فشدهما عليه شدّ الضنين، وأمسك بهما إمساك البخيل، وصنه بطارفك وتالدك، فمعه يكمل الأنس، وتنجلي الأحزان، ويقصر الزمان وتطيب الأحوال**".

ومنه ما أوصى به العاشق من القنوع بقوله(٤): "**ولا بُدّ للمحب، إذا حُرم الوصل من القنوع بما يجد**".

---

(١) انظر: القيسي، فايز عبد النبي، (١٩٨٩). **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري**. دار البشير، ط١، عمان، ص٣٠٣.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ص٤٧.

(٣) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، ص٦٦.

(٤) الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مصدر سابق، ص١١٨.

المبحـــث الثالث
الوصــــايا السياسيـــة

قضى مالك الملك يوم خلق الخلق وبسط الرّزق بأن الأيّام دول، وجعل مفاتيح الملك ومقاليد زواله بين يديه جلّ وعلا فقال: "**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء**"(١).

وهذا الناموس لا يتغير ولا يتبدّل حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وسواء طال عمر الممالك أو قصُر، فإن انتقال الملك أمرٌ محسوم، وزواله أمرٌ محتوم وإذا كان هذا هو الحال أنّى وجّهت نظرك وقلبت بصرك فقد كان الحال كذلك في الأندلس ملك يطول وملك يزول ونجمٌ يطلع وآخر إلى أفول وراعٍ يرحل والأمرُ لغيره يؤول.

وكسائِر الدُّول فإنّ صاحب السلطة وإن علا شأنه وعزّ سلطانه وقسم بالسوية وعدل بين الرعية لا يمكن أن يكون محلّ إجماع فإذا أجمع عليه الخيّرون لصلاحه فسيسخط عليه الفاسدون ويسعون لانزياحه.

وحال الناس مع السلطة والسلطان يكاد يكون واحداً في كل زمان ومكان وإن تعدّدت الطرائق وبدت الفوارق فإنّها لا تنفي الشبه في العلاقات بين الراعي والرعية على اختلاف الأزمنة والأمكنة فترى أقواماً يمالئونه وآخرين يناوئونه وفئة تُعين وأخرى تُدين وجماعة تربأ وأخرى تبرأ وواحداً يتلهف ويتقرّب وآخر يتعفف ويتهرب، فالعلاقة إذن بين السلطان والرعية على اختلاف درجاتهم ومنازلهم ظلت موضع أخذٍ ورد، وقد تباين أصحاب الأقلام وروّاد المذاهب في مواقفهم من هذا الأمر فانقسموا بين مؤيد لصحبة السلطان ومعارض لها(٢).

ويبدو أن المضطلعين بمجالسة السلطان من ذوي الخبرة حريصون على أن يمنحوه عصارة معرفتهم، وخلاصة تجربتهم، وألا يبخلوا عليه منها في شيء، لذا فإنهم يقدمون إليه نصائحهم في مختلف صروف الحياة، ويبدو أن الوصايا السياسية جانب مهم من جوانب الآداب السلطانية إن لم تكن عمادها، إذ إنّ كثيراً من الأدباء العاملين في صحبة السلطان "يجمعون على جواز العمل مع السلطان، بل وضرورة "صحبته" وعللوها بـــ"واجب النصيحة" وإصلاح ما

---

(١) سورة آل عمران، آية ٢٦.

(٢) انظر في كثير من هذا: السيوطي، جلال الدين ، ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين، تحق: أبو علي طه، دار حزم، بيروت، ١٩٩٢.

يمكن إصلاحه من فساد"[١].

فهم في جُلّ نتاجهم الأدبي يتوجهون إليه بالنصح سواء أكان هذا النصح مباشراً أم غير ذلك فهم يطمحون إلى ضمان سلامته؛ لأنه ولي نعمتهم وعماد دولتهم وضمان رفعتهم.

فلسان الدين بن الخطيب ينصح للسلطان في كل ميدان، فلا يكتفي بإدارة شؤون الدولة وسياسة الوزراء والعُمّال، وإنما يُحادث السلطان في العلاقات الاجتماعية وكيفية التعامل مع الأهل والولد والخادم، فهو لا يتوانى في تقديم المشورة في أي موضوع، لذا فإنه ينصح للسلطان الأب والزوج والسَيّد والمالك والأمير، ويقدّم له نصائح في إدارة الحكم، والاقتصاد، والعلاقات الاجتماعية، والحياة الشخصية؛ "فلسان الدين رجل سياسة من الطراز الأول استطاع أن يوجه بعزمه وهمته سياسة الدولة النصرية أعواماً طويلة، سواء إزاء دول اسبانيا النصرانية، أو دول المغرب، وتبدو أصالته السياسية في كثير من رسائله"[٢]، فهو بنظرته الثاقبة، ينظر بعين الخبير إلى الأحوال، فيوصي الحكام بما فيه صلاح البلاد والعباد، ولعلّ ما تضمّنته رسالته "كتاب الوزارة ومقامة السياسة" من أمور يبين فيها للسلطان واجبه، فيشرح له حيثيات الأمور، ويطلعه على الخفايا مُوَجّهاً ناصحاً مُرشداً فيما ينبغي للسلطان من كيفية التعامل مع العُمّال والوزراء والجند والولد والخدم وسنعمل على بيان ما جاء في هذه الرسالة من وصايا سياسية فيما يتلو.

يُشَدّد لسان الدين على أهمية منصب الوزير؛ إذ هو أفضل عُدَد الأمير يصونه عن الابتذال ومباشرة الأنذال ويذكره إذا نسي، ويقدم له النصح والمشورة ولكنه يُحَذّر منه قائلاً[٣]: " **واحذر مصادمة تياره، والتجوّز في اختياره، وقدّم استخارة الله تعالى في إيثاره، وأرسل عيون الملاحظة على آثاره**" ويبيّن الصفات التي يجب أن يُختار الوزير بناءً عليها كأن يكون زاهداً في المُلك، راعياً للذمّة، حليماً، عالي القدر، مِن نَسَبٍ شريف، خبيراً بشؤون الدولة، وقد نبّه لسان الدين إلى خَطَرِ الوزير وضرورة تجنّب اختيار مَن يطمع في المُلك لهذا المنصب، ويشير إلى خطر أن يكون مال الوزير أكثر من مال المَلِك، أو أن يكون ممن عمل عند أعدائه وهو بهذا،

---

(١) العلام، عز الدين، الآداب السلطانية، عالم المعرفة، ٣٢٤ فبراير، ٢٠٠٦، ص١٥٨.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣، ج١، مقدمة التحقيق، ص٥٢-٥٣.

(٣) انظر: لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكُتّاب ونُجعة المُنتاب ، تحق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط١، ١٩٨١، ج٢، ص٣١٦-٣٣٣ ، نفح الطيب،ج٦، ص٤٣٤، وقد أورد لسان الدين بن الخطيب هذه الوصايا السياسية التي قدمت على شكل مقامة سياسية في كتابه الإحاطة في تاريخ غرناطة وفي ريحانة الكتّاب.

ينصح الملك ليحقق الفائدة المرجوّة من وزرائه وينقذ نفسه من أخطارهم.

وفي كيفية التعامل مع طبقات المجتمع، يبيّن لسان الدين الحَدّ الذي يجب أن تصل إليه الرَّعية من تعامل الحاكم معها بقوله: [١] "... **حتى تستشعر عليَّتُها رأفتك وحنانك، وتعرف أوساطها في النَّصَبِ امتنانك، وتَحْذَر سِفْلَتها سنانك، وحَظَر على كل طبقة منها أن تتعدى طورها، أو تخالف دورها، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها... وامنع أغنياءها مِن البطر والبطالة، والنظر في شبهات الدين بالتمشدق والإطالة...**" وحديثه في هذا طويل مُفَصّل.

ومن وصايا لسان الدين في سياسة شؤون الرعية، وحمايتهم والعناية بهم فهم ودائع الله بين أيدي الحكام، قوله: "**رعيتك ودائع الله تعالى قِبَلك، ومرآةُ العدل الذي عليه جَبَلك، ولا تصِل إلى ضبطهم إلاّ بإعانة الله تعالى التي وهب لك، وأفضل ما استدعيت به عونَه فيهم، وكفايته التي تكفيهم، تقويم نفسك عند قصد تقويمهم، ورضاك بالسَّهر لتنويمهم، وحراسة كهلهم ورضيعهم، والترفّع عن تضييعهم، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها، أخذاً يحوط ما لها، ويحفظ عليها كمالها**".

ولمّا كان الوالي راعياً مسؤولاً عن رعيته، يمسك بيده زمام أمورهم، ويقضي بينهم، ويرعى حُرُماتهم كان لا بُدَّ أن يكون رجلاً موثوقاً توكل إليه الأمانة فيرعاها حق رعايتها، ويؤدي حَقّها، وقد أوصى ابن هود بقلم ابن الجَنان بضرورة اختيار الرجل المناسب، فقال[٢]: "**ومِلاكُ الأمر في انتقاء من يتصرف، وتولية مَن لا يضيم ولا يتحيّف، فتخَيّروا للأنظار والجهات، مَن تُرتضى سيرته من الولاة، ولا تستعملوا أهل الفظاظة والجهالة، والمصرّين على الراحة والبطالة، فإنهم إذا استرعُوا أضاعوا، وإذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا، وميلوا باختياركم إلى المُتّسمين بالصلاح، المرتسمين في ديوان الكفاة النصاح...**".

والموصي يصدر عن فلسفة خاصّة، فهو يشعر بمسؤوليته تجاه الحاكم والرعية، لذا فإنه لا ينفَكُّ يُسدي نصائحهُ ويلقي مواعظه أملاً في تسديد الأمور وصلاح الشؤون، وهو ما عَبّر عنه لسان الدين قائلاً على لسان السلطان عبدالله محمد[٣]: "**وأنتم أولياؤنا الذين لا نَدّخر عنهم نصحاً، ولا نهمل في تدبيرهم ما يثمر نُجحاً، وبحسب هذا الاعتقاد لا نغفل عن نصيحةٍ ترشدكم**

(١) نفح الطيب، ج٦،ص٤٣٣.
(٢) نفح الطيب،ج٧، ص٤١٠.
(٣) السابق، ص٣٧٨.

إذا غفلتم، وموعظة نَقُصُّها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت الله أو اختلفتم ...". بل إنه يرى النُّصح عليه واجباً لقوله[١]: "**فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة، والذكرى التي توقِظ مِن السِّنة...**".

وقد تكون الوصية بين طبقات الحكام؛ إذ يوصي أمير المؤمنين حكامه وولاته ويوجههم في شؤون الدنيا والرئاسة مقوماً سيرورة أعمالهم، ومِن ذلك ما أوصى به يوسف ابن تاشفين أحد أمرائه وهو أبو محمد عبد الله بن فاطمة، بقلم أبي القاسم ابن الجَدّ قائلاً[٢]: "**فاتَّخِذ الحَقّ إمامك، وملِّكْ يَدَه زمامك، وأجْرِ عليه في القويِّ والضعيف أحكامك، وارفع لدعوة المظلوم حِجابَك، ولا تسد في وجه المُضْطَهَد المهضوم بابك، ووَطِّىء للرعية – حاطها الله – أكنافك، وابذل لها إنصافك واستعمل عليها مَن يَرْفُق بها ويَعْدِلُ فيها، واطَّرِح كُلَّ من يحيفُ عليها ويؤذيها**".

وهو إذ يوصيه ويُرشِدُه يحتاط لئلا يقع خطابه موقعاً بغيضاً من نفس المتلقي، فيقدِّم بين يدي ذلك بأن هذا تذكير وحسب، وأنّ المتلقي صاحب خبرةٍ ودراية يُكتفى بما عنده، وهو بذلك يُهيِّءُ المتلقي ليستقبل رسالته راضياً، إذ يقول[٣]في مستهلها: "**وأنت – أعزك الله – مِمّن يستغني بإشارة التذكرة، ويكتفي بلمحة التبصرة، لما تأوي إليه مِن السياسة والتجربة، فاتَّخِذ الحَقَّ إمامك**".

على أن الوصايا الصادرة عن الحكام مُلزِمَة في كثير من وجوهها، فهي خطاب مَن يملك السلطة لمن عليه السمع والطاعة، والمتلقي ليس له الخيرة فيما يستقبل وبذا يُصَرِّح أبو زكريا يحيى بن الأمير بما كتبه ابن الجد قائلاً[٤]: "**فإذا وصل إليكم خطابنا فالتزموا له السمع والطاعة، والنصح والمشايعة، جُهْد الاستطاعة، وعظموا بحسب مكانِه مِنّا قدْرَه، وامتثلوا في كل عمل مِن أعمال الحَقِّ نهيه وأمرَه**".

والحكام إذ يوصون رعاياهم يطمعون في أن يصلوا بهم إلى طاعتهم والانقياد إلى أوامرهم سواءً أكان هذا الانقياد ثمرة للنصح المبطن أم الخطاب المباشر بأن مرضاة الحاكم منجاة فليلزموها، ومن ذلك قول الوزير أبي القاسم على لسان أمير المرابطين يوسف بن

---

(١) نفح الطيب، ج٣، ص٣٨٠.
(٢) قلائد العقيان، ج٢، ص٣٣٢.
(٣) قلائد العقيان، ج٢، ص٣٣٢.
(٤) السابق نفسه، ج١، ص٣٣١.

تاشفين[١]: "**واخلصوا السمع والطاعة لوالي أموركم، وخليفتنا في تدبيركم، والقيام بالدقيق والجليل من أموركم، وسياسة جمهوركم ... قفوا عند ما يأمركم به، ويدعوكم إليه، ولا تختلفوا في أمرٍ من الأمور عليه، وانقادوا أسلس قِياد لحكمه وعزمه، ولا تقيموا على ثَبَج عنادٍ بين حَدِّه ورسمه**".

وقد كتب أبو بكر بن القصيرة عن أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين، يوصي جماعة متعديّة بعد أن حَذرها من عاقبة التمادي والعصيان، قائلاً[٢]: "**فاتّقوا الله في أنفسكم وأهليكم، وإيّاكم والاغترار، فإنه يورطكم فيما يرديكم، ويُزَيّن لكم قبائح معاصيكم، ويسوقُكُم إلى ما يَشْمَتُ به أعاديكم، وكفى بهذا تبصرةً وتذكرة**".

ومن مثل هذه الوصايا التي يُقدّمها الحاكم إلى رعيته الخارجة على حكمه في سياق تحذيري يؤذن بحربهم والاقتصاص منهم، كتب أبو بكر على لسان الوزير أبي الوليد بن سقبال محذّراً طائفة قائلاً[٣]:

"**فاتقوا الله وانزعوا عن مواقعه ما لا يرضى وليُقبِل كل واحد على ما يعينه، ديناً ودنيا، فهو أليق وله أولى**".

وهو نصح مبطّن بالتهديد والتخويف؛ إذ يتابع قائلاً: [٤] "... **فالحذار الحذار وإياكم والتجاهل والاغترار**".

ومن هذا ما كتبه الوزير أبو بكر عن ناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى أهل مكناسة قائلاً[٥]: "**فتوبوا من ذنب التباغض بينكم والتضاغن، واعصوا شياطين التحاقد والتشاحن، وكونوا على الخير أعواناً، وفي ذات الله إخواناً ولا تجعلوا للعقوبة عليكم يداً ولا سلطاناً ... فاتّقوا الله، وكونوا مع الصادقين، ولا تتولوا عن الموعظة وأنتم معرضون**".

وذووا الخبرات إذ يوصون الحكّام فإنهم يبسطون خبراتهم بين أيديهم في شتى المجالات، ولا يقتصرون في ذلك على سياسة الرعية، وإنما يتعدون ذلك إلى سائر مناحي الحياة.

ففي تربية الأولاد أوصى لسان الدين بن الخطيب الأمير بإحسان تأديبهم، وجعل الخير

---

(١) قلائد العقيان، ج٢، ص٣٢٥.

(٢) قلائد العقيان، ج٢، ص٣٠٧-٣٠٨.

(٣) السابق، ص٣٠٨-٣٠٩.

(٤) السابق، ص٣٠٩

(٥) قلائد العقيان، ج٢، ص٣١٢-٣١٣.

عادتهم، وألا تأخذه الشفقة بهم والحنان، وأن يكثر عليهم مِن القسوة، بإخفاء ميله إليهم، وأن يفيض لهم العطاء، ولا يصرف يومه وليله في الانشغال بهم، وأوصى بإثابتهم إذا أحسنوا، ومعاقبتهم إذا أساءوا، وأن يعلقهم بالخوف أكثر من تعليقهم بالرجاء، وأن يعلمهم الصبر، وأن يأخذهم بحسن النية. وأوصاه بأن يحبّب إليهم أموراً بعينها، وأن يُكَرّه إليهم غيرها، قال(١): "**وحبّب إليهم مراس الأمور الصعبة المراس، وحسن الاصطناع والاحتراس، والاستكثار مِن أولي المراتب والعلوم، والسياسات والحلوم والمقام المعلوم، وكَرّه إليهم مجالسة الملهين، ومصاحبة الساهين، وجاهد أهواءهم عن عقولهم، وحَذّر الكذب على مقولهم، ورَشِّحْهُم إذا آنست منهم رشداً أو هدياً، وأرضعهم مِن المؤازرة والمشاورة ثدياً، لتمرّنهم على الاعتياد، وتحملهم على الازدياد، ورُضهم رياضة الجياد، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم**".

وأوصاه أن يُقَوّمهم ويراقبهم ويتدارك ما تؤول إليه أمورهم بقوله(٢): "**وتدارك الخلق الذميمة كلّما نجمت، واقدعها إذا هجمت، قبل أن يظهر تضعيفها، ويقوى ضعيفها، فإن أعجزتك في الصغر الحيل، عظم الميل**".

ثم أوصاه، في الوصية نفسها، بكيفية التعامل معهم إذا كبروا، بأن يفرقهم في البلاد ويستعين بهم في شؤون العمل، كما يفرق سائر عماله، وأن يرسلهم في بعثات الجهاد قال(٣): "**وإذا قدروا على التدبير، وتشوّفوا للمحل الكبير، إياك أن توطّنهم في مكانك، جهد إمكانك، وفرقهم في بلدانك، تفريق عبدانك، واستعملهم في بعوث جهادك، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك، فإنّ حضرتك تشغلهم بالتحاسد، والتباري والتفاسد، وانظر إليهم بأعين الثقات فإنّ عين الثقة، تبصر ما لا تبصر عين المحبّة والمِقة**".

و يوازي لسان الدين بين العقل والقلب في وصيته هذه ، إذ يطلب إلى السلطان أن يلجأ إلى عقله وخبرته في سياسة أولاده، وألا يترك العنان لعاطفته لتقوده في معاملتهم.

وفي سياسة الخدم يقدم لسان الدين بن الخطيب،في هذه الوصية، جملة مِن الوصايا والعظات، لما لهذه الطبقة من أهمية للسّيّد بعامّة وللسلطان بشكل خاص. فهم بمنزلة الطيور الجارحة التي تنقل للسلطان ما يجري من حوله فتكون منه بمثابة السمع والبصر، لذا فإن على

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص٤٣٧.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق، ص٤٣٧-٤٣٨.

السلطان أن يسوسهم بالصدق، وأن يحفظهم كما يُحفظ اللؤلؤ، وأن يعلمهم حُسْنَ الانقياد لما يُحب ذاكراً جملة مِمّا يجب أن يلزمه في التعامل معهم قائلاً[١]: "... **وأشرب قلوبهم أن الحق في كل ما حاولته واستنزلته، وأن الباطل في كل ما جانبته واعتزلته، وأنّ مَن تَصَفّح منهم أمورك فقد أذنب، وباين الأدب وتجنّب، وأعط مَن أكددته، وأضفت مِنه ملْكَه وَشَدَدتَه، رَوْحَةً يشتغِلُ فيها بما يعنيه، على حسب صعوبة ما يعانيه، تغبطهم فيها بمسارحهم، وتَجُمّ كليلة جوارحهم... وحَذّر عليهم مخالفتك ولو في صلاحك، بَحَدِّ سلاحك، وامنعهم مِن التواثب والتشاجر، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر**".

وحَدّد ابن الخطيب طبقات الخَدَم، وما ينبغي لكل فئةٍ منها، وكيفية التعامل معها، وما هو العمل الأجدر بكل جماعة منهم طبقاً لسماتهم وطبائعهم قال[٢] : "**واحذر منهم مَن قويت شهواته، وضاقت عن هواه لهواته، فإن الشهوات تنازعك في استرقاقه، وتشاركك في استحقاقه، وخيرهم مَن ستر ذلك منه بلطف الحيلة، وآدابٍ للفساد محيلة... واستخلص منهم لِسِرّك مَن قلّت في الإفشاء ذنوبه، وكان أصبر على ما ينوبه، ولودائعك مَن كان رغبته في وظيفة لسانك، أكثر مِن رغبته في إحسانك، وضبطه لِما تقلّد مِن وديعتك، أحَبّ إليه مِن حُس صنيعتك، وللسّفارة عنك من حلا الصدق في فمه، وآثره ولو باختطار دَمِه، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمّله، وعُني بلفظه حتى لا يهمله، ولِمَن تودعه أعداء دولتك مَن كان مقصود الأمل، قليل القول صادق العمل، وَمن كانت قسوته زائدة على رحمته، وعَظْمُه في مرضاتك آثر مِن شحمته، ورأيه في الحذر سديد، وتَحَرّزه مِن الحيل شديد، ولخدمتك في ليلك ونهارك مَن لانت طباعه، وامتدّ في حُسن السجيّة باعُه، وأمِن كيده وغدره، وسَلِم مِن الحقد صدره، ورأى المطامع فما طمع، واستثقل إعادة ما سَمِع، وكان بريئاً مِن المَلال، والبشر عليه أغلب الخلال**".

فلسان الدين يُقَدّم للسلطان مَن يختار مِن خَدَمه لحفظ السّر، ولحفظ الودائع والأمانات، وللسفارة، وللسجّان. ثم هو لا يُغفل أن يُحَدِّث السلطان عَن هباته وعطاياه لمن يقومون بخدمته بحيث تكون العطايا محددة المقدار لا تُفسِدهُم وتبطرهم بكثرتها، ولا تُؤسِفُهم بصغرها وقِلّتها، وأن يناسب بين العَطيّة وصاحبها.

وفي التعامل مع الجُند كتب لسان الدين، في وصيته نفسها، يوصي السلطان بكيفية

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص٤٣٨.

(٢) السابق، ج٦، ص٤٣٨-٤٣٩.

التعامل معهم؛ إذ أوصى بضرورة دفع استحقاقاتهم، وضرورة أن يكفيهم السلطان حاجاتهم ويغنيهم عن طلبها عند غيره، وأن يُقَدّر لكل امرئٍ منهم قَدْراً يتناسب مع إخلاصه، وقال في ذلك(١):

"وأمّا الجند فاصرف التقديم منهم للمقاتلة، والمكايدة، والمخاتلة، واستوفِ عليهم شرائط الخدمة، وخذهم بالثبات للصدمة، وَوَفّ ما أوجبت لهم مِن الجراية والنعمة... ولا تكرم منهم إلاّ مَن أكرمه غناؤه، وطاب في الذّبِ عن ظنك ثناؤه".

ثم أوصى السلطان أن يُؤَمّر الأذكياء ذوي الفطنة مِن الجند على جماعتهم، وأن يراعي في معاملته معهم أن يأخذوا حُسن التعامل فيما بينهم عادة، وألا يتساهل معهم في علاقتهم به وضرورة إطاعته والانقياد لأوامره قال(٢): **"وَوَلّ عليهم النبهاء مِن خيارهم... ولا تُلِن لهم في الإغماض عن حُسن طاعتك قياداً، وعوّدهم المواساة بأنفسهم اعتياداً...".**

وشدّد لسان الدين على ضرورة تعهّد الجند بالطعام، ورزقهم وشغلهم عن الشغَف بأهلهم ومالهم وأن يرعاهم طالما أراد منهم أن يحموا ثغور المسلمين ويجاهدوا ويبذلوا أرواحهم، قال(٣): **"وتعاهدهم عند الغناء بالعلفة والطعمة ... واجتهد في صرفهم عن الافتتان بأهليهم وديارهم ... وقدّمهم على حصصك وبعوثك مهما أردت جهاداً..."**. ولكنه حَذّر السلطان من الإسراف في رعايتهم وتركهم يعتادون حياة الترف قال(٤): **"... ولا توطئهم الدَّعَة مهاداً ..."**.

وبَيّن لسان الدين أهمية السلاح للجندي وضرورة حَمْلِه والاعتناء به، وأن يُصْرَف المال في سبيل تجهيزهم وإعدادهم بالمراكب والملابس والأسلحة ، قال(٥): **"ولا تسمح لأحدٍ منهم في إغفال شيءٍ مِن سلاح استظهاره، أو عُدّة اشتهاره، وليكن ما فَضُل مِن شبعهم وريّهم مصروفاً إلى سلاحهم وزيّهم ، والتَزَيُّد في مراكبهم وغلمانهم، مِن غير اعتبار لأثمانهم".**

كما أوصى السلطان بضرورة صرف الجند عن الاشتغال بغير الجندية أو انشغالهم بالمتاجرة حتى لا يألفوا الحياة المدنية، وأن يُدفعوا أبداً للكسب من المعارك، وإلا يفعل فإنهم يفسدون بذلك كما تفسد الجوارح التي يطعمها الآخرون فتعتاد الراحة وتضعف قوتها على

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص٤٣٥.
(٢) السابق نفسه.
(٣) نفح الطيب، ج٦، ص٤٣٥.
(٤) السابق نفسه.
(٥) السابق نفسه.

الاصطياد قال[١]: "**وامنعهم مِن المستغلات والمتاجر، وما تكسب به غير المشاجر، وليكن مِن الغور اكتسابهم، وعلى المغانِم حسابهم، كالجوارح التي تَفْسُد باعتيادها، أن تطعم مِن غير اصطيادها**".

فالجند – كما يرى لسان الدين[٢] – لا يبذلون أرواحهم إلا لمن يحسن معاملتهم والحديث إليهم، ويقومهم ويعطيهم حقّهم، ويرعى عيالهم ويتّقي الله فيهم، فإنهم عندها يقدمون أرواحهم، ويحتملون المشاق.

وحتى يحصل السلطان مِن جنده على الطاعة وحسن الفِداء عليه أن يضع الرجل المناسب في المكان المناسب؛ فيقرب إليه مَن أنس منه طاعة في الذود عن السلطان وجَلَداً لحمايته وحرصاً على مرضاته، الذي يُحكِم إدارة مَن يعملون تحت لوائه، الشجاع الذي لا يخاف عظائم الأمور، الذي يتمكن من خلافة السلطان في رعيته فلا يظلمهم، وألا يُقرّب أحداً إليه إلا بعد اختباره، فإن تبيّن أنه قادرٌ على ذلك وأنه صابرٌ في البلاء، جَرّب العناء مراراً في الدفاع عن السلطان، مُحِبٌّ له، حليم تسبق حكمته غضبه. فإن هذا الرجل أَحَقُّ الجند بالقرب مِن السلطان.

يأتي بعد هذا على ذكر طبقة أخرى[٣] بيّن لسان الدين صفاتها للسلطان، وذكر أماراتها بأنها مِن الرجال الذين يعرفون بحسن الطاعة لأمراء السلطان الذين يحملون لواءه، ومنهم من لا يجادل الأمير ويطيع أوامره، ويصبر على ما يَحِلُّ به مِن الخطوب أكثر مِن فخره بفعاله.

ثُمّ وَضّح ابن الخطيب[٤] مَنْ مِن الجند حَرِيٌّ بحذر السلطان مِمّن يرى نفسه أكبر ممّا هي، الذي يأخذ أكثر مِمّا يبذل، الذي يُبَخّسُ ما وصل إليه غيره مِن مكانة في قلب السلطان وحظوة عنده ممّن لَمْ يَقْوَ على نواله. الذي يوازن بين عطاء السلطان وعطاء أعدائه، وتَوَعّدَ بترك السلطان والارتحال عنه مظهراً الكراهة لموقعه ومكتسباته في ظل السلطان.

و يُقدّم ابن الخطيب في هذا عصارة تجربته الإنسانية وخبرته العسكرية في سياسة الجند، والتعامل معهم. ولا يخفى ما لهذه الوصية مِن خطر وأهمية في توطيد أركان الدولة التي تخوض غِمار الحروب كثيراً، وللجند فيها سُلطةٌ مؤثرة.

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص ٤٣٥.

(٢) انظر: السابق ص٤٣٥-٤٣٦.

(٣) انظر: نفح الطيب، ج٦، ص٤٣٦.

(٤) انظر: السابق نفسه.

وفي كيفية التعامل مع العمال كتب لسان الدين بن الخطيب إلى السلطان مبيناً أهمية هذه الطبقة في الدولة، وأثرهم على السطان، لأنهم "**ينبئون عن مذهبه، وحالهم في الغالِب شديدة الشَّبه به**"(١) لذا كان لا بُدّ للسلطان من رعايتهم وتعهدهم بالتعليم والتثقيف حتى يحسنوا معاملة الرّعِية، وأن ينزلهم مِنه منازل بحسب أعمالهم وصفاتهم، قائلاً(٢): "**وأنزلهم مِن كرامتك بحسب منازلهم في الاتّصاف، بالعدل والإنصاف، وأحِلّهم مِن الحفاية، بنسبة مراتبهم مِن الأمانة والكفاية**".

وأن يراوح في معاملتهم بين الخوف والرجاء، ويُعَرّفهم ويُرَسّخ في نفوسهم أن التقرّب إليه إنما يكون بإقامة الحق ودحض الباطل، فإنها السبيل التي ترفع منازلهم. وفيها يُقام الحق ولا تشكو الرعية عند ذلك.

وأوصى لسان الدين السلطان بأن يكفي العُمّال من مال الدولة حتى يترقعوا عن الكسب الدنيء(٣).

كما ذكر ابن الخطيب مجموعة مِن الخِصال التي يرى مِن الواجب توافرها في العامل ليستأنس بها السلطان في اختيار عُمّاله، قائلاً (٤): "**واصطنع مِنهم مَن تَيَسّرت كلفته، وقويت للرعايا ألفته، ومَن زاد على تأميله صبره، وأربى على خَبَره خُبْره، وكانت رغبته في حُسن الذّكر، تَشفّ على بنات الفكر... وابغ مَن يكون الاعتذار في أعماله، أوضح مِن الاعتذار في أقواله**".

وأعقب هذا بمجموعة مِن الصفات التي لا يَصلُح صاحبها لهذا العمل تمثّلت في(٥): "**واجتنب منهم مَن يَغْلب عليه التَخَرّق في الإنفاق، وعدم الإشفاق، والتنافس في الاكتساب، وسَهُل عليه سوء الحساب، وكان ذريعته المصانعة بالنفاية، دون التّقصي والكفاية، ومَن كان مَنْشَؤه خاملاً، ولأعباء الدناءة حاملاً**".

ولم تقتصر نصائح لسان الدين على شروط قبلية في تعيين العُمّال، وإنما كتب ينبه السلطان إلى ضرورة متابعتهم ومراقبة أدائهم، وألاّ يغترّ ويُفتن بمن يخالف السنن المعهودة في

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص٤٣٦.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه، ص٤٣٦.

(٤) السابق، ص٤٣٧.

(٥) السابق، ص٤٣٧.

الحكم، ومَن يُرضيه بسخط الرعية لأنه إنما يَغُشُّه بذلك، قال[١]: "**ولا يفتنك مِمّن قلّدْتَه اجتلاب الحَظّ المقنع، والتَّنَفُّق بالسّعي المُسْمِع، ومخالفة السُّنن المرعِيّة، واتّباعه رضاك بسخط الرعية، فإنّه قد غشّك، مِن حيث بَلّك ورشّك، وجعل مِن يمينك في شِمالك حاضر مالك**".

وأن يحذر السلطان العمال، فلا يُخَلّي لهم وجه الأمر، فإنهم يأخذون مكانه، وألا يُطلق أيديهم في مال الدولة، وألا يتركهم في الولاية أمداً بعيداً، قال[٢]: "**ولا تُضمّن عاملاً مال عمله، وحُل بينه فيه وبين أمَلِه، فإنّك تميت رسومك بمحياه، وتخرجه مِن خدمتك فيه إلا أن تملكه إيّاه، ولا تجمع له بين الأعمال فيسقط استظهارك ببلدٍ على بلد، والاحتجاج على والدٍ بولد، واحرص على أن يكون في الولاية غريباً، ومنتقلُه منك قريباً، ورهينة لا يزال معها مريباً... ولا تُطِل مُدّة العمل**".

كما حذّر لسان الدين السلطان من التهاون في أمر عاملٍ خان الأمانة؛ لأنه عندها يكون مشاركاً له، وأن يهتم بمراقبة عُمّاله، قال[٣]: "**ولا تقبل مصالحته على شيءٍ اختانه، ولو برغيبة فتّانة، فتقبل المصانعة في أمانتك، وتكون مشاركاً له في خيانتك... وتعاهد كشف الأمور مِمّن يرعى الهمل، ويبلغ الأمل**".

وعلى السلطان أن يتنبّه في أموره كُلّها، لأنّه محط الأنظار، في السِّر والعَلَن: قال لسان الدين[٤]:

"**واعلم أنّك مع كثرة حُجّابك ، وكثافة حِجابك، بمنزلة الظاهر للعيون، المطالب بالديون، لشدة البحث عن أمورك، وتعرّف السرّ الخفي بين أمرك ومأمورك، فاعملْ في سرّك ما لا تستقبحُ أن يكونَ ظاهراً، ولا تأنفْ أن تكون به مُجاهراً**".

على أنه يجب ألاّ يتهاون في اغتيابه، حتى لا يُستهان به، قال[٥]:

"**واحبس الألسنة عن التخالي باغتيابك، والتشبّث بأذيال ثيابك، فإن سوء الطاعة ينتقلُ من الأعينِ الباصرة، إلى الألسنِ القاصرة، ثم إلى الأيدي المتناصرة**".

كما أوصى الملوك بالعناية بالعمارة، وترك الآثار التي تضمن بقاء الذكر قال لسان

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص٤٣٧.

(٢) السابق نفسه، ص٤٣٧.

(٣) السابق نفسه، ص٤٣٧.

(٤) السابق نفسه، ص٤٤٣.

(٥) نفح الطيب، ج٦، ص٤٤١.

الدين[١]:

"واعلم أن بقاء الذكر مشروطٌ بعمارة البلدان، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان، فاحرص على ما يوضح في الدهر سُبُلك، ويحرز المزية على من قبلك".

وقد أوصى السلاطين بمن يصطفون لمجالستهم، ومَن يختصّون لمنادمتهم، فقد بَيّن لسان الدين للسلطان أي العامّة يُجالس. قائلاً[٢]:

"أمّا العامية فمن عظم عند الناس قدره، وانشرح بالعلم صدره، أو ظهر يساره، وكان لله تعالى إخْباته وانكساره، ومن كان للفتيا منتصباً، وبتاج المشورة معتصباً".

ثمّ بَيّن له مَن يُجالس مِن الخاصّة مِن ذوي الحكمة والخُلُق، قال[٣]:

"وأما الخاصية فمن رَقت طباعه، وامتدّ فيما يليق بتلك المجالس باعه، ومن تبحر في سير الحكماء، وأخلاق الكرماء، ومن له فضل سافر، وطبع للدّنية منافر، ولديه من كل ما تستتر به الملوك عن العوام حظ وافر، وصفِّ ألبابهم بمحصول خيرك، وسكّن قلوبهم بيُمْن طيرك، وأغْنِهم ما قدرت عن غيرك".

وقد نَوّه إلى فضل مجالسة العلماء، ولزوم العناية بهم حتى يؤتوا أُكُلَهُم، بإنزالهم منازل تليق بهم، قال[٤]:

"واعلم بأنّ مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألّقة، والمصابيح المتعلّقة، وعلى قدر تَعاهدها تبذُل من الضياء، وتجلو بنورها صُوَرَ الأشياء، وفرّغها لتحبير ما يزين مدتك، ويحسّن من بعد البلاء جِدّتك، وبعناية الأواخر ذكرت الأُوَل، وإذا مُحِيَت المفاخرُ خربت الدول".

وفيما ينبغي للملك مِن إرادة تحقيق السطوة، ووضع اليد على الدولة ذكر لسان الدين أموراً متعددة تضمن ذلك. بعضها معنوي يتعلق بالمعاملة وحسن المعشر كالإحسان وفضل اللسان قال[٥]:

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص٤٤١.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه.

(٤) نفح الطيب، ج٦، ص٤٣٥.

(٥) السابق نفسه، ص٤٣٥.

"واعلم أنّها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلاّ لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان".

والقول الحق، والإنصاف الدائم، لأن الظلم دائر على صاحبه قال(١):

"وأنّ خير الملوك من ينطق بالحجة وهو قادر على القهْر، ويبذل الإنصاف في السر والجهر... واعلم أن كرامة الجور دائرة، وكرامة العدل متكاثرة، والغلبة بالخير سيادة، وبالشر هَوَادة".

وضرورة الاعتصام بحبل الله، والقيام بشريعته، لأنه يكفي عباده الشرور، ويسمو بهم قال(٢):

"واعلم أنّ حسن القيام بالشريعة يحسمُ عنك نكاية الخوارج، ويسمو بك إلى المعارج، فإنّها تقصدُ أنواع الخدع، وتوري بتغيير البدع... ولتكنْ ثقتك بالله تعالى أكثر من ثقتك بقوة تجدها، وكتيبة تنجدها، فإن الإخلاص يمنحك قوى لا تُكتسب، ويمهّد لك مع الأوقات نصراً لا يُحتسب".

فذِكره عزّ وَجلّ واجب في كل حين قال(٣):

"وتلَقّ بدء نهارك بذكر الله تعالى في ترفعك وابتذالك، واختم اليوم بمثل ذلك".

ولعله من البديهي أن يلجأ الأدباء وبطانة السلطان إلى نصحه دينياً، وتوجيهه نحو إقامة الدين، فقد تنبّه السياسيون منذ أزمان بعيدة إلى خطر الدين وأهميته في توطيد أركان الملك وفي جذب الرعية، وتمكين السلطان وقد بيّن ذلك أردشير بقوله: **"واعلموا أنّ الملك والدين أخوان توأمان لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، لأن الدين أسُّ الملك وعماده ثم صار الملك بعد ذلك حارس الدين، فلا بُدّ للمُلك من أسّه، ولا بُدّ للدين من حارسه، لأن مَن لا حارس له ضائع، وما لا أسَّ له مهدوم، وأنّ رأس ما أخاف عليكم مبادرة السفلة إياكم إلى دراسة الدين وتلاوته والتفقّه فيه، فتحكم الثقة بقوة السلطان على التهاون به فتحدث رياسات مستترات في مَن قد وترتم وجفوتم وحرمتم وصغرتم من سفلة الرعية وحشو العامّة. واعلموا أنه لن يجتمع رئيس في الدين مسرّ ورئيس في الملك معلن في مملكة واحدة قط إلا انتزع الرئيس في الدين ما في**

---

(١) نفح الطيب،ج٦، ص٤٤١-٤٤٢.

(٢) السابق نفسه.

(٣) نفح الطيب، ج٦، ص٤٤٢.

يد الرئيس في الملك، لأن الدين أسّ والملك عماد، وصاحب الأسّ أولى بجمع البنيات من صاحب العماد"(١).

ومِنها ما هو مادّي يتعلق بمتابعة شؤون الديوان، واختبار الأعوان، وتوجيه العلماء والمدرّسين، ومتابعة ما تتداوله الألسنة، قال(٢):

"**ولا تهملْ عَرْض ديوانك، واختبارَ أعوانك، وتحصينَ معاقلك وقلاعك. وعُمَّ إيالتك بحسن اطلاعك، ولا تشغل زَمَنَ الهدنة بلذّاتك، فتجني في الشدة على ذاتك، ولا تطلقْ في دولتك ألسنة الكهانة والإرجاف، ومطاردة الآمال العِجاف، فإنه يبعثُ سوء القول، ويفتحُ باب العَوْل، وخذ على المدرسّين والمتعلّمين، والعلماء والمتكلمين، حَمَلَ الأحداث على الشكوك الخالجة والمَزَلاَت الوالجة، فإنّه يفسدُ طباعهم، ويغري سباعهم، ويمدّ في مخالفة الملّة باعَهم**".

وأن "**يَسُدّ سبيلَ الشفاعات فإنها تُفسِدُ عليه حُسنَ الاختيار، ونفوسَ الخيار**"(٣).

وعلى السلطان أن يتنبّه إلى إخماد نار العداوة والبغضاء بين العبيد، وسائر الرعية، قال لسان الدين(٤):

"**وأضَرُّ ما مُنِيتَ به التعادي بين عبادك، أو في بلد من بلدانك، فسُدَّ فيه الباب، واسأل عن الأسباب، وانقلهم بوساطة أولي الألباب، إلى حالة الأحباب**".

وفي معاملة الأعداء، والمارقين بيّن لسان الدين كيفية التعاطي معهم في كل حال؛ فإن حاربوا أُطلقت عليهم أيدي الأقوياء وألسنة الضعفاء قال(٥):

" **وأطلق على عدوّك أيدي الأقوياء من الأكفّاء، وألسنة اللفيفِ من الضعفاء، واستشعر عند نكثه شعارَ الوفاء**".

على أن يسالمَ مَن يطلب السِلم ويكرمَهُ. فإنّ أبى خصمه السلم ثارت عليه العامّة قال(٦):

---

(١) عن: العلام، الآداب السلطانية، ص٦٨.

(٢) نفح الطيب، ج٦، ص٤٤٢.

(٣) نفح الطيب، ج٦، ص٤٤٢.

(٤) السابق نفسه، ص٤٤٤.

(٥) السابق نفسه، ص٤٤٤.

(٦) السابق نفسه، ص٤٤٢.

"والتمس أبداً سلْمَ من سالمك بنفيس ما في يدك، وفَضّلْ حاصلَ يومك علـــى مُنتَظَــر غدك، فإن أبى وضحتْ محجتك، وقامت عليه للناسِ بذلك حجّتك، فللنفوس على الباغين مَيْل، ولها من جانبه نَيْل".

على أن يتتبع أخبار عَدُوِّه، فلا يدع له مجالاً ليتغلب عليه فيه، وأن يجتهد في تحسين أفعاله لِتُكَذّب أقوال الخصوم قال[١]:

"واستشهد في كلّ يومٍ سيرة من يناويك، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا يساويك، وأكذبْ بالخير ما يُشِيعه من مساويك".

على أن "**يتشاغلْ في هدنة الأيام بالاستعداد، ويعلم أنّ التراخي منذرٌ بالاشتداد**"[٢].

وألا ُ"يحملنّه انتظامُ الأمور على الاستهان بالعمل، ولا يَحْقِرَنَّ صغير الفساد، فيأخذَ في الاستئساد"[٣].

وعلى الملك أن يكون رؤوفاً بالمذنبين؛ لأن الخطأ جِبِلَّةُ البشر، قال[٤]: "**ولا تلقَ المذنبَ بحميّتك وسَبّكَ، واذكر عند حركةِ الغضب ذنوبك إلى ربك، ولا تنسَ أن ربّ المـــذنب أجلـــسك مجلسَ الفصل، وجعل في قبضتك رياشَ النصل**".

وأن يُحسِن معاملة من وقع مِن أعدائه أسيراً بين يديه. قال[٥]:

"وابذل في الأسرى من حُسْنِ ملكك ما يرضي مَنْ ملّكك رقابها، وقلّدك ثوابها وعقابها".

ويُقَدّم لسان الدين نصائح اقتصادية في ضرورة صون المال لما له مِن دور في بسط نفوذ السلطان وتوطيد حكمه، وسيطرته على رعيته، وكبح جماح الفتن، ولما له مِن قُوّةٍ تَصرْفُ النّاسَ إلى صاحبه، قائلاً[٦]:

"ولا يزهدنّك في المال كثرته، فتقل في نفسك أثرته، وقس الشاهد بالغائب، واذكر

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص٤٤٢.

(٢) السابق نفسه، ص٤٤٢.

(٣) السابق نفسه، ص٤٤٣.

(٤) السابق نفسه.

(٥) السابق نفسه.

(٦) نفح الطيب، ج٦، ص٤٤٣.

وقوع ما لا يحتسب من النوائب، فالمال المصون، أمنع الحصون، ومَنْ قلّ ماله، قصرت آماله، وتهاون بيمنيه شماله، والملك إذا فقد خزينه، أخنى على أهل الجدة التي تزينه، وعاد على رعيته بالإجحاف، وعلى جبايته بالإلحاف، وساء معتاد عيشه، وصغر في عيون جيشه، ومَنّوا عليه بنصره، وأنفوا من الاقتصار على قصره، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه، وتربط آمال أهل السلاح به".

فالمال نعمة الله ويجب أن يُستَغَلّ في طاعته، والإنفاق في سبيله قال(١):

"**والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافه، فتجمع بالشهوات بين إتلافك وإتلافه، واستأنس بحسن جوارها، واصرف في حقوق الله تعالى بعضَ أطوارها، فإن فَضل المالُ عن الأجل فأجلّ، ولم يضر ما خلف منه بين يدي الله عزّ وجلّ، وما ينفق في سبيل الشريعة، وسدّ الذريعة، مأمول خَلَفُه، وما سواه فمتعيّن تَلَفُه**".

فالتَّمكن من المال، ووصل الرعيّة به شرف للملك وأولى له، لقوله(٢):

"**مع التمكّن من المال والظَهر، ويسار الرعية جمال للملك وشرف، وفاقتهم من ذلك طرف، فغلّبْ أليقَ الحالين بمَحلّك، وأولاهما بظَعنك وحِلّك**".

وعلى السلطان أن يَكُفّ يده عَن أموال الناس إلا مَن كان منهم واحد ثلاثة ذكرهم لسان الدين بقوله(٣):

"**ولتكنْ يدك عن أموال الناس محجورة، وفي احترامها إلاّ عن الثلاثة مأجورة: مال مَنْ عدا طَورُهُ طَورَ أهله، وتخارقَ في الملابس والزينة، وفضولِ المدينة، يرومُ معارضتك بجهله، ومَنْ باطَنَ أعداك، وأمِنَ اعْتِداك؛ ومَنْ أساء جوارَ رعيتك بإخْساره، وبذل الأذية فيهم بيمينِهِ ويساره**".

ومِن هذا ما أوصى به يوسف بن تاشفين أهل غرناطة فيما كتبه ابن الجَدّ بأن يضربوا صفحاً عمّا مضى من التشغيب والتأليب، وأن ينصرف كل إمرىءٍ إلى مراعاة شؤون حياته تاركاً الخوض فيما لا يعنيه، قانعاً بما عنده زاهداً في التنافس على متاع الدنيا، قال(٤): "**لقد آن**

(١) نفح الطيب،ج٦، ص٤٤٣.
(٢) السابق نفسه.
(٣) السابق نفسه.
(٤) قلائد العقيان، ص٣٣٣.

لحركتكم في أمره أن تهدأ، وللنائرة بينكم أن تَطْفَأ، ولِذات بينكم أن تَصلُح، ولوجوه المراشِد قبلكم أن تتّضِح؛ فإذا وصل إليكم خطابنا هذا، فاتركوا متابعة الهوى، واسلكوا معه الطريقة المثلى، ودعوا التنافس على حُطام الدنيا، وليقبل كُلُّ واحدٍ منكم على ما يعنيه، ولا يشتغِل بما يُنْصِبُهُ ويُعَنّيه".

ومِمّا يقع في هذا الباب من الوصايا السياسية ما جاء عن الخلفاء والحُكّام مِمّا أوصوا به أولادهم وهم يترجّلون عن قيادة الرّكب وقد أزف الرحيل وحانت ساعة الالتحاق بالبارىء عزّ وجل؛ إذ ترك بعض الحُكام وصايا لأبنائهم الذين سيخلفونهم في ولاية العهد، وتَعَهُّد شؤون الحكم والرعية، ومن ذلك ما جاء في وصية الأمير الحكم بن هشام لابنه ولي عهده عبد الرحمن حين حضرته الوفاة؛ إذ أوصاه أن يسير على نهج والده، وأن يحفظ أهله وعشيرته ومواليه وشيعته وأنصاره، وأوصاه بالعدل بين الرعية وأن يحفظ لنفسه هيبتها بين الرعية، وأن يقدّر الأمور حق قدرها فيعين المحسن ، ويعاقب المسيء. وفي ذلك يقول(١): **"يا بُنَيّ، احفظ ما أقول لك وأوصيك به، وأصغ إليه بسمعك وذهنك، إني قد وطدت لك الدنيا، وذلّلت لك الأعداء، وأقمت أوَدَ الخلافة، وأمِنْتُ عليك الاختلاف والمنازعة، فاجْرِ على ما نهجت لك من الطريقة. واعلم أن أولى الأمور بك، وأوجبها عليك، حفظ أهلك ثم عشيرتك ، ثم الذين يلونهم مِن مواليك وشيعتك، فهم أنصارك وأهل دعوتك ومشاركوك في حلوك ومرّك. فبهم أنزل ثقتك، وإيّاهم واس من نعمتك، وعصابتهم استشعر دون المتوثّبين إلى مراتبهم من عوامِّ رعيتك الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم؛ مستثقلين لأعبائهم، فاحسم عللهم ببسط العدل لكافّتهم واعتيام أولي الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة وإصر الرهبة، فلتحيّهم ما تحملهم عليه من قصد السيرة وبذل النّصفة، فلا تمكّنهم من الارتقاء إلى فوق منازلهم البتة إلا أن ترى رجلاً قد نهضت به نفسه، وسمَت به خصاله، فانهض به وأعنه، فإن أول كل شرف خارجيّة. ولا تدع كلّ وقت وعلى كل حال تعجيل مكافأة المحسن بإحسانه، وتنكيل المسيء بإساءته، فهما يحبسان عليك الرغبة والرهبة . وملاك أمرك كله المال، وحفظه بأخذه من حِله، وصرفه في حقه، فإنه روح الملك المدبر لجثمانه فلا تجعل بينك وبينه أحداً في الإشراف على اجتبائه وادخاره والتثقيف لإنفاقه وعطائه، وختام وصيتي إياك بإحكامك في أحكامك. فاتّق الله ما استطعت وإلى الله أكلك، وإيّاه أستحفظك".**

---

(١) ابن حيان القرطبي، المُقتَبَس من أبناء أهل الأندلس، تحق: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧٣، ص٢٢٩-٢٣٠ .

والحق أن موقف انتقال الحكم تَرَك أثراً بالغاً في حضور هذا الفن – الوصايا – ؛ إذ أن الأندلس دار حروب شارك أمراؤها وحُكّامها في الغزوات فأصابوا وأصيبوا، ومنهم مَن مـات متأثراً بجروح السيف وغيرها من أسباب المعارك، فكان هذا سبباً في تداول الحكم الذي يستدعي توصية السابق للاحق، ويستدعي مشهد انتقال السلطة من البطانة والملازمين والمنادمين وأهـل الحل والعقد أن يوصوا الأمير الجديد ويبصروه وهذا ما حدث عندما استولى أبو يعقوب يوسف على حكم الموحدين إثر حيلة دبّرها مع عضد الدولة السيد الأعلى أبي حفـص والـشيخ أبـي حفص؛ إذ وعظ الشيخ أبو حفص الموحدين في كل طبقاتهم ومراتبهم وأوصاهم بالصلاة والتزام ما يصلح الدين(١).

ومن هذا ما أوصى به محمد ابن تومرت أهل الجماعة وأهل الخمسين بعد أن حضرته الوفاة بقوله(٢): "... **فجَدّدوا لله سبحانه خالص نياتكم، وأروه مِن الشكر قولاً وفعلاً ما يُزكّي به سعيكم ويتقبل أعمالكم، وينشر أمركم، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء، وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم ، وكَثُر أتباعكم وأظهر الله الحقّ على أيديكم ، وإلا تفعلوا شَمِلكم الذل وعَمَّكُم الـصّغار، واحتقـرتكم العامّـة فتخطفتكم الخاصّة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف**...".

وقد يوصي الحكام رعاياهم بما يصلح شؤون حياتهم اليومية وأمور علاقاتهم معاً فـي سياق الحديث عن ضرورة الالتزام بالدولة وتقديم فروض الولاء لهم، ومن ذلك ما كتبه الوزير أبو القاسم ابن الجدّ عن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين قوله(٣): "...**فاقمعوا الأنفس الأمّارة بالسوء، وارغبوا في السكون والهدوء، ونكبّوا عن طريق البغي الذميم المـشنوء، واحـذروا دواعي الفتن، وعواقب الإحَن، وما يَجُرُّ رداء الضمائر، وفساد الـسرائر، وعمـى البـصائر،**

---

(١) وقد كان أبو يعقوب أعلن نفسه أميراً لدولة الموحدين بالتعاون مع السيد الأعلى أبي حفص والشيخ أبي حفص قبيل وفاة أبيه الذي كان قد عهد بالإمارة إلى أخيه محمد.
انظر : عبد الملك بن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص١٦٤.

(٢) هو محمد بن عبدالله بن تومرت من أهل سوس له نسب متصل بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، هو الذي أقام دعوة الموحدين ؛ إذ جمع حوله نفراً من الرجال وصنّفهم في طبقات: أهل الجماعة وهم العشرة الذين أسرعوا إلى إجابته، وأهل الخمسين وهم الطبقة الثانية.
انظر في كل ذلك في : عبد الواحد المراكشي، المُعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩، ص١٧٨-١٩٦، ونص الوصية في ١٩٤-١٩٦.

(٣) السابق، ج٢، ص٣٢٤-٣٢٥.

ووخيم المصائر وأشفقوا على أديانكم وأعراضكم ، وتوبوا إلى الصلاح في جميع أغراضكم".

ولعلّ كل هذه الوصايا السياسية التي تحاول أن تنظّم العلاقة بين ولي الأمر – أياً كانت منزلته – وبين رعيته، حاجة اجتماعية وسياسية ودينية لها أبعادها المتنوعة، إذ لا يخفى ما لدور السلطان بوجهٍ عام من خطر بالغ في سيرورة أمور الدولة، وفي عزة أهلها وذلهم بل إنه المركز الذي تدور حوله الجماعات وهو كما يراه الغزالي(١) "ذاك الإنسان الذي اصطفاه الله من بين العباد، وزوّده باستعدادات كافية من أجل حكم الجماعة".

وأياً كان الشأن في مسألة التفويض الإلهي للسلطان إلا أن محاولة نصحه وتقويم نهجه تظل هي الطريق نحو حياة فضلى فهو الممثل لصلاح الرعية أو فَسادها.

ثم إن الدين الإسلامي يأمر بإطاعة أولياء الأمور، وهو الذي يجعل النصيحة لهم أمراً واجباً، وهي تندرج ضمن التقويم الأخلاقي للسلوك، وقد طلب ذلك كثير من الولاة والخلفاء والسلاطين، وقد بادر كثير من رعايا الدول الإسلامية إلى نصح الخلفاء والأمراء بل ومحاسبتهم أيضاً.

ولعل نظام الشورى شاهد حي على وجوب هذه النصيحة بل على أهميتها أياً كان مدخلها، إذ يتلقى الأمير نصائح كثيرة من خلال هيئة مستشاريه وهو الأمر الذي يُقَوِّم سيرورة الملك.

فقد تطوع الوزراء والمقربون للنصح، وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب ذلك في نُفاضة الجراب في حديثه عن الوزير عمر بن عبدالله واضطراب الحالة في المغرب بقوله: "كثر يومئذ مصطف الوزراء المتنقبين ببذل النصح وإهداء الوسائل"(٢).

---

(١) الغزالي، أبو حامد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحق: محمد أحمد، بيروت، ١٩٨٧، ص٢٢.
(٢) لسان الدين بن الخطيب، نُفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحق: أحمد مختار العبادي، د.معلومات، ص٣٠٧.

الفصل الثاني
الخصائص الفنية للوصايا النثرية

التأثر بالقرآن الكريم:

الاستشهاد الصريح بالقرآن الكريم ، إذ اتكأ الموصون في توطيد أركان وصاياهم وحمل المتلقين على الاقتناع بها على الأسس والثوابت الدينية، فالمقصود بالوصايا حضّ النفوس على اتيان أمر والابتعاد عن آخر، والنفس تتعلق بالأمر لأنه قد "يحسن من جهة الدين وما تؤثره النفس مِن الثواب على فعل شيء أو اعتقاده وتخاف من العقوبة على تركه وإهماله وإما أن يقبح من ضد ذلك"(١).

والأدباء إذ ينهلون من المصدر التشريعي الأول يصدرون في ذلك عن يقين بأن الوعظ لا بد له من أن يكون نابعاً من التشريعات الإلهية وفي ذلك يقول لسان الدين بن الخطيب: (٢)" **آه، آه، أي وعظ بعد وعظ الله يا أحبابنا يُسْمَع**".

فقد جاء الاستشهاد بالنص على الآيات القرآنية وإيرادها في متن الوصايا صراحة في مواضع كثيرة ومتنوعة ومن ذلك:

ما أوصى به الوزير أبو بكر على لسان يوسف بن تاشفين أهل مكناسة قائلاً(٣): "**ولا تتولّوا عن الموعظة وأنتم معرضون، ولا تكونوا كالذين قالوا: (سمعنا وهم لا يسمعون) ، وحسبنا هذا**"(٤).

ومنه استشهاد ابن الجد – فيما كتبه موصياً أهل غرناطة على لسان الأمير يوسف بن تاشفين بقوله(٥): "... **ولن يَسْبِق شيءٌ أنّاهُ، وإذ أراد الله أمراً سنّاه، (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تُحِبّوا شيئاً وهو شَرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون)** (٦). ومنه ما أورده لسان الدين بن الخطيب في ثنايا وصاياه الكثيرة(٧).

---

(١) القرطاجَنّي، حازم، (٦٨٤). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. ط٣). تحق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي: تونس.(١٩٨٦). ص١٠٦.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتّاب، ج٢، ص٤٣٨.

(٣) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج٢، ص٣١٣.

(٤) الآية:"**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون.ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون**" الأنفال: ٢٠:٢١.

(٥) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج٢، ص٣٣٣.

(٦) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

(٧) انظر في هذا: نفح الطيب، ج٧، ص٣٨٢-٣٨٧.

والحق أن الاستشهاد بآيات القرآن الكريم أصبح من الخصائص الفنية لأدب ما بعد الإسلام عامة، إذ بدأ الصدور عن القيم والأخلاق متعلقاً بجهة الدين وتوجيهاته السامية، فهو المعيار والمقياس في الصدور عن أي أمر، وهو الفيصل في الحكم على الأمور والأشياء.

ثم إن ورود الشاهد القرآني في سياق إقناعي يحسم المسألة، ويفصل القول فيها؛ إذ ليس لمؤمن أن تكون له الخيرة في أي أمر قضى الله ورسوله فيه. مما يجعل الشاهد القرآني حجة دافعة تلزم المتلقي، وتحول دون تفلُّته من إمضاء الأمر والامتثال إليه، هذا بالإضافة إلى أن معظم الوصايا والنصائح تنهل أصلاً من المصادر الدينية، وتصدر عنها وتسير باتجاهها.

الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف:

يستخدم الموصي الحديث النبوي في مَعرض حديثه ونصائحه ليقنع مخاطَبَــة بــصحة مذهبه، مستنداً إلى أساس التشريع الثاني. ومِن هذا إيراد ابن الجَنّان لنص الحديث الشريف بقوله صلى الله عليه وسلم: "**حرمة مال المسلم كحرمة دمه**"[١] وذلك بعد أن حَذّر المتلقين من الاعتداء على الأموال وأوصاهم بألا يظلموا وأن يُنصِفوا[٢].

وقد أورد أحاديث نبوية[٣] كثيرة في وصيته عن ابن هود لأخيه منها قوله صلى الله عليه وسلم: "**إنّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزع من شيءٍ إلا شانه**"[٤].

ومن ذلك تأثر ابن سعيد بقوله[٥]:

"**وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء ولا الكفء بمعاملة الأعلى**". بقول الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أمر بأن ننزل الناس منازلهم[٦].

---

(١) مسند أحمد ٤٤٦/١.
(٢) نفح الطيب، ج٧، ص٤١٢-٤١٣.
(٣) نفح الطيب، ج٧، ص٣٢٢.
(٤) صحيح مسلم ٢٠٠٤/٤.
(٥) نفح الطيب، ج٢، ص٣٥٧.
(٦) صحيح مسلم، ج١، ص٤.

الاستشهاد بالشعر:

وقد استشهد أصحاب الوصايا النثرية بأبيات شعرية في ثنايا نثرهم، وهذا كثير منه استشهاد لسان الدين بأبيات لحسّان هي:

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى
وأبصرت بعد اليوم مَن قد تزوّدا
نَدِمت على أن لا تكون كمثله
ولم تترصّد مثل ما كان أرصدا

ومنه أيضاً تضمينه أبياتاً لأبي العتاهية هي[(١)]:

خانــــك الطـــــرف اتئـــــــــــد   أيُّهـــــــا القلـــب الجمـــــوح
فـــــــــدواعي الخيروالـــــــــشـــر   دنـــــــــو ونــــــــــــــزوح
كيـــــــف إصـــــــلاح قلـــــوبٍ   إنمـــــــا هُـــــنّ قـــــــروح

وهذا كثير

ومن إيراد الشعر في ثنايا الوصايا الشعرية ما يكون من نظم الموصي نفسه وهذا عند مَن امتلك القدرة على فنون القول ومِن هؤلاء ابن الخطيب فقد ضَمَّن نثره كثيراً من شعره ومنه[(٢)]:

خـــذ مـــن حياتـــك للممـــات الآتـــي   وبَـــدار مـــا دام الزمـــان مـــواتي

التقاطع مع الموروث الثقافي

ويلجأ الموصي إلى التقاطع مع الموروث الثقافي المتمثل في المثل والحكمة، ولا يخفى ما لهذا مِن فضل في الإقناع؛ إذ يحمل في ثناياه إشادة بخبرة الموصي وطول باعه في الحياة

(١) أبو الفرج الأصبهاني، أبو العتاهية، مكتبة صادر، بيروت، ص١٦٧.
(٢) نفح الطيب، ج٦، ص٣٢٢.

ومن ذلك قول لسان الدين[١]: "... يخاطب بلسان حاله مترجماً : "**وليت الفجل يهضم نفسه**". ".

ومنه أيضاً [٢]: "... **والحازم من بتر الآمال طوعاً، وقال: بيدي لا بيد عمرو**".

ويلجأ الموصي إلى الموازنة العقلية بضرب المثل ليتمكّن المخاطب من التوصّل إلى الحكمة المرادة عن طريق القياس، واستخلاص العبرة، ومن هذا قول ابن الخطيب[٣]: "**اعلم أن كل حكيم صانع إذا فكّر في أمره ونظر في العواقب علم أنه لا بُدَّ يوماً أن يخرب دكانه الذي هو محل بضاعته، وتنحلّ أنقاضه، وتكلّ أدواته، وتضعف قوّته، وتذهب أيام شبابه، فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكّان، واستغنى عن السعي، فإنّه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكّان آخر، ولا إلى أدوات مجدّدة، فليتّجِر بما اقتناه ويشتغل بالانتفاع والالتذاذ بما كسبت يداه، وهذه حالة النفس بعد خراب الجسد، فبادر واجتهد واحرص واستعجل، وتزوّد قبل خراب دكانك وهدم بنيته...**".

اللغـــــــة:

وقد يلجأ الموصي إلى أسلوب الاستفهام في بَثِّ مواعظه في محاولة لمدّ جسور التواصل مع المتلقي، إذ يبقي الاستفهام المُخاطَب منتبهاً متحَفّزاً، ومن هذا قول لسان الدين واعظاً [٤]: "**أين المعمّر الخالد؟ أين الولد أين الوالد؟ أين الطارف أين التالد؟ أين المجادل أين المجالِد؟**".

ومنه أيضاً قوله[٥]: "**إخواني صَمّت الآذان والنداء جهير، وكذب العيان والمشار إليه شهير، أين الملك وأين الظهير؟ أين الخاصة أين الجماهير؟ أين القبيل والعشير؟ أين كسرى ابن أردشير؟**" ومنه أيضاً[٦] : "**فما هذه الغفلة عَمّن إليه الرجعى وإليه المصير؟ وإلى متى التساهل في حقوقه وهو السميع البصير؟ وحتى متى مدّ الأمل في الزمن القصير؟ وإلى متى نسيان اللجأ إلى الولي النصير؟**".

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص٣٢٢.

(٢) السابق نفسه، ص٣٣٦.

(٣) السابق نفسه، ص٣٢٠.

(٤) نفح الطيب، ج٦، ص٣٣٢-٣٣٣.

(٥) السابق، ج٦، ص٣٢٢، انظر فيه ج٦، ص٣١٩ و ج٧، ص٣٧٩.

(٦) السابق، ج٧، ص٣٨٧.

ومنه الاستفهام الاستنكاري قول لسان الدين(١):

"أتعززاً على الله وهو القوي العزيز؟ أتلبيساً على الله وهو الذي يميّز الخبيث من الطيب والشّبه من الإبريز؟ أمعانَدَةً والنواصي في يديه؟ أغروراً بالأمل والرجوع بَعْدُ إليه؟ مَن يبدأ الخلق ثمّ يعيده؟ مَن يُنزل الرزق ويفيده؟ مَن يُرجَع إليه في الملمات؟ مَن يُرجى في الشدائد والأزمات؟".

ويستعمل الموصي أسلوب النداء في خطابه، وذلك إمّا بوجود أداة النداء كقول لسان الدين(٢): "**يا طرداء المخالفة**" وقوله(٣): "**يا طفيلية الهمَّة**" وقوله(٤): "**يا مَن غدا وراح وألِفَ المراح، يا مَن شرب الراح... يا مشتغلاً بداره ورَمِّ جداره... يا مَن صاح بإنذاره شيب عِذاره، يا مَن طرف عين اعتذاره بأقذاره، يا مَن قطعه بُعد مزاره وثقِل أوزاره، يا معتلفاً ينتظر هجوم جَزّاره، يا مختلساً للأمانة... يا من أمعن في خمر الهوى... يا مَن خالف مولى رقه ... يا كلفاً بعارية ترد ...**".

وقد يكون بغير أداة النداء كقوله(٥): "**إخواني...**".

ومنه قول ابن الجنان موصياً العامّة مستفتحاً ذلك بقوله(٦): "**أيّها الناس، رحمكم الله تعالى...**".

ويستعمل لسان الدين أسلوباً خاصاً في بعض وصاياه، يتمثّل في افتتاح جُمَلِه بلازمة تعبيرية هي "**الله الله**" ولا يخفى ما لها مِن حَثٍّ على العمل لاقترانها بمرضاة الله وذلك في قوله(٧): "**الله الله في الهمم فقد خمدت ريحها، والله الله في العقائد فقد خفيت مصابيحها، والله الله في الرجولية فقد فلَّ حَدُّها، والله الله في الغيرة فقد تَعَسّر جَدُّها، والله الله في الدين فقد طمع الكفر في تحويله، والله والله في الحريم فقد مَدَّ إلى استرقاقه يدَ تأميله، والله الله في الملة التي يريد إطفاء سناها، وقد كمل فضلها وتناهى، والله الله في الحريم، والله الله في الدين الكريم، والله الله في القرآن، والله الله في الجيران، والله الله في الطارف والتالد، والله الله في**

---

(١) نفح الطيب، ج٧، ص٣٨٥.

(٢) نفح الطيب، ج٦، ص٣٢٢.

(٣) السابق، نفسه.

(٤) السابق، ج٦، ص٣٣٣-٣٣٤.وانظر نفسه ص٣١٩.

(٥) السابق، ج٦، ص٣٢٢.

(٦) السابق، ج٧، ص٤٢٧.

(٧) السابق، ج٦، ص٣٨٤.

الوطن الذي توارثه الولد عن الوالد".

وقد استخدم هذا ابن الجنّان في وصيّته عن ابن هود[١].

والموصي لا ينسى نفسه من الوصية، بل إنه يجمل نفسه مع المخاطَب وهذا أَتَمُّ للفائدة وأعظم للعائدة وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه مِن بعده يوصون جمهور المسلمين وأنفسَهُم أيضاً وقد سار على هذا الفقيه الكاتب أبو عبدالله محمد بن الجنّان المرسي الأندلسي فيما كتبه عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه قائلاً[٢]: "**فأوّل ما نوصيكم به وأنفسنا تقوى الله في كُلِّ حال**".

والموصي يَحُثُّ جمهوره على الاستماع والتدبّر والفهم والعمل، يقول ابن الجنان في هذا [٣]: "**أصيخوا أسماعكم لمواعظ الأيام، واعتبروا بأحاديثها اعتبار أولي النهى والأحلام وأحضروا لفهم موادِّها أوعى القلوب وأصَحَّ الأفهام، وانظروا آثارها بأعين المستيقظين ولا تنظروا بأعين النوّام...**".

فالموصي حريص على تبيان أمانته في النصح. وإخلاصه في مراعاة شؤون مَن يقدّم إليهم الموعظة ومن هذا ما قدّم به الرئيس أبو عبد الرحمن إلى أبي النصر لنصائحه قوله[٤]:

"**أنا –أعزّك الله – عليك شحيح، ولك فيما تأتيه وتحتذيه نصيح**".

فهو يقصد إلى ما فيه صالح المخاطَب وهو ما مَهّدَ به لسان الدين خطابَه إلى علي بن بدر الدين الطوسي بقوله: "**وأنا أخرجُ له عَن بثٍّ كمين، ونُصح أنا به قمين، بعد أن أسبر غوره...**"[٥].

وقد نوّه العلماء والأئمة إلى أهمية الوصايا وإلى أن الرجل إنما يستودع وصيته ويعطي خلاصة خبرته لمن كان حَرِيّاً بها لقول محمد بن أمية[٦]: "أصلح الله الأمير، إن الرجل لا يعهد بوصيته ولا يأتمن على ولده وماله، غير أوثق الناس، وهذه وصيتي ، فانظر إلى مَن أسندتها".

---

(١) نفح الطيب، ج٧، ص٤٠٨.

(٢) السابق، ج٧، ص٤٢٨.

(٣) السابق نفسه.

(٤) قلائد العقيان ، ج١، ص٢٠.

(٥) نفح الطيب، ج٦، ص١٧٠–١٧١.

(٦) الخشني، أبو عبدالله محمد بن الحارث، قضاة قرطبة وعلماء أفريقية، تحق: عزت العطار الحسيني، مكتبة المثنى، بغداد، ص١٤٨.

ويبدو أنّ خطاب الوصية أحياناً صادر عن موصٍ حقيقي له المعنى وآخر وسيط له اللفظ؛ إذ ليس المرسل واحداً في كثير من الوصايا، وأعني به أن كثيراً من الحكّام والأمراء يُكَلّفون كتّابهم ووزراءهم بالكتابة عنهم وربّما كان المعنى للحاكم واللفظ للكاتب، وربّما كان ذلك كله متروكاً لفطنة الكاتب، فالموصي في كثير من هذه الوصايا النثرية حقيقي وظاهري.

الوصايا النثرية في معظمها صادرة عن وزراء الحكّام وسلاطينهم، لذا فإنها تمثل السلطة بشكل أو بآخر، لذا نجد غلبة الوصايا السياسية في الوصايا النثرية.

ولا بُدّ من الإشارة إلى قيمة الوصايا بشكل عام، فهي وإن اختلفت أساليبها، وتباينت طرق صياغة العبارة فيها، فإنها تحتفظ برونق خاص ينبثق – بالطبع – عن المضامين الشريفة التي تحتويها فالحديث عمّا يصلح الدنيا والدين، وينفع العباد والبلاد مضمون راقٍ وهادف دون شك. وهو ما أشار إليه الإمام عبد القاهر بقوله[(١)]: "وإن من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز، الذي تختلف عليه الصور، وتتعاقب عليه الصياغات، وجل المعول في شرفه على ذاته، وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته ، ويرفع في قدره".

كما يلحظ الناظر في الوصايا جنوحاً إلى الإيجاز على مستوى العبارة، وفزعاً إلى الإطناب على المستوى العام للنص؛ إذ تأتي الجمل مكثفة متلاحقة في نصوص كثير من الوصايا من مثل: "**آن لحركتكم في أمره أن تهدأ، وللنائرة بينكم أن تطفأ، ولذات بينكم أن تصلح**"[(٢)].

ومثل هذا كثير يوضح ما سبق بيانه من الاختزال على مستوى الجملة، والبسط على مستوى النص عن طريق مدّ العبارات، ولعلهم إنما يلجأون إلى هذا عندما يكون الخطاب موجهاً للعامة مراعاة لإفهامهم ورغبة في إيصال الفكرة إليهم. أمّا عندما يكون الخطاب للخاصة من الرؤساء والأئمة فإنهم يلجأون إلى الإيجاز من أجل التخفيف عن السامعين، وذلك جلي واضح فيما مضى من النصوص التي وجهت للنخب من الأوساط الخاصة؛ إذ [(٣)]"متى كانت المعاني بيّنه بنفسها أو بقرينة من سياق الكلام أو غيرها من القرائن كان الإيجاز نافعاً لأجل التخفيف عن النفس لأن الألفاظ غير مقصودة لذاتها، إنما هي لإيصال المعاني إلى النفس؛ فإذا وصلت النفس إلى المعنى بغير اللفظ كان اللفظ زائداً فيثقل، لا سيّما إن كانت النفس ترى أن لها في الوصول

---

(١) الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ص٩.
(٢) ورد بيانه سابقاً.
(٣) المراكشي، ابن البناء أبو العباس (٧٢١هـ)، الروض المريع في صناعة البديع، تحق: رضوان بنشقرون، الدار البيضاء، دار النشر المغربية(١٩٨٥)، ص٨٣-٨٤.

إلى المعنى خصوصية وشرفاً على غيرها تُسَرُّ بذاتها، لأنها قد بلغت إلى المقصود من غير طول وكل ما يُسَهِّل في الوصول إلى المطلوب فهو محبوب وكل ما يعوّق عنه فهو مكروه".

الباب الثاني

الوصايا الشعرية في الأندلس

تعددت مظاهر الحياة في الأندلس وتنوّعت فأتاحت لشعراء الأندلس خوض غمار هـذه الحياة بمظاهرها المتعددة التي أفرزت لنا نتاجاً شعرياً يعكس لنا صور هـذه الحيـاة بمختلـف ألوانها وأشكالها.

وكسائر أغراض الشعر المتعددة حظيت الوصايا بقسطٍ من نتاج شعراء الأندلس فقدّموا لنا عصارة تجاربهم، وخلاصة خبراتهم التي زخرت بها مصادر الأدب الأندلسي والكتب التي أرخت لهذه الحقبة الزاخرة بالأحداث حلوها ومرّها.

فجاءت الوصايا الشعرية لشعراء الأندلس متعددة متنوعة لم تكدْ تغفلُ جانباً من جوانب الحياة إلاّ وتطرّقت إليه فمن هدي النبوة ونور القرآن إلى عالم الحكم وشؤون السلطان إلى الأخلاق والمعاملات إلى الكوارث والنوازل والملمّات وما تتركه من آثار على النفوس والخوض في أسبابها وما أفضت إليه وتحذير الآخرين من مغبّة ولوج تلك المعتركات وركوب تلك السُّبُل خوفاً عليهم من منقلب الحال وسوء المآل.

وهكذا يتراءى للباحث وهو يتعقّب هذا اللون – الوصايا – ويتتبّع هذا الفن في ثنايا القصائد وبين دفّات كتب تاريخ الأدب أن شعراء الأندلس تعرّضوا لهذا اللون بسائر أغراضه فتارة يعمدون إلى الكتاب والسّنة ينهلون منهما تذكرة للغافلين وتنبيهاً للشاردين وأخرى يرون خللاً في شؤون السياسة والحكم فيرسلونها صرخات مدويّة تارة وهمسات مؤثّرة تارة أخرى وكلما اتّسعت دائرة الخلل وعظم الخطل واشتدّ الخطر علت الأصوات واحتدّت النبرات، وإذا خشي الشاعر بطشاً وخاف انتقاماً عمد إلى التعريض والتلميح وجانب المباشرة والتصريح. وإذا ما رأى في المجتمع زيغاً وضلالاً وتفسّخاً وانحلالاً عمد إلى المكاشفة والمناصحة علّ كلماته تجد طريقها إلى القلوب والعقول فيسدُّ الخلل ويصلح الزلل.

وهكذا نلاحظ أنّ الوصايا بمختلف أنواعها: الدينية والسياسية والاجتماعية قد شغلت حيّزاً لا بأس به من النتاج الشعري في الأندلس وإن اختلف الكم تبعاً لاختلاف النوع.

الفصل الأول
موضوعات الوصايا الشعرية

المبحـــث الأول

الوصايـــــا الدينيـــــة

يستطيع الباحث أن يلمس من خلال تتبّعه لهذا اللون من الوصايا تفوقه على الغرضين : السياسي والاجتماعي ولا غرو فقد ظلَّ الإسلام السّمة البارزة والشّعار الظاهر للدولة في الأندلس مذ دخلها المسلمون سنة ٩٢هـــ وحتى غادروها مرغمين.

وطيلة هذه الفترة وإنْ تعاقب على حكم الأندلس فئات وجماعات من المسلمين ذات توجهّات فكرية وسياسية متباينة إلاّ أنّ الإسلام ظلّ رمز الدولة وشعارها وظلّ تأثيره في الدولة والمجتمع ظاهراً واضحاً وترك بصماته على العامة والخاصة وظلّ المرجع الذي يُستند إليه.

وكما كان للدين أثره على النظام السياسي في الأندلس فقد ترك آثاراً واضحة أيضاً على الأدب بشقيه: شعره ونثره وما يهمّنا هنا هو أثر الدين على الشعر والشعراء، إذْ تطرّقنا للحديث عن الأثر الديني على النثر عامة وأثره على فن الوصايا وكاتبيها بشكل خاص.

ومن خلال تتّبع دواوين شعراء الأندلس والبحث في كتب تاريخ الأدب نلاحظ أنّ الدّين كان حافزاً ومحرّكاً لثلة من شعراء الأندلس رأوا في التمسّك به واتّباع تعاليمه خلاصاً لهم من كافة المعضلات والمشكلات ومخرجاً من كل المهمّات والملمّات وكلما تزعزت أركان الدولة وتضعضعت ردّوا ذلك إلى ابتعاد العامة والخاصة عن الدين وهرعوا يرسلون صيحاتهم ويقرعون أجراس الخطر، ويدقون نواقيسه أملاً منهم أن تجد تلك الصيحات صداها في القلوب والنفوس فيتداركون الأمة قبل وقوع الأزمة، ويعيدونها إلى جادة الصواب قبل فوات الأوان.

ومن هنا نلاحظ أنّ الوصايا الدينية المبثوثة في ثنايا دواووين شعراء الأندلس، وفي المقطوعات الشعرية المتفرقة في كتب تاريخ الأدب قد تعددت وتنوّعت واستوعبت جوانب كثيرة من مقاصد الشريعة وأحكامها وتركت صدى لا يُستهان به وأثراً على الرؤساء والمرؤوسين والأرباب والمربوبين، وبلغ من أثرها أن جيشت الجيوش، واستنهضت الهمم وأطالت في عمر دولة الإسلام في الأندلس غير مرة وكان لها أبلغ الأثر على الصعيدين العام والخاص.

ولم تقتصر هذه الوصايا على فئةٍ قليلة من الشعراء ذوي التوجّه الديني بل تعدّتهم إلى شعراء آخرين لم يكن الدين من أولوياتهم أو اهتماماتهم بيد أن عنصر الوصايا الدينية يظهر في أشعارهم من حينٍ لآخر مهما لجّوا وابتعدوا وعادت وصاياهم لا تغفل خللاً ولا عطلاً إلا وسعت لإصلاحه ولا ثغرةً ولا فرجةً إلا وسعت لسدّها كما سيتبيّن.

ويكاد الناظر في وصايا شعراء الأندلس الدينية يحصرها في أصنافٍ لا تكاد تتعدّاها

وهي: العبادات بشقيها: الفروض والنوافل، والأخلاق والمعاملات ووصايا وعظية تحض على التوبة والأوبة والإنابة قبل فوات الأوان و تذكّر بقصر العمر وقرب انقضاء الأجل مهما طال وتوصي بالعمل لما بعد الموت وتجعل أول طرق الخلاص وآخرها وأساسها تقوى الله عزوجل، ويدخل في الوصايا الوعظية وصايا الاعتبار والادّكار من تقلبات الدهر ونوائبه

الحض على ذكر الله وتقواه:

أوصى الشاعر الأندلسي العبد الغافل باليقظة والتنبّه لعبادة الله رافع السماوات العُلى وباسط الأرض الذي لا تدركه العقول ، الجواد الخالق المعبود الذي تخضع له الكائنات بالأوامر والنواهي. أوصى الشاعر الأندلسي جمهوره بذكر الله سبحانه وتعالى، قائلاً(١):

واذكــــر إلهـــاً مـــا أجَـــلَّ فَـــذِكْرُه ـــــ سبحانه كالـــشهد فـــي الأفـــواه

وهو يدعو إلى ذكره تعالى طريقاً لكسب رضاه فهذه أعمال الصالحين قائلاً(٢):

فقُم من النوم واذكــر واحــداً صــمداً ـــــ فـــذكُره لرضـــاه أفـــضل الطـــرق

فالـــصالحون قيـــام طـــول لـــيلهم ـــــ ذوو نحيب عظـيم الهـول مـع فلـق

تـــراهم بـــين تـــالٍ لا فتـــور لـــه ـــــ وذاكـــر لاغتنـــام الـــذكر مـــستبق

وفي الحَثِّ على البر والتقوى يقول ابن الأبّار(٣):

وادأب على البـرِّ والتقـوى فبابهمـا ـــــ إلـى الـسعادة مفتـوح لمـن قرعـا

الحض على الصلاة:

حَثّ الشاعر الأندلسي على أداء الصلاة في وقتها وضرورة الخشوع أثناء تأديتها وحضور القلب في ذلك محذراً من الرياء، وفي هذا يقول عبد الكريم القيسي(٤):

---

(١) ديوان ابن حمديس، ص٢٨٧.

(٢) السابق، ص٣٥٨.

(٣) السابق، ص٣٧٧.

(٤) ديوانه، ص٢٨٧.

وأفِق وقُم لصلاتِه في وقتها — إنّ الصلاة وسيلةٌ هي ما هي

وثوابُها لمقيمها في وقتها — لا مُنقضٍ أبداً ولا متناه

وأدِم حضور القلب عند أدائها — واخشع خشوع القانت الأواهِ

واحذر إذا أدّيتها بجماعة — مِن أن تُرائي بالأدا وتُباهي

وهو إذ يوصي بذلك، يحث في موضع آخر على أداء السُّنة في الصلاة، وإقراض الله قرضاً حسناً، يقول(١):

وبالفرض قُم لله واشفع بسُنّة — فيا فوز مَن أضحى بها يَشْفَع الفرضا

فقد وعدَ الحُسنى جزاءً محققاً — لمن كان في الدنيا له أحسن القرضا

ويحث في موضع ثانٍ على قيام الليل قائلاً(٢):

فيا كثير الرقاد احذر تَعَدّيَهُ — وكحّل الجفنَ كُحْلَ السُّهد والأرق

وقم إلى الله قبل الفجر مغتنماً — مَهَبّ ريح الرضى في زي منتشِقِ

وذلك كله مقتبس من آيات الذكر الحكيم والهدي النبوي الشريف:

ومنه قوله تعالى:

"**إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**"(٣).

وقوله عليه الصلاة السلام:

"**أي العمل أحب إلى الله قال: الصلاة على وقتها**"(٤).

وقال سفيان الثوري : "**يكتب للمرء من صلاته ما عقِل منها**"(٥).

---

(١) ديوان عبد الكريم القيسي، ص٣٠٧.

(٢) السابق، ص٢٥٨.

(٣) سورة النساء، آية١٠٣.

(٤) صحيح البخاري ١/١٩٧.

(٥) حُليةُالأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ٧/٦١.

يقول عبد الكريم القيسي في هذا[١]:

حتّى متى وإلى متى يا ساهٍ ... تُلْقى كثير النوم قُم لله
قُم للذي رفع السماوات العلى ... ودحا بسيط الأرض فوق مياه
قم للذي تاهت عقول الخلق في ... إدراك ما أبداه أي مَتَاه
قُم للذي عَمّ الوجود ... بجوده من طائع أو مُسْرِفٍ تيّاه
قُم للذي عنت الوجوه لوجهه ... بالطوع أو بالعتق والإكراه
قُم للذي أضفى على أحبابه ... من فضله ثوبَ الجلال الزاهي
قُم للذي أمر الورى ونهاهم ... أعظم به مِن آمر أو ناهِ

وفي هذا المعنى يقول في موضع آخر[٢]:

يا راقداً طولَ هذا الليل لم يُفِق ... قُم للذي خَلَقَ الإنسان من عَلَق

الحض على الصوم:

وقد أوصى الشعراء بالصيّام ونَوّهوا بفضله، فهذا ابن الأبّار يقول[٣]:

ولا تُفارق صدى فيها ومخمصة ... تنل بدار الخلود الرِّيّ والشبعا

وقد جاء في القرآن الكريم: "**كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**"[٤].

ومِن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم صيام الاثنين والخميس[٥]:

"**تعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس فأحبّ أن يعرض عملي وأنا صائم**".

"**من صام يوماً في سبيل الله بعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً**"[٦].

---

(١) الديوان ، ص٢٨٧.
(٢) ديوانه ، ص٣٥٧.
(٣) الديوان، ص٣٧٨.
(٤) سورة البقرة، آية ٨٣.
(٥) سنن الترمذي ١٢٢/٣.
(٦) صحيح البخاري ١٠٤٤/٣.

وقال صلى الله عليه وسلم:"**كل حسنة يعملها ابن آدم تضاعف عشراً إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به يدع شهوته من أجلي ويدع طعامه من أجلي فرحتان للصائم فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه عز وجل ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**"(١).

ومِن الوصايا الدينية التي تحَثّ على العبادة في شهر رمضان ونبذ ما يُلهي حتى يصل العبد إلى منازل القبول قول الفقيه الإمام أبي بكر غالب بن عطية المحاربي(٢):

لا تجعَلَنْ رمضانَ شَهرَ فُكاهَةٍ ... تُلهيكَ فيه مِن القبيح فنونُه
واعلَمْ بأنّك لا تنالُ قبُولَهُ ... حتى تكون تَصُومُهُ وتصونُه

النهي عن القتل:

وقد نهى الشعراء عن القتل الحرام لأن الله تعالى يحاسب عليه بل إنّ بعض العلماء رأوا أن مقترف هذا الفعل لا يُثاب على شيء أبداً، وفي هذا يقول ابن الجيّاب الغِرناطي(٣):

سَفْكُ الدماء الحرام به ... غداً يبدأ الحساب
ومِن أولي العلم مَن رأى ... أن ليس في سفكها مثاب
فراقب الله واجتنبها ... واحذَر يضاعف له العذاب

مخالفة هوى النفس:

وقد أوصى الشعراء بضرورة مخالفة هوى النفس الدافع إلى معصية وفي هذا يقول ابن الجيّاب الغرناطي(٤):

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢٦٦/٢.

(٢) قلائد العقيان،ج٣، ص٦٣٧.

(٣) ديوانه، ص٢٠٣.

(٤) ابن الجياب الغرناطي ٦٧٣-٧٤٩هـ/١٢٧٤-١٣٤٨م علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الأنصاري الغرناطي، أبو الحسن، ابن الجياب، شاعر وأديب أندلسي غرناطي أنصاري، من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، ولد في غرناطة، وبها نشا وترعرع، وأخذ العلم عن مجموعة من علمائها الأفاضل، توفي بالطاعون في غرناطة، تاركاً الكثير من الشعر والنثر، جمع أغلبه تلميذه لسان الدين بن الخطيب، حياته وشعره، ص٢٠٤.

هـي الـنفس إن أنـتَ سـامحتها ... رَمَت بـك أقـصى مهـاوي الخديعـة

وإن أنـت جـشّمتها خُطّـة ... تنـافي رضـاها تجـدها مطيعـة

فـإن شـئت فـوزاً فنـاقض هواهـا ... وإن واصـلتك أجزْهـا القطيعـة

ولا تعبـأنّ بميعادهـا ... فميعادهـا كـسراب بقيعـة

وفي المعنى نفسه يقول(١):

ألا أيهـا المـرء الـذي رام توبـة ... فصدّته عنها الـنفس معكـوس آمـال

وقـد أيقنـت علمـاً ببـاطن أمـره ... بـأن الفتـى يهـذي ولـيس بفعـال

إلى كم تُرَجّي العمـر والعمـرُ ذاهِـب ... بتـضييع أوقـاتٍ وتبديـد أحـوال

وفي الدعوة إلى مخالفة هوى النفس الذي يقود إلى الهوان يقول علي الغراب الصفاقسي(٢):

دع هوى مـا إليـه نفـسك تـدعو ... فالهـوى للهـوان يعطـي زمامـه

وفي هذا المعنى قال الشيخ أبو عثمان سعيد بن أحمد بن ليون(٣):

خـالف الـنفس فـي قـصود هواهـا

تبق مـا عـشت سـالماً مـن أذاهـا

فاتّبـاع الهـوى هـوانٌ ولكـن

هـان للـنفس كـي تنـال مُناهـا

ومنه قول الإمام ابن حزم(٤):

لا تُتبـع الـنفس الهـوى ... ودَع التعـرض للمِحَـن

---

(١) الديوان، ص٢٠٥.

(٢) ديوانه، ص١١١.

(٣) هو أحد شيوخ لسان الدين كان مولعاً باختصار الكتب، لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص٨٧ .

(٤) ابن حزم، طوق الحمامة، ص١٥٦.

الصــــدق:

وقد دعا الشعراء إلى اتخاذ الصدق سبيلاً للحياة والابتعاد عن الكذب وفي هذا يقول ابن حمديس[١]:

إن شـــئت أن تحيـــا فكـــن صــــادقاً فإنمـــــــا الكــــــذّاب كالميـــــــت

وهو مقتبس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"**وإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإنّ العبد ليتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدّيقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإنّ العبد ليتحرّى الكذب حتى يُكتب كذّاباً**"[٢].

وكذلك حديث رسول الله : "**أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا**"[٣].

في الحضّ على الصبر والرضا بالقضاء والقدر:

وسنلاحظ اقتباس اللفظ من القرآن الكريم:

"**فاصبر صبراً جميلاً**".

والآيات التي حثت على الصبر في كتاب الله كثيرة منها:

"**واصبر وما صبرك إلا بالله**"[٤].

"**واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً**"[٥].

"**يا أيّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا** "[٦].

والرضا بقدر الله وقسمته حضّت عليه السنة النبوية:

"**وارضَ بما قسمَ الله لك تكن أغنى الناس**"[٧].

---

(١) ديوانه، ص٧٤.
(٢) صحيح مسلم ٢٠١٢/٤.
(٣) موطأ الإمام مالك رواية يحيى الليثي ٩٨٩/٢.
(٤) سورة النحل، آية١٢٧.
(٥) سورة المزمل، آية ١٠.
(٦) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.
(٧) سنن الترمذي ٥٥١/٤.

وكذلك حديث رسول الله "**الصبر ساعة في بعض مواطن المسلمين خير من عبادة أربعين عاماً**"(١).

كما حثّ الشعراء على ضرورة الصبر على نوائب الدهر التي تصيب الجميع، فالدهر لا يبقى على حال وفي هذا يقول ابن خاتمة(٢):

هو الدهر لا يُبقي على لائذٍ بـــه　　　فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه
فمَن لم يُصَب في نفسه فمُصابُهُ　　　بفوت أمانيه وفقْد حبائبــــــه

وفي الحضّ على الصبر، وذمّ الجزع، يقول عبد الكريم القيسي(٣):

صبراً جميـــــلاً لهـــذا الحادث الجلـــل　　　وإن يكن مـــا بـــه للقلـــب مـــن قِبَـــل
فالـــصبر بـــالأجر مقـــرون ومـــرتبط　　　في عاجل العمـــر أو مـــستقبل الأجـــل
واحذر من الجـــزع المـــذموم وارض بمـــا　　　في ابنيك قد مضت الأحكام فـــي الأزل

والشعراء في حثهم على الصبر يدعون إلى الرضا بقضاء الله يقول عبد الكريم القيسي(٤):

اصبر لحكـــم الله وارضَ بمـــا قـــضى　　　تُكتـــب لديـــــــه مـــن الأنـــام خيـــارا

ويقول في موضع آخر موصياً بالصبر أيضاً(٥):

تَـــصَبّر فَـــدتك النفـــوس عليــــــه　　　عـــسى أن تـــرى للخـــلاص مجـــالاً

فالصبر عاقبته الفرج في هذا يقول الصفاقسي(٦):

ومن تحمّل ثقـــل الـــصبر فـــي زمـــن　　　يَخِفُّ في زمـــن مـــا عنـــه قـــد ثقُـــلا

---

(١) مسند الطيالسي ١/١٦٨.
(٢) ديوان ابن خاتمة، ص٤٢٠.
(٣) ديوانه، ص٤٢٠.
(٤) السابق، ص٢٥.
(٥) السابق، ص٢٦٨.
(٦) ديوان الصفاقسي، ص١٠٣.

ففي الصبر رضا لنفس الحر، وفي هذا يقول ابن شكيل[(١)]:

فاصــبر، فــإنّ الحُــرّ مَــن إنْ تَدْعُــه للــــصَّبر، طابـــت نفــــسه وتَـــسلّت

وفي هذا يقول ابن جبير:

عليـــك بكتمـــان المـــصائب واصـــطبر عليهـــا فما أبقـــى الزمـــان شـــفيقا

ولما يلقاه الصابرون مِن أجر يوصي ابن حمديس بالصبر قائلاً [(٢)]:

فـــصبراً فلـــيس الأجـــر إلا لـــصابر على الدهر إن الدهر لم يخلُ مِن خطـــب

وابن زيدون يوصي بحسن الصبر الذي يكون معه الأجر من الله تعالى قائلاً[(٣)]:

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر

فمن شيم الأبرار – في مثلها – الصَّبر

ستصبر صبرَ اليأس أو صَبْرَ حِسْبَةٍ

فلا تؤثـــــر الوجـــــه الذي معه الوزر

فالله يُعوّض الصابرين بصبرهم الحسنى والخير وفي هذا يقول ابن شكيل[(٤)]:

فاصطبر وارتقـــب مراجعـــة الحُـــسنى مِـــــن الله فهـــــو غيـــــر شــــحيح

كما أوصى الشاعر الأندلسي بالرضا والقناعة فيما قسمه الله من أمر الدنيا، يقول المعتمد بن عبّاد[(٥)]:

---

(١) أحمد بن يعيش بن شَكيل الصَدفي الأديب، من أهل شريش وأحد شعرائها الفحول.
انظر: حياة قارة، أبو العباس أحمد بن شكيل الأندلسي شاعر شريش ، ط١، منشورات المجمع الثقافي – الإمارات العربية، ١٩٩٨، ص٤٣.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص٣٧.

(٣) ديوان ابن زيدون، ص١٤٠.

(٤) ديوان ابن شكيل، ص٥٢.

(٥) المعتمد بن عباد: الملك الشاعر، كان له في الأدب باع وساع، ينظم وينثر، تسابق إليه الشعراء، شعره كان موجوداً بأيدي الناس، شعره مقطوعات واضحة المعاني والألفاظ، تقلب في حياته من الشعر إلى التحسن.

انظر: ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السيراء في أشعار الأمراء، تحـــق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٣، ج٢، ص٥٥.

وانظر: المعتمد بن عباد وشعراء عصره، تحق: محمد زهدي يكن، دار يكـــن للنـــشر، بيـــروت، ١٩٧٥، ص٢٨-٣٨.

اقنع بحظك من دنياك ما كانا

وعزِّ نفسك إن فارقت أوطانـــــا(١)

وفي القبول بقدره عزّ وجل نظم ابن الأبّار(٢):

ولا تُسْخِطِ المقدور وارضَ بما جــرى عليك به إنّ الرضى يَفْـضُل الــسُّخطا

الحض على غضّ البصر:

وفي غَضّ البصر يقول ابن جبير(٣):

صُن العقــل عــن لحظــة فــي هــوى فـــإنّ البـــصيرة طـــوع البـــصر

وغُـــضّ الجفـــون علـــى عِفّـــــة فـــإن زنـــاء العيـــون النظـــــر

وقد أوصى القرآن الكريم بضرورة غض البصر والعِفّة، وقد جاء ذلك في مواضع عديدة من كتاب الله منها قوله تعالى:

"**قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها**"(٤).

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جلّ وعز إيماناً يجد حلاوته في قلبه**"(٥).

---

(١) ديوانه، ص١٩٢.

(٢) ديوان ابن الأبَّار، ص٤٧٢.

(٣) ديوانه، ص٤٢.

(٤) سورة النور، آية ٣٠، ٣١.

(٥) المستدرك على الصحيحين ٤/٣٤٩.

التوكّـــــــــل:

تأتي الوصايا في تفويض الأمر لله والتوكل عليه، وفي هذا يقول ابن خاتمة الأنصاري(١):

إذا مـــا الـــدّهر نابــك منـــه خطــب وشَــدّ عليــك مــن حَنَــقٍ عِقالَـــه

فكِــــل لله أمـــــــرك لا تفكّـــــــــر ففكــرك فيــه خَــبْطٌ فـــي حبالَـــه

وهم يصدرون عن معانٍ قرآنية ونبوية بحتة كقوله تعالى: "**ومن يتوكّل على الله فهو حسبه**"(٢) "**وتوكّل على العزيز الرحيم**"(٣). والآية القرآنية "**إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم**"(٤). وفي ذلك يقول في موضع آخر(٥):

ففـــوّض الأمـــر لتدبيـــــــــــره مرتــضياً منـــه بمـــــا حَـقَّ لــك

وكـــن كمـــا كنـــت لـــــــــه أولاً يكن لــك الآن كمـا كـــــان لــك

وفي التسليم لأمر الله والرضا بما قسَم وقَدّر يقول عبد الكريم القيسي(٦):

فَـــسلِّم الأمـــر لله العظـــيم كمـــا أمِرتَ وارْضَ بما أمــضاه واحتمــل

ومِن تمام التوكّل عليه دعوته منفرداً وترك دعوة غيره، فهو المعطي والرازق وفي هذا

(١) أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري، شاعر وكاتب ومترسل وفيه ومصنف وزاهد، له مؤلفات عدّة منها: "مَزيّةُ المَريّة على غيرها من البلاد الأندلسية". انظر محمد رضوان الداية، ديوان ابن خاتمة الأنصاري ، دار الفكر المعاصر ،بيروت ودار الفكر، دمشق، ط، ١٩٩٤ ، ص١٢٨.

(٢) سورة الطلاق،آية٣.

(٣) سورة الشعراء، آية٢١٧.

(٤) سورة الرعد، آية١١.

(٥) ديوان ابن خاتمة، ص١٢٨.

(٦) عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي، عاش معظم القرن التاسع الهجري قبل سقوط غرناطة، عمل في الإمامة والخطابة والتوثيق والفيتا وعقد الشروط وعين والياً على منطقة أندلسية، تعرض للأسر من قبل النصارى، جمعه شيخه ومحمد الطرابلسي، ديوان عبد الكريم القيسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، ١٩٨٨، ص٤٢١.

يقول ابن الأبّار[١]:

دع الـــورى وارج إلـــــه الـــورى   فإنّـــه ذو القــبض والبســـــط

وهنا نلاحظ استخدام أسماء الله الحسنى (أسماء الصفات) فالله تعالى هو القابض وهوالباسط : "**يبسط الرّزق لمن يشاء ويقدر**".

وفي هذا نظّم ابن جبير قائلاً[٢]:

مِـــن الله فاســـأل كـــل شـــيءٍ تريـــده   فما يملك الإنـــسان نفعـــاً ولا ضَـــرّا

نلاحظ أن ابن جبير يستلهم معاني قرآنية ويحث على طلب الحاجات من الله، وترك طرق باب كل من هو دونه فلا يملك النّفع والضرّ إلا الله: قال تعالى: "**أمَّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه**"[٣] ويستمد من حديث رسول الله : "**إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**".

وفي هذا يقول ابن حمديس[٤]:

ســــــلِّم الأمـــر منـــك لله واعْلَـــــم   أنّ ما قـــد قـــضى بـــه سيـــــــكون

وقول ابن حمديس هذا مقتبس من معاني قرآنية فقضاء الله واقع لا محالة وقدره نافذ لا يملك إنسان ردّه ولا يقدر مخلوق على دفعه "**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**"[٥]، "**إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**"[٦].

---

(١) ابن الأبّار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، أخذ عن شيوخ الأندلس في بلنسية وغيرها، عمل كاتباً في بلاط أبي عبدالله الموحدي، نفاه أبو عبدالله المستنصر، له عدد كبير من المؤلفات منها الحلة السيراء في أشعار الأمراء.

انظر: عبد السلام الهراس، ديوان ابن الأبّار، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥، ص٤٧١.

(٢) ديوان ابن جبير، ص٦١.

(٣) سورة الملك، آية٢١.

(٤) ديوان ابن حمديس، ص٥١٦.

(٥) سورة يس، آية ٨٢.

(٦) سورة آل عمران، آية٤٧.

وفي الثقة بالله ودعوته دون غيره يقول ابن حمديس[١]:

كُـن واثقـــاً بـالله ســبحانـه فهو الذي يـصرف عنـك الخطـوب

واصرف إليه الوجَـه عـن معـشـر قد صـرفوا عنك وجـوه القلـوب

وفي هذا يقول في موضع آخر من ديوانه[٢]:

أليس بنـو الزمـان بنـو أبيكـا فجـرّد عن حقائقـك الـشـكوكا

ولا تـسأل مـن المملـوك شـيئاً فترجـع خائباً وسـل المليكـا

وابن حمديس يحثُّ على الثقة بالله ويحضُّ على طلب المعونة منه وحده دون غيره، فهو وحده من لا يخيّب سائله، وهو وحده القادر على دفع المُلمات والمصائب عمّن وجهّوا وجوههم لمن كُلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه، ويوصي بصرف الوجه عن معشرٍ أوصدّوا قلوبهم في وجوه سائليهم والتّوجه إلى من لا يوصد بابه دون أحد.

ويعود في القصيدة الأخرى ليؤكد هذا المعنى ويرسّخه، وليعيد إلى الأذهان حقيقة ربما نسيتها أو تناستها، وهي أن البشر كلّهم بنو آدم مستمداً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**والناس بنو آدم وآدم من تراب**"[٣] وهي حقيقة لا مجال للتشكيك فيها، وأنّ البشر– وإن تفاوتت قدراتهم– إلا أنهم لا يعدون صفات الآدميين، وإنّ سؤالهم في نهاية الأمر لا يعدو سؤال الند للند وسؤال العبد المملوك لمملوك مثله وخاب وخسر من يدعو مملوكاً وأبواب المليك دونه مشرعة، ثمّ يؤكد حقيقة دينية استلهم معناها من قول سيّد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم: "**ألا وإنّ نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها**"[٤]، ولو كان الرّزق قاب قوسين أو أدنى فإن المرء لن يناله ما لم يكنْ قد قُدِرَ له أن يصيبه أو يصيب منه.

وهنا نلاحظ أن شعراء الأندلس في وصاياهم الدينية لا يزالون يصدرون عن معانٍ قرآنية وإرشادات نبوية فيقتبسون تارة اللفظ والمعنى وتارة يعمدون إلى المعنى فيسوقونه بتعبيرات شعرية تترك صدىً في القلوب وآثاراً في النفوس.

---

(١) ديوان ابن حمديس، ص٤٤.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص٣٤٩.

(٣) سنن الترمذي ٤٣٥/٥.

(٤) المعجم الكبير للطبراني ١٦٦/٨.

الحض على الزهد:

وقد أوصى كثير من الشعراء بالزهد والتجرّد عن الدُنيا فهذا ابن الأبّار يقول[(١)]:

تَجَـــرّد مِـــن الـــدنيا فإنـــك إنمـــا خرجـــت إلـــى الـــدنيا وأنـــت مُجَـــرّد

كما أوصى القضاة والزهاد بذلك ومنهم محمد بن سعد بن قاسم الأوسي قال[(٢)]:

اخـــرج مـــن الـــدنيا ولا تعتلـــق منهـــا بمـــا لا بُـــدَّ أن يُنتـــسف

ومن ذلك ما أوصى به الفقيه الوزير أبو بكر بن صنوان بقوله[(٣)]:

دَع عنك زُخرف عـيشٍ لا بقـاء لــه

كأنـــه فـــوق ظهـــر المـــاء تـــصوير

واخلع ثيـاب الأمـاني فهـي كاذبـةٌ

دنوّهـــا وإنْ امتـــدّ المـــدى زور

وفي ترك الشهرة والتواضع قال ابن جبير[(٤)]:

إيّـــاك والـــشهرة فـــي ملـــبس والـــبس مـــن الأثـــواب أســـمالها

تواضـــع الإنـــسان فـــي نفـــسه أشـــرف للـــنفس وأســـمى لهـــا

وفي قول ابن الأبّار إشارة إلى قوله تعالى: "**كما بدأكم تعودون**"[(٥)].

وقول ابن جبير مأخوذ من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**كُلوا واشربوا والبسوا**

(١) ديوانه، ص٤٤.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحق إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، د.ت، ص١١٧.

(٣) ابن خميس، أبو بكر محمد بن علي المالقي، كتاب أدباء مالقة المسمى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار، تحق: صلاح جرار، دار البشير ومؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٩، ص٣٩٧.

(٤) ديوانه، ص١٢٣.

(٥) سورة الأعراف، آية ٢٩.

وتصدقوا في غير إسرافٍ ولا مخيلة"[١].

ومن قوله: "**ومن تواضع لله رفعه**"[٢].

في ترك البدع وزخرف الدنيا وعدم الالتفات إلى الأعراض الفانية الزائلة يقول ابن الأبّار[٣]:

لا تبتدع غير ما تبغي بمصنَعِه … مرضاة مَن صَنَعَ الأشياء وابتدعا
ولا تُعَرِّج على أعراض فانية … تُولّيك هجراً إذا أوليتها ولعاً
إياك والأخذ فيما أنت تاركه … مِن تُرّهاتٍ تجُرّ الشّين والطبعا
دِن باطّراحِك دنيا طالما غدرت … وزخرفاً مِن حلال شَدّ ما خدعا

في ترك المحدثات من الأمور والتزام منهج السلف الصالح، نظم ابن جبير يقول[٤]:

قد أحدث الناسُ أموراً فلا … تعمل بها إنّي امرؤ ناصح
فما جماعُ الخير إلا الذي … كان عليه السلف الصالح

وابن جبير وابن الأبّار يحذران من ابتداع الأمور التي تُغضِبُ الله ورسوله، وفي قولهما إفادة وإشارة إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**"[٥] وإشارة إلى وصية رسول الله: "**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ...**" [٦].

وفي الابتعاد عن الدنيا والتمسك بالدين والمسارعة إلى التقوى، وضرورة العمل، واغتنام العمر فإنّ طريق الحق والهداية واضح، قال أبو عمر ابن عبد البر يوصي ابنه[٧]:

تجافَ عن الدنيا وهَوّن لقدرها … ووفِّ سبيل الدين بالعروة الوثقى

---

(١) صحيح البخاري ٢١٨٠/٥.
(٢) المعجم الأوسط للطبراني ١٧٢/٨.
(٣) ديوانه، ص٣٧٧.
(٤) ديوانه، ٣٤.
(٥) صحيح البخاري ٩٥٩/٢.
(٦) مسند أبي داود ٦١٠/٢.
(٧) نفح الطيب، ج٤، ص٢٨-٢٩.

وسارع بتقوى الله سرّاً وجهرة   فلا ذمّة أقوى هُديت من التقوى
ولا تنسَ شكر الله في كل نعمة   يَمُنُّ بها فالشكر مستجلب النُّعمى
فدع عنك ما لا حظّ فيه لعاقِلٍ   فإن طريق الحقّ أبلج لا يخفى
وشَحّ بأيامٍ بقينَ قلائلٍ   وعمر قصير لا يدوم ولا يبقى
ألم ترَ أن العمر يمضي مولّيا   فجِدّتُه تبلى ومُدّته تفنى

الحث على فعل الخير وترك الشر:

أوصى الشعراء الناس بضرورة تقديم الخير والعمل الطيّب؛ لأن النتائج تأتي على قدر الأعمال، ووفقاً لها. فمن يزرع خيراً يحصد خيراً، والعكس صحيح، وفي هذا يقول ابن الأبار[(١)]:

وَلْتَزْرع الخير تحصد غبطة أبداً   فإنما يحصد الإنسان ما زرعا

ومثله قول علي الغراب الصفاقسي[(٢)]:

زارع البغي حاصد للندامة   فاطلب السلم إن أردت السلامة

وفي هذا تمثّل لقوله عزوجل:

"**من يعمل سوءاً يُجزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا**"[(٣)].

ولقوله أيضاً:

"**ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فاولئك لهم الدرجات العلى**"[(٤)].

وقد دعا الشعراء إلى مراقبة الله عز وجل في الأعمال وترك تتبّع النجوم وحركاتها فالله

---

(١) ديوانه، ص٣٧٨.

(٢) ديوانه، ص١١١.

(٣) سورة النساء، آية ١٢٣.

(٤) سورة طه، آية ٧٥.

تعالى هو الذي يقضي ويُقَدّر وليست النجوم، وفي هذا يقول الحكيم[١]:

لا ترج في أمرك سعد المشتري

ولا تَخَف في فَوْتِهِ نَحْسَ زُحَل

وارجُ وخفْ رَبّهُما فهو الذي

ما شاء من خير ومن شرّ فَعَل

وقصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه حين انخسف القمر بعد موت ابنه صلى الله عليه وسلم ابراهيم : "**إنّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد فإذا رأيتموها فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم** "[٢].

وهذا من قوله عز وجل:

"**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهنّ إن كنتم إياه تعبدون**"[٣].

"**وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبأ في السموات والأرض** "[٤].

وأوصى الشاعر الأندلسي بالأمل بالله وبفرَجه ولطفه، وألا يبيت الإنسان مكتئباً في كمده وفي هذا يقول ابن الأبّار[٥]:

يا شفيق النفس أوصيك وإن شقّ في الإخلاص ما تنتهجه

لا تبت في كمد من كبَد رُبّ ضيق عاد رحباً حرَجُه

وبلُطْفِ الله أصْبح واثقاً كُلّ كرب فعَليه فرَجُه

فمهما اشتدّ الكرب وعظم البلاء واحلولك الليل "**فإنّ مع العسر يسرا إنّ مع العسر يسرا**"[٦]، ولا يغلب عسرٌ يسرين.

---

(١) ديوانه، ص١٣٦.

(٢) صحيح البخاري، ٣٥٣/١.

(٣) سورة فصلت، آية ٣٧.

(٤) سورة النمل،آية ٣٤.

(٥) ديوانه، ص١١٨.

(٦) سورة الشرح ،آية٥ ،٦.

الحض على الاستغفار والتوبة:

وتأتي الوصايا الدينية بالتذكير بضرورة الاستغفار والعودة إلى الله والندم على ما فات ، ومراجعة النفس قبل الرحيل وفيه يقول مَرْجُ الكحل[١]:

اذكـــر ذنوبـــك أيُّهـــاذا الناســـي　　واســـــــتغفرنّ الله ربّ النـــــاس
واقرع علـــى مـــا فـــات ســـنك نادمـــاً　　واكرع من العبـــرات فـــي أكـــواس
وانفض عـــن الـــدنيا يـــديك ولا تكـــن　　تُغنـــــى بهـــــذي الأربـــــع الأدراس
انظـــر لنفـــسك قبـــل وقـــت رحيلهـــا　　واذكـــر بقبـــرك قلـــة الإينـــاس

وفي هذا المعنى يقول المعتمد بن عبّاد:

وطن على الكره وارقـــب إثـــره فرجـــاً　　واســـتغفر الله تغـــنم منـــه غفرانـــا

وفي الحثّ على التوبة يقول عبد الكريم القيسي[٢]:

وجِـــيء تائبـــاً لله ممـــــا جنيتــــــهُ　　وأكثـــر عليـــه فـــي أناملـــك العـــضّا
فعدِّ عـــن الـــزلأت وانهـــض لطاعـــة　　فخير الورى من نحوها أسرع النهضا

وهو يشير في هذا إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "**خير الخطّائين التوابون**"[٣].

وفي هذا المعنى يقول الأمير عبدالله بن محمد[٤]:

فبـــــادر بالإنابـــــة غيـــــر وانٍ　　علـــى شـــيء يـــصير إلـــى فنـــاء

---

(١) مَرْج الكُحل: محمد بن إدريس عاش في أيام الحكم الموحدي للأندلس لازم الأدباء ومدح الأعيان والمشاهير، كان أكثر شعره من المقطوعات. انظر: صلاح جرار، مرج الكحل الأندلسي ، سيرته وشعره، دار البشير، عمان، ١٩٩٣، ص١٢٢.

(٢) البيان المغرب، ج٢، ص١٥٥.

(٣) سنن الترمذي ٦٥٩/٤.

(٤) ديوانه، ص١٢٢.

ومن ذلك قول ابن الأبّار[١]:

واسـبق مـشيبك بالمتـاب حِزامـة فلـه حلـولٌ عاجـل أو آجِـلُ

وفي التوبة قبل فوات الأوان يقول ابن جبير[٢]:

وتُـب قبـل عـضّ بنـان الأسـى ومـن قبـل قرعـك سِـنّ النـدم

وفي ضرورة الاتعاظ بالشيب ومسارعة التوبة يقول ابن حمديس[٣]:

وُعِظـت بلمّتـك الـشائبة وفقـد شـبيبتك الذاهبـة

وسـبعين عامـاً تـرى شمـسها بعينـك طالعـة غاربـة

فيـا حاضـراً أبـداً ذنبـه وتوبتـه أبـداً غائبـة

أذب منـك قلبـاً تُجـاري بـه سـوابق عبرتـك الـساكبة

على كـل ذنـب مـضى فـي الـصبا وأتعـبَ إثباتُـه كاتبـه

عـسى الله يـدرأ عنـك العقـاب وإلا فقـد ذمّـت العاقبـة

وفيه يقول في موضع آخر[٤]:

خلت منـك أيـام الـشبيبة فاعمرهـا وماتت لياليهـا مـن العُمـر فانـشرها

وهـذا لعمـري كلـه غيـر كـائن فـأخراك واصـلها ودنيـاك فاهجرهـا

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**أعذر الله إلى امرىء أخّر أجله حتى بلغه ستين سنة ولم يتب**"[٥].

وفي التوبة يقول ابن عبد ربه[٦]:

بادر إلى التوبة الخلصاء مجتهداً

والموتُ ويحك لم يمدد إليك يدا

---

(١) ديوان ابن الأبّار، ص٢٦٦.

(٢) ديوان ابن جبير، ص٨٥.

(٣) ديوان ابن حمديس، ص٤٠/٤١.

(٤) ديوانه، ص٢٦٥.

(٥) جاء في صحيح البخاري ٥/٢٣٦٠ "أعذر الله إلى امرىء أخّر أجله حتى بلغه ستين سنة"..

(٦) نفح الطيب، ج٤، ص٣٢١.

وارقب من الله وعداً ليس يخلفه

لا بُـــُدّ لله من إنجاز ما وعدا

ومن ذلك ما قاله الفقيه القاضي أبو الحسن البلوطي يوصي جمهور العامّة من المتلقين[١]:

كـم تـصابى وقـد عـلاك المـشيب	**وتعـامى عمـداً وأنـت اللبيـب**
كيـف تلهـو وقـد أتـاك نـذيرٌ	**أنْ سـيأتي الحِمـام منـك قريـب**
يـا سـفيهاً قـد حـان منـه رحيـلٌ	**بعـد ذلـك الرحيـل يـومٌ عـصيب**
إنّ للمـوت سـكرةً فارتقبهـا	**لا يـداويك إنْ أتتـك طبيـب**
كـم تـوانى حتـى تـصير رهينـاً	**ثـم تأتيـك دعـوةٌ فتُجيـب**
بـأمور المعـاد أنـت علـيم	**فـاعْمَلَن جاهـداً لهـا يـا أديـب**
وتـذكّر يومـاً تُحاسَـب فيـه	**إنّ مَـنْ يـذكّر فـسوف يُنيـب**
لـيس مِـنْ سـاعةٍ مـن الـدهر إلا	**للمنايـا عليـك فيهـا رقيـب**

ولا يستغرب أن يوصي القضاة الذين يتكلّمون بالحق ويتبنون الصدق وهم أصحاب العلم والخبرة العامّة رغبةً منهم في إصلاح شؤونهم.

التحذير من الموت:

يشكّل الموت ركيزة أساسية تدور كثير من الوصايا والمواعظ في فلكها، فهو النهاية المحتومة، والأجل المقدّر الذي سيحاسب الإنسان بعده على ما قدّمت يداه؛ لذا فإن (الموصي) يلجأ إلى التذكير بالموت دائماً ليحفز المتلقي على العمل الصالح وتقوى الله، وفي ذلك يقول لسان الدين بن الخطيب[٢]:

خُـذ مـن حياتـك للممـات الآتـي	**وبَـدار مـا دام الزمـان مـواتي**

(١) هو القاضي منذر بن سعيد بن عبدالله، أبو الحكم المعروف بالبلوطي، كان عالماً فقيهاً وأديباً خطيباً له تآليف كثيرة منها الناسخ والمنسوخ، ابن خاقان ، مطمح الأنفس، ص٢٣٩.

(٢) ديوان لسان الدين، ص١٨٧.

ومن ذلك قول ابن خاتمة الأنصاري[١]:

مـــلاك الأمـــر تقـــوى الله فاجعـــل   تقـــاه عُـــدّة لـــصلاح أمـــرك
وبـــادر نحـــو طاعتـــه بعـــزم   فمـــا تـــدري متـــى يُمـــضى بعمـــرك

وفي ذكر الموت ونفاذه على البشر يقول عبد الكريم القيسي[٢]:

هـــو القـــضـــاء إذا يمـــضي مُقـــدّره   لـــم يـــستطع ردّه ذو الحَـــوْل والحيـــل
والموتُ حكـــم علـــى الأحيـــاء كلهـــم   قضى به خـــالق الإنـــسان مـــن عجـــل
فمَن يُقدّر عليـــه المـــوت فـــي صـــغر   لِحَـــدّ عمـــر كبيـــر الـــسن لـــم يـــصل
ومن يكن عمـــره المكتـــوب ذا قـــصر   لـــم يلفـــه الـــدهر ممتـــداً ولـــم يَطُـــل
فَـــسلّم الأمـــر لله العظـــيم كمـــا   أُمِـــرْت وارضَ بمـــا أمـــضاه واحتمـــل

فالموت ماضٍ حكمه وفي هذا يقول ابن شكيل[٣]:

فـــالموت أمـــرٌ عَـــمّ فينـــا حُكْمُـــه   خَـــضَعت لِعِزّتِـــه الرِّقـــابُ وَذلّـــت

فعلى المرء أن يتنبه من نومه وغفلته، فالموت ماضٍ في الخليقة يفني الملوك والعامّة ولا ينجو من أمره أحد، وفي هذا يقول عبد الكريم القيسي[٤]:

أفق لمـــشيب برقـــه يُكثـــر الومـــضـــا   وبـــت بفـــؤاد حـــرَّه دونـــه الرّمـــضا
وأيقظ جفوناً طالما اعتـــادت الكـــرى   فأجفان أهل الـــصدق لا تعـــرف الغمـــضا
وكيف يطيـــب النـــوم للجفـــنِ لحظـــة   وفي الخلق قاضي الموت أحكامـــه أمـــضى
فأفنـــاهم كُـــلاً ملوكـــاً وســـوقة   وما حاش مـــنهم إذ نحـــا نحـــوهم بعـــضا
وكم قصدوا منه الفـــرار فمـــا نجـــوا   بقـــصدهم إذ ركـــضُه يعجـــزُ الركـــضا

---

(١) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص١٢٧.
(٢) ديوان عبد الكريم القيسي، ص٤٢١.
(٣) ديوان ابن شكيل، ص٤٣.
(٤) ديوانه، ص٣٠٦.

وأحكامُه في الخَلْق بالعدل قـد مـضت   فمـا مـنهم مـن يـستطيع لهـا نقـضا

فالشاعر الأندلسي يعي أن الحياة الدنيا متاع زائل، لذا فهو يتزوّد منها لآخرته، وفي هذا المعنى الإسلامي المتمثّل في قوله تعالى: "**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**"[١] يستمد الشاعر الخشني نصيحته قائلاً[٢]:

أخـي إنمـا الـدنيا مَحَلّـةُ فرقـة   ودار غـرور آذنـت بفـراق

تَزَوّد أخي من قبل أن تـسكن الثـرى   ويلتـف سـاقٌ للنـشور بـساق

وفي هذا المعنى يقول الأمير عبدالله بن محمد[٣]:

أرى الـدنيا تـصير إلـى فنـاء   ومـا فيهـا لـشيء مِـن بقـاء

فبـادر بالإنابـة غيـر وانٍ   علـى شـيءٍ يـصير إلـى فنـاء

فالعمر قصير يمر سريعاً قال ابن شهيد[٤]:

فـإذا بكيـت فَبَـكّ عُمْـرَك ، إنـه   زَجِـلُ الجنـاح يَمُـرُّ مَـرَّ الكوكـب

لذا فالشاعر الأندلسي يوصي بضرورة التزام العمل الصالح، و ليختم الإنسان عمره برضوان الله،لأن الموت قد يفجؤه ويبغته في أية لحظة، وفي هذا قال يحيى بن الحكم الغزال[٥]:

فطـوبى لعبـدٍ أخـرج الله روحـه   إليـه مـن الـدنيا علـى عمـل البـرِّ

وما الدنيا إلا سبيل إلى الآخرة على الإنسان أن يتزوّد منها بالخير والعمل الصالح ما استطاع، وفي هذا يقول ابن الأبّار[٦]:

---

(١) سورة آل عمران، آية١٨٥.

(٢) جذوة المقتبس، ج١، ص١١٨.

(٣) البيان المغرب، ج٢، ص١٥٥.

(٤) ديوانه، ص٩١.

(٥) يحيى بن حكم المعروف بالغزال، كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، جليل في نفسه وعلمه ومنزلته، كان جميل الشكل ذكياً ألمعياً...

انظر: محمد رضوان الداية، ديوان يحيى بن الحكم الغزال، دار قتيبة،ط١، ١٩٨٢، ص٩١.

(٦) ديوانه، ص٢٦٦.

دُنيـــاك للأخـــرى ســـبيل ســـايل فاعمـــل لهـــا، إن المُوَفَـــق عامِـــلُ

واحرص على نيـل الـسعادة جاهـداً بـــالبرّ والتقـــوى فـــنعم النائـــل

وأعِـــــدّ زاداً للرّحيــــل فإنمـــــا أيـــام عمـــرك لـــو عقلـــت مراحـــل

ويؤكد ذات المعنى فيقول في موضع آخر(١):

تَبَلَّـــغ بقـــوت اليـــوم فـــالعمر خلـسة وقـــــدّم جمـــــيلاً فالحيـــــاة بـــــلاغ

وفي التحذير من مفاجأة الموت، وانتهاء الأجل، وضرورة العمل استعداداً لملاقاته قال القاضي أبو العباس احمد بن الغماز البلنسي(٢):

هو المـــوت فاحـــذر أن يجيئـــك بغتـــةً

وأنت على ســـوء مـــن الفعـــل عـــاكف

وإياك أن تمضي مـــن الـــدهر ســـاعة

ولا لحظـــــة إلا وقلبـــــك واجـــــفُ

وبـــادر بأعمـــالٍ تَـــسرُّك أن تُـــرَى

إذا نُـــشرت يـــوم الحـــساب الـــصحائف

ولا تيأسَـــنْ مِـــن رحمـــة الله إنّـــه

لِـــرَب العبـــاد بالعبـــاد لطـــائفُ

وقد أوصى الشعراء بنبذ الحَسَد، وهو صفة مذمومة نهى عنها الإسلام، وفي هذا يقول الصفاقسي(٣):

تَـــأسَّ إذا أبـــصرت صـــاحب ثـــروة وإن كنت ذا قـــلّ تبـــت طـــاوي الحـــشا

ولا تَـــكُ حَـــسّاداً لـــصاحب نعمـــة فـــذلك فـــضل الله يؤتيـــه مـــن يـــشا

وفيه إشارة إلى قوله تعالى: "**ولا تتَمَنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض**"(٤).

---

(١) ديوان ابن الآبار، ص٣٨٦.

(٢) نفح الطيب، ج٤، ص٣١٦.

(٣) ديوانه، ص٣١٦.

(٤) سورة النساء،آية٣٢.

"لا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه"[١].

وفي حث العلماء على الترقع عن مجاراة الجهّال، وحضّهم على الكسب الحلال، والابتعاد عن الحرام، وألا يبيعوا الدين بالمال، وأن يرضوا بما يكفي دون الحرص على كنز المال؛ لأن المرء محاسب عن ماله، يقول أبو إسحاق الإلبيري الغرناطي[٢]:

لا شيء أخسر صفقة من عالمٍ — لعبت به الدنيا مع الجهّال

فغدا يفرّق دينه أيدي سبـاً — ويديله حرصاً لجمع المال

لا خير في كسب الحرام وقلّما — يُرجى الخلاص لكاسبٍ لحلال

فخذ الكفاف ولا تكن ذا فضلة — فالفضل تُسأل عنه أيّ سؤال

---

(١) سورة طه، آية١٣١.

(٢) نفح الطيب، ج٤، ص٣١٨.

المبحث الثاني
الوصايا الاجتماعية

وهي باب تحدّث فيه شعراء الأندلس عن أدب الحياة العامة والخاصة، وبينوا فيه سبل التعامل مع الآخرين، فحددوا للمتلقين أسساً عاماً في الكلام والمحادثة، ثم إنهم وضعوا قواعد عامّة لكثير من الوظائف التي تختلط بالعامة، وتتولى شؤونهم، وبينوا كثيراً من شؤون الحياة، فنصحوا الناس باغتنام الشباب، والضرب في الأرض، والاقتصاد، وحثوهم على الصمت، والاعتماد على النفس، وعلى العمل والحزم والعزم، وعلى السفر والاغتراب، وبيّنوا كيفية التعامل مع الأصدقاء والأعداء، ووضعوا أسساً عامة في التعامل مع النساء، وفي مخالطة الناس ومعاشرتهم، ودلوا الناس على العلوم التي ينبغي أن يقبلوا على تعلمها.

ففي الحضّ على ضرورة تحرّي المرء لما يقول والتنبّه لما ينطق به لسانه، لأنه يعبّر عن ذاته يقول ابن دَرّاج القسطلي(١):

أجِدِ الكلامَ إذا نَطَقْتَ فإنما ... عقل الفتى في لفظه المسموع

كالمرء يَخْتَبِرُ الإناء بصوته ... فيرى الصحيح به من المصدوع

وقد أوصى بعضهم الأدباء والكتّاب فيما يمكن أن نطلق عليه الوصايا الأدبية واللغوية. فالحكيم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز يوصي الشعراء بضرورة المزاوجة بين اللفظ الجميل والمعنى الشريف، لأن اللفظ جسم روحه المعنى، يقول في ذلك(٢):

جَرّد معاني الشعر إن رُمْتَه ... كيما توقى اللوم والطعنا

ولا تُراعي اللفظ مِن دونها ... فاللفظ جسم، روحه المعنى

وفي هذا المعنى يقول ابن حمديس(٣):

حرِّر لمعناك لفظاً كي تزان به ... وقل مِن الشعر سحراً أو فلا تَقُل

---

(١) ابن درّاج ، أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي، كاتب المنصور بن أبي عامر شاعر مُجيد وعالم متقدم. انظر: محمود علي مكي، ديوان ابن درّاج القسطليّ، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق،ط١، ١٩٦١، ص٧١٥.

(٢) ديوان الحكيم، ص١٤٨.

(٣) ديوان ابن حمديس، ص٤٠١.

فالكحـــل لا يفـــتن الأبـــصار منظـــره حتى يُصيّر حَـــشوَ الأعـــين النُّجِـــل

وهم في معرض توصيتهم لأصحاب الوظائف الخاصة كالأدباء أوصوا غيرهم كالقضاة مثلاً، ففي ضرورة أن يحكم القاضي بما أمر الله، ويعيد النظر في أحكامه ويغتنم تقلّده للمنصب إن أخطأ قبل عزله يوصي عبد الكريم القيسي قائلاً(١):

أعِد نظـــراً فيمـــا أتيـــت بـــه فقـــد بدا أن هـــذا الفعـــل منـــك تهكـــم

وبادر زمان الحكم مـــن قبـــل فوتـــه فما كل وقت أنت تقـــضي وتحكـــم

وهو في موضع آخر ينصح القضاه في كيفية التعامل مع الشهود قائلاً(٢):

بذل النـــصيحة واجـــبٌ لـــك ســـيدي فأصِخ فعنك نصيحتي لـــم أخْـــزُن

إنّ العدول مـــن الـــشهود يـــسوؤُهم جَعْلُ المُبَـــرِّز مـــنهم كـــالمُخْزَن(٣)

وقد تأتي الوصية في شأن عام من شؤون الحياة أو لنقل في كيفيتها، فهذا ابن الخطيب يوصي باغتنام اللذات قبل فوات الأوان يقول(٤):

فبادر إلى اللذات مـــن قبـــل فوتهـــا فمهما تولّـــت ســـاعة، مالهـــا رد

وفي هذا يدعو الغَزال إلى اغتنام الشبيبة، وإعطائها حَقّها قائلاً(٥):

أعـــطِ الـــشبيبة لا أبالـــك حَقّهـــا مِنهـــا فـــإنّ نعيمهـــا متحـــوّل

وقد حَذّر الشاعر الأندلسي من الركون إلى الزمَن والوثوق بالأمل، فالمرء لا يعـــرف ماذا يكون له فيما بعد، وهذا ما عبَّر عنه ابن شكيل بقوله(٦):

حَذارِ حَذارِ من ركـــون إلـــى الـــزّمن فمن ذا الذي يُبْقي عليه ومَن ومَـــن

---

(١) ديوان عبد الكريم القيسي، ص٢١٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤٥.

(٣) المُبَرّز: الظاهر والرفيع. المُخْزَن: الخَفِيّ الوضيع.

(٤) ديوان لسان الدين ابن الخطيب، ص٢٨٠.

(٥) ديوان يحيى بن الحكم الغزال، ص٩٣.

(٦) ديوان ابن شكيل، ص٨١.

وفي هذا يقول علي الصفاقسي[(١)]:

لا تثق بالمنى فما كل باغ نال ما يرتجي، ووفى مرامه

ربما كانت الأماني مطايا للمنايا وموردَاً للندامة

ومِن هذا الركون يُحَذّر يحيى بن الحكم الغزال مبيّناً أن للزمن صولات، فهو لا يدوم على حال قائلاً[(٢)]:

وإن أعطيت سلطاناً فحاذِر صولة الزمن

وهذا ابن الأبّار يُحَذّر من الأمل الكاذب الذي يَغُرُّ صاحبه قائلاً[(٣)]:

إيّاك والأمل الكذوب فرُبّما أودى بمطرور[(٤)] الغـرُور الآمل

وقد حَثّ الشعراء على الكسب والضرب في الأرض لطلب الرزق وعدم اليأس، وفي هذا يقول الحكيم أبو الصلت أمية الداني[(٥)]:

لا تَقْعُدَنّ بكسر البيت مكتئباً يفنى زمانك بين اليأس والأمل

واحتل لنفسك في شيءٍ تعيش به فإنّ أكثر عيش الناس بالحيل

ولا تَقُل إنّ رزقي سوف يدركني وإن قعَدْتُ فليس الرزق كالأجَلِ

وقد تحدث في هذا القضاة فالقاضي أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعيد بن أبي حبل المعافري يقول[(٦)]:

---

(١) ديوان علي الصفاقسي، ص١١١.

(٢) ديوان الغزال، ص١١٣.

(٣) ديوان ابن الأبار، ص٢٦٦.

(٤) المطرور: من الطر وهو تحديد السكين.

(٥) ديوان الحكيم، جمع وتحقيق محمد المرزوقي، ص١٣٣.

(٦) لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص١٠٧.

تكفّــل بـــالرزق الـــذي تـــستحثه

إلهـــك فلتجمـــل إذا أنـــت طالبـــه

وكن ساعياً فيه علـــى وفـــق أمـــره

شكوراً له فالـــشكر لا شـــكّ جالبـــه

وإيّـــاك والـــسعي المـــذل فإنـــه

ينالـــك منـــه مـــا أنالـــك واهبـــه

دع الحرص فيه واســـأل الله بـــسطة

فما الحرص مُدنيه ولا البسط ســـالبه

وفي ضرورة الاقتصاد والتدبير والاعتدال يقول ابن جبير[١]:

فكُن ذا اقتصاد فـــي أمـــورك كلهـــا   فأحسنُ أحوال الفتى حُسْن قـــصده

وقد رفع الشاعر الأندلسي من شأن العقل وأوصى بالاحتكام إليه؛ إذ به يرتقي الإنسان، وبهذا يوصي علي الغراب الصفاقسي قائلاً[٢]:

بالعقل تبلغ نفس المـــرء مـــا أمـــلا   ويرتقي في مراقي العزّ كـــل عـــلا

وفي التَفَكُّر والتأمل يقول ابن حمديس[٣]:

قِف بالتفكُّر يـــا هـــذا علـــى زمـــن   جَمَّ الخطوب ومَثِّل صـــرفه وقـــسِ

وفي الحثّ على الصمت وفضله يقول ابن خاتمة[٤]:

لـــسانك اسْـــجُن ولْتُطِـــل حَبْـــسَه   إن شـــئت إكرامـــاً وتـــصوينا

لـــو لـــم يكـــن للـــسجن أهـــلاً لَمـــا   غـــدا بقعـــر الفَـــمِ مـــسجونا

---

(١) ديوان ابن جبير، ص٤٠.

(٢) ديوان علي الغراب الصفاقسي، ص١٠٣، ص٤٠.

(٣) ديوان ابن حمديس، ص٢٨٥.

(٤) ابن خاتمة، الديوان، ص١٣٣.

وفي كتمان السر وحجبه عن اللسان، يقول ابن حمديس[١]:

إنّ السرائر عوراتٌ وإنّ لها ... مُهَذباً آخذاً بالحزم يسترها

فاطوِ السرائر في الجنبين تحجبها ... عن اللسان الذي للسمع ينشرها

وفي هذا المعنى يقول ابن حمديس[٢]:

لسان الفتى عبدٌ له في سكوته ... ومولىً عليه جائِرٌ إن تكلما

فلا تطلقنْه واجعل الصمت قيده ... وصيّر إذا قيَّدته سجنه الفما

وفي الاعتماد على النفس وعدم الاتكال على الآخرين نظم ابن جبير قائلاً[٣]:

بنفسك صادم كل أمر تريده ... فليس مضاء السيف إلا بِحَدِّه

وعَزْمَكَ جَرِّد عند كل مهمة ... فما نافع مكث الحسام بغمده

وفي الاعتماد على النفس وترك الاعتماد على الآخرين يقول ابن حمديس[٤]:

إذا خلل في الحال منك وجدته ... فإيّاك والتعويل منهم على خِلّ

وإن أراد الإنسان أن يقصد شخصاً في حاجة، فليقصد من يَعرف قدره، وفيه يقول الصفاقسي[٥]:

وإذا قصدت لحاجة ... فاقصد لمعترف بقدرك

---

(١)ديوان ابن حمديس، ص٢٦٣.

(٢)ديوان ابن حمديس، ص٤٧٧.

(٣)ديوان ابن جبير، ص٤٠.

(٤)ديوان ابن حمديس، ص٣٦٥.

(٥)ديوان الصفاقسي، ص٣٠٩.

وينصح ابن حمديس بالعمل والإقدام والحزم والعزم، فالزمن لا يسمع شـكوى شـاكٍ، ويمضي في أحداثه لا ينتظر أحداً آخذاً معه الشباب والصحة جالباً الهرم والمرض، لذا فإن على الإنسان أن يعمل، قائلاً[١]:

ألا كـم تُـسْمِعُ الـزمن العتابـا   تُخاطِبُـه ولا يـدري الخطابـا

أتطمـع أن يـرد عليـك إلفـاً   ويبقي مـا حييت لـك الشبابا

ألـم تـرَ صـرفه يبلـي جديـداً   ويتـرك أهـل ذي الـدنيا يبابـا

وإن كـان الثـواء عليـك داءً   فبرؤك في نـوىً تمطـي الركابـا

وهَمُّـك هـم مرتقـبٍ أمـوراً   تـسيح علـى غرائبهـا اغترابـا

وإنّ أخـا الحزامـة مـن كـراهُ   كحَـسو مُـروّع الطيـر الثغابـا

فتـى يـستطعم البـيض المواضـي   ويستـسقي اللهـاذم لا الـسحابا

فصَرّف في العُلـى الأفعـال حزمـاً   وعزماً إن نحـوت بهـا الـصوابا

وكُن فـي جانـب التحـريض نـاراً   تزيـد بنفحـة الـريح التهابـا

وفي الحضّ على العزم والعمل يقول ابن حمديس في موضع آخر[٢]:

عوّل على العزم إن العـزم منقطـع   عنه الخمول، وموصول به الأمـل

---

(١)ديوان ابن حمديس، ص١٤-١٥.

(٢)ديوان ابن حمديس، ص٣٥١.

وفي هذا يقول في موضع آخر[١]:

أمْطِتــك همّتــك العزيمـــة فاركـــب لا تُلقـــين عـــصاك دون المطلـــب

وقد حَثّ الشعراء على ضرورة تنبيه أفهام الشباب، وتعهّدهم بالتعليم من الصغر، وفي هذا يقول ابن خفاجة[٢]:

نَبّـــه وليـــدك مِـــن صـــباه بزجـــره فلربمـــا أعفـــى هُنـــاك ذكـــاؤه

وانْهَـــرْهُ حتـــى تـــستهل دموعـــه فـــي وجنتيـــه وتلتظـــي أحـــشاؤه

فالـــسَّيفُ لا تـــذكو بكفّـــك نـــاره حتـــى يـــسيل بـــصفحتيه مـــاؤه

وقد تأتي في ثنايا الوصايا الاجتماعية، وصايا صحية في الحمية والتداوي، وهـي وإن جاءت في سياق دعابة أو ما شابه فإنها تقدم نصيحة، ومنه وصية لسان الدين ابن الخطيب لابن زمرك قائلاً[٣]:

يـــا طالبـــاً مـــن جـــاره إســـكرفجاً هـــذا يُخَبِّـــر أن جوعـــك فاجـــا

ويـــدل أنـــك قـــد نبـــذت تـــداوياً ويـــدل أنـــك قـــد تركـــت علاجـــاً

خف من غِذاءٍ غير معتـــدلِ القـــوى واحـــذر طعامـــاً يُفـــسدِ الأمـــشاجا

والشاعر الأندلسي إذ يتصدى فيوصي الناس، فهو يصدر في ذلك عن تجربة شخصية، فهذا ابن جبير الرّحالة يوصي بعدم الاغتراب عن الأوطان قائلاً: [٤]:

لا تغتـــــرب عـــــن وطـــــن واذكـــــر تـــــصاريف النّـــــوى

أمـــــا تـــــرى الغـــــصن إذا مـــــا فـــــارق الأصـــــل ذوى

---

(١) ديوان ابن حمديس، ص٥٣٧.

(٢) أبو اسحق إبراهيم بن خفاجة شاعر كبير وكاتب مُجيد، تكسب من الشعر. انظر السيد مصطفى غازي، ديوان ابن خفاجة، منشأة المعارف، الاسكندرية، د.ط، ص١٠١.

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص٢١٧.

(٤) ديوان ابن جبير، ص٣٠.

وفي هذا المعنى أوصى ابن خاتمة الأنصاري قائلاً[١]:

الـــزم مكانـــك بـــالتغرُّب ذلـــة   لو لم تنـل غيـر القـرار نجاحـاً

وقال فيه أيضاً[٢]:

مثـــواك عِــزُّك فاحـــذر أن تفارقـــه   فعـــزَّةٌ واغتـــرابٌ قلّمـــا اتفقـــا

وفي حين أوصى ابن جبير وابن خاتمة بعدم السفر عاد ابن خاتمة الأنصاري ينـــاقض نفـــسه ويوصي بالسفر لما له من فوائد كثيرة في غير موضع قال[٣]:

جُـــل فـــي بـــلاد الله نحـــو العـــلا   ولتجتنـــــب أهـــــلاً وأوطانـــــا

وفي موضع آخر قال[٤]:

ســـافر تنـــل بالأســـفار كـــل عـــلا   وتـــشف الـــنفس مـــن مآربهـــا

ومَن الوصايا في معاملة الأصدقاء قول أبي بكر يحيى بن مجبر الموحدي[٥]، يحث على الترقق في معاملتهم والحفاظ على الود معهم:

إذا مـــــا الـــــصديق نبـــــا ودُّه   فـــــلا يـــــكُ ودُّك بالمنقلـــــب

وعاتبـــــه لكـــــن رويـــــداً كمـــــا   تَقُصُّ علـــى الطفـــل عنـــد اللعـــب

وليس هذا المعنى بجديد، فقد سبقه إليه بشار بن برد في قوله:

جفـــا ودّه فـــازورّ أو مَـــلّ صـــاحبه   وأزرى بـــــه ألا يـــــزال يعاتبـــــه

---

(١) ديوان ابن خاتمة، ص١٣٧.

(٢) ديوان ابن خاتمة، ص ١٣٧.

(٣) ديوان ابن خاتمة، ص١٣٧.

(٤) المرجع السابق، ص١٣٧.

(٥) ديوان أبو بكر يحيى بن مجير الموحّدي (بحتري الأندلس)، تحق: يوسف عيد، دار الفكر العربي– بيروت، ص٦٧.

وقد نصح الشاعر الأندلسي بالتمسّك بالصديق الوفي إن وجد، وفي هذا يقول الحكيم(١):

إذا ألفيـــــت حــــــراً ذا وفــــاء وكيـــف بـــه فـــدُونك فاغتنمـــه

ويوصي ابن حمديس بإكرام الأصدقاء والاكتفاء بمودتهم دون التحرّي عنهم؛ إذ قد يتحرّى المرءُ عن صديقه عند خصم له فيسمع ذمّه وشتمه، قائلاً(٢):

أكــــرم صــــديقك عــــن ســـؤا لـــك عنـــه واحفـــظ منـــه ذِمِّـــه

فلربمــــــا اســــــتخبرت عــــــن ـــــه عَـــدُوّه فـــسمعت ذمّـــه

وفي معاملة الأصدقاء يوصي عبد الكريم القيسي في التحفظ منهم، والتزام الصمت عندهم؛ لأنهم يتقلبون ويتبدّلون، وفي هذا يقول(٣):

إن شئت من دنياك حـسن تخلــص لا تطمئن إلــى صــديق مخلــص

وإذا تخالطـــــه نهـــــارك عُــــدَّه في النّاس كالمجذوم أو كـــالأبرص

والزم ســكوتك عنــده وإذا اقتــضى منك الكلام بمـــا اقتــضاه تَــرَبّصِ

وانظر محاسِــنه التــي يزهــو بهـــا ويتيـــه إعجابـــاً بعـــين الأحـــوص

إنّ الــــصديق ليــــستحيلَ تَغَيّــــراً فيجـــيء مِـــن عدوانـــه بملخّـــص

وفي هذا يقول في موضع آخر(٤):

صاف الصديق وكن منه على حــذر وعُدَّه مثل ما قد عِفت مِــن قــذَرِ

---

(١) ديوان الحكيم، ص١٤٥.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص٤٨١.

(٣) ديوان عبد الكريم القيسي، ص٤٤٣.

(٤) ديوان عبد الكريم القيسي، ص٤٥٩.

أقلـــل كلامـــك لا تكثـــر بحـــضرته وصُمّ سمعك عمّا قـــال مِـــن هَـــذَر

إنّ الـــــصديق إذا أبـــــدى تغيُّـــــرَه لم يُبْقِ مما بــــه يـــأتي ولـــم يـــذر

وفي التحذير من الأصدقاء يقول ابن وكيع[١]:

احــــــذر عــــــدوّك مـــــرّةً واحـــذر صـــديقك ألـــف مـــرّة

فلربمـــــا انعكـــــس الـــــصديق فكـــــان أبـــــصر بالمُـــــضَرّة

وفي التحفّظ من الناس كتب عبادة إلى عروة بن محمد بن عبادة وقد كان فقيهاً فاضـــلاً بجامع قرطبة يوصيه قائلاً[٢]:

لا تطمـــــئنّ إلـــــى أحـــــد وإذا فعلـــــت فـــــلا تَعُـــــد

واحـــبس متاعـــك مـــا اســـتطعت فـــإن ذاك مـــــن الرشـــــد

واقلـــــل مـــــن الاخـــــوان إن الأرض نــــــارٌ تَتّقـــــــد

لا تلــــــق إلا حاســـــــداً أو شـــــامتاً أو منتقـــــــد

فـــــارفع أمـــــورك كلّهـــــا للواحـــــد الفـــــرد الـــــصمد

فالنــــاس قـــد فـــسدوا فمـــا فـــيهم علـــى مـــن تعتمـــد

وفي مخالطة الناس ومعاملتهم يوصي الفقيه أبو محمد غـــانم ابـــن الوليـــد الأندلـــسي المخزومي المالقي بعدم التسامح مع البغضاء يقول[٣]:

ولا تـــسامح بغيـــضاً فـــي معاشـــرةٍ فقلّمـــا تـــسعُ الـــدنيا بغيـــضين

---

(١) أبو يحيى الغرناطي، جنة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى، تحق: صلاح جرار، دار البشير، عمان، ١٩٨٩، ج٣، ص٧١.

(٢) ابن خميس، أدباء مالقة، ص٣٠٣.

(٣) نفخ الطيب، ج٤، ص٢٨.

وفي العشق يوصي الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد الأندلسي المخزومي المالقي[١]:

صَـــيِّر فـــؤادك للمحبـــوب منزلـــةً　　　　سَـــمُّ الخيـــاط مجـــالٌ للمحبيَّنـــا

ومن الوصايا الاجتماعية، وصايا في المعاملات بين الناس، يصدر فيها الموصي عـــن تجربة عميقة مكّنته من معرفة الناس،وسبر أغوارهم، وكشف أحوالهم، وتبـــيّن حقيقـــتهم مـــن زيفهم.

فهذا الأعمى التطيلي[٢] استدل ببصيرته على أمور عجز المبصرون عـــن استكـــشاف كنهها ومعرفة حكمها ، فلكم يخدع البصر صاحبه ويغريه ومن ثم يكتشف خذلان بصره لـــه ، وقلّما تخدع البصيرة صاحبها، فيقول[٣]:

تناصُر الشيب فـــي فوديـــه خـــذلان　　　　إن الزيادة في النقـــصان نقـــصان

فـــلا تُغْـــرّ بعـــين ينظـــرون بهـــا　　　　فإنمـــا هـــي أحـــداق وأجفـــان

كم مقلة ذهبت فـــي الغـــي مـــذهبها　　　　بنظرة هـــي شـــان أو لهـــا شـــان

رهن بأضـــغاثِ أحـــلام إذا هجعـــت　　　　وربمـــا حلمـــت والمـــرء يقظـــان

فـــانظر بعقلـــك إن العـــين كاذبـــة　　　　واسمع بحسّك إن الـــسمع خـــوّان

ولا تقـــل كـــل ذي عـــين لـــه نظـــر　　　　إن الرعاة ترى ما لا ترى الـــضان

---

(١) نفخ الطيب، ج٤، ص٢٨.

(٢) الأعمى التطيلي: أبو جعفر وأبو العباس أحمد بن عبدالله بن هريرة القيسي، يعرض شعره لحياته الحزينة فقد أصيب بالعمى مذ كان صغيراً.

انظر: عبد الحميد الهرامة، الأعمى التطيلي ، حياته وأدبه، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ١٩٨٣، ص١٥-٨٦.

(٣) ديوان أبو العباس الأعمى التطيلي، ص١٣٨.

والشاعر في هذا يوازن بين حالين ليقنع المتلقي بخبرته الخاصة، فهو لا يكتفي بتقديم النصح بل يسوق الحجج والبراهين المقنعة لتلقى نصيحته الاستساغة والقبول ، فلا تبصر كل عين الحقيقة ، وليس كل ذي عينين مبصرا .

وفي مخالطة الناس ينصح لسان الدين بن الخطيب باليقظة والتنبّه، فالناس يرقبون المرء عن كثب، فعليه أن يعاشرهم، وليأكل طعامهم، ويلبس لباسهم، وليحتط منهم، وليحذرهم وليعد شركه ليتصيدهم قبل أن يوقعوا به ، وليقتصد في أموره كلها، وليتنبه ممن يدنو متملقا بغية الفتك به على حين غفلة، يقول(١):

لا تَحْسب الناسَ في نومٍ، فأعينهم ... ترنو إليك فعاملهم بإجمال

وكُل طعامهم، والبس لباسهم ... وانصب لصيدهم أشراك محتال

وخُذ مِن الأمر بعضاً، واقتصد وأفق ... وانظر لنفسِك في جيش وفي مال

وكُن حذوراً ولا تُغفِل مكيدة مَن ... يدنو إليك، وينوي فتك مغتال

وفي التعامل مع الآخرين يوصي الصفاقسي بألا يطلب الإنسان الإنصافَ ممن لا يقيم الحق على نفسه، وألاّ يتوقع الإنسان وُدّاً ممن يرى أن الناس محتاجة إلى درهمه وديناره يقول(٢):

لا تطلب الإنصاف من امرى ... لا يوجب الحَقَّ على نفسه

ولا تُرَجّى الوُدّ ممن يرى ... أنّك تحتاج إلى فِلسِه

ومن الوصايا في التعامل مع النساء يرى أبو عبدالله ابن الحداد الأندلسي أن يخون الرجل عهد المرأة التي تخونه ، وفي هذا يقول:(٣)

خُنْ عهدها مثل ما خانتك منتصفاً

وامنح هواها بنسيان وسلوان

---

(١) ديوان ابن الخطيب، ج٢، ص٥١٤-٥١٥.

(٢) ديوان علي الصفاقسي، ص٣١٥.

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن الحداد، محمد بن أحمد بن عثمان القيسي، سكن المرية واختص ببني صمادح، ديوان أبو عبدالله بن الحداد، ص٩٢.

ويوصي الغزال بعدم الكلف بوصل النساء لأن مَن يفعل ذلك لا عقل له يقول:[١]

يـــا راجيـــاً وُدَّ الغـــواني ضَـــلَّة ففـــؤاده كلفـــاً بهِـــنّ مُوَكَّـــل

لا تكلفَـــنَّ بوصـــلهنّ فإنمـــا الـــ كلف المُحِبُّ لهـن مَـن لا يعقـلُ

وابن حمديس يوصي الشيخ بالابتعاد عن صغيرات السِن قائلاً[٢]:

فـــلا تُخـــضب مـــشيبك للغـــواني فتغنـــى عنـــه ناعمـــةً وتـــشقى

فشاهد زور خـضبك لـيس يعطـي بباطلـــه مِـــن العـــادات حَقّـــا

فـــلا تهـــو الفتـــاة وأنـــت شـــيخٌ فأبعدُ وصـلُها مِـن صـيد عنقـا

فهو يوصي الكهول بعدم إخفاء ملامح كبر سنهم، وإخفاء أمارات الشيخوخة، وأبرزهـا المشيب لأن الأيام كفيلة بفضحه وبيان زوره، وليتخذ من النساء من تناسب عمره وسنه وليبتعد عن الصبايا.

وفي الترفّع عن جواب السفيه يقول ابن جبير[٣]:

تنزّه عن العـوراء مهمـا سـمعتها صيانة نفس فهـو بـالحرّ أشـبه

إذا أنـت جاوبـت الـسفيه مـشاتماً فمن يتلقى الـشتم بالـشتم أسـفه

والشاعر الأندلسي لا يقف عند التحذير من الداء بل يمضي ويصف الداء، إذ ينصح بالابتعاد عن السفهاء، ويدفع إلى الاعتماد على الحكماء وآرائهم وفي هذا يقول ابن حمديس[٤]:

ســارع إلــى الحَــقِّ وعــوّل علــى قـــول حكـــيم بـــارع الحكمـــة

---

(١) ديوان يحيى بن الحكم الغزال، ص٩٢-٩٣.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص٣٣٩.

(٣) ديوان ابن جبير، ص١٠٢.

(٤) ديوان ابن حمديس.

ومن وصاياهم في التعامل مع الناس، يدعو الحكيم إلى اعتزال، الناس وأن يعيش المرء فرداً ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فإن لم يستطع فليكن ذلك وفقاً لمحاذير معينة يسوقها في قوله(١):

ولم يَبْقَ في الباقين حافظ خُلّة فَعِش واحداً ما عِشْتَ تنجُ وتَسْلَمِ

فَلَستَ ترى إلا صديقاً لموسر حسوداً لمجدود عَدُوّاً لمعدم

وكنت إذا استبدلت خِلاً بغيره كمستبدل من ذئب قفر بأرقم

فجانبهم ما اسطعت واقبل نصيحتي ومن لم يطع يوماً أخا النصح، يندم

فإن لم يكن بد من الناس فالقهم ببشر وصُن عنهم حديثك واكتم

فمن يلقهم بالبشر يحمد بفعله من يلقهم بالكبر يعتب ويذمم

وفي التحذير من الناس ومخالطتهم، نظم الفقيه أبو بكر المحاربي قائلاً(٢):

كُنْ بذيبٍ صائدٍ مستأنساً وإذا أبْصَرْتَ إنساناً فَفِر

إنّما الإنسان بَحْرٌ، ما لَهُ ساحِلٌ فاحذره إيّاك الغَرَرْ

واجْعَلِ النّاسَ كشخصٍ واحد ثُمّ كُنْ مِن ذلك الشخص حَذِرْ

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من مغالاة وتعميم غير أنها تُعَبّر عمّا يراه قائِلُها.

---

(١) ديوان الحكيم، ص١٤٣.

(٢) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج٣، ص٦٣٨.

وتأتي الوصايا في المعاملات مع الأعداء أيضاً وفي هذا يوصي ابن خاتمة بضرورة مداراتهم قائلاً(١):

عَـدوّك داره مـا اسْـطَعْتَ حَتّـى　　　يعـود لـديك كالخِـلِّ الـشفيق

فمـا فـي الأرض أردى مِـن عَـدوٍّ　　　ولا في الأرض أجدى من صـديق

وقد وصّى الشعراء الطلاب ودَلّوهم على ما ينبغي لهم من العلوم حتى يرتقوا في سماء المجد، وفي هذا قال علي الغراب الصفاقسي(٢):

ألا كـلُّ علـم إن أردت عزيـزه　　　يعود ذليلاً طول فهمـك لا يكـدي

عليـك بأسـرار البلاغـة بعـد أن　　　تنال أصول النحو بـالعزم والجَـدِّ

فترقى سماء المجـد عِـزّاً ورفعـة　　　وتبلغ في عليـاك منزلـة الـسعد

ولم يَبْخَل الشعراء الأندلسيون على قُرّائهم بخبرتهم ومعرفتهم بشؤون الحيـاة، فنـراهم ينصحونهم ويعظونهم في شؤون الحياة كلها، فهذا ابن خاتمة ينصح الـبخلاء الـذين ينفقـون أعمارهم في جمع المال بالإقلاع عن هذا محذراً إياهم من عواقب ذلك، قائلاً(٣):

يا مَن غدا يُنفِقُ العمر الثمـين بـلا　　　جدوى سوى جَمْع مالٍ خيفـة العـدم

ارجع لنفسك وانظـر فـي تخلُّـصِها　　　فقد قـذفت بهـا فـي لُجَّـةِ العـدم

---

(١) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص١٢٩.

(٢) ديوان علي الغراب الصفاقسي، ص٣٠٦.

(٣) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص١٣٠.

وهذا ابن الجياب الغرناطي يحضّ الناس على عدم البخل؛ لأن الله هو المنفق يجزي بالإنفاق الجزاء الحَسَن يقول[١]:

يا أيُّها المُمْسِكُ البخيل   إلهك المُنْفِقُ الكفيل

أنْفِق وثِق بالإله تربح   فإنَّ إحسانه جزيل

وقدِّم الأقربين واذكر   ما روى ابدأ بمن تعول

والشعراء إذ أوصوا بذم البخل وتركه أوصوا بالبذل والكرم والعطاء، وفي هذا قولهم[٢]:

أبذل المال لا تبال ببذلِه   قبل ترحاله ونأي مَحَلِّه

إنما المال غيرك ابن سبيل   وَقِري ابن السبيل تجهيز رَحْلِهِ

وهم يحضّون على العطاء مذكرين بأن الله تعالى يُخلِف للمعطي ويبارك له، وفي هذا يقول الشاعر[٣]:

إذا وَجَدْتَ فجُدْ للناس قاطبةً   الحال تفنى ويبقى الذكر أحوالاً

وقد أوصى بعض الأدباء أصدقاءهم وصايا خاصة؛ فقد أوصى الوزير أبو عامر الأشجعي[٤] (ابن شهيد) في أُخريات أيامه في آخر ما قاله من شعر ابن حزم بقوله[٥]:

فمَن مُبْلغٌ عني ابن حزم وكان لي

يداً في مُلِمّاتي وعند مضايقي

---

(١) ابن الجياب الغرناطي، ص٢٠٥.

(٢) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص١٣١.

(٣) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص٣١.

(٤) هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي، وزير كاتب شاعر استوزره المستظهر ثم المعتد بالله. من مؤلفاته رسالة التوابع والزوابع.

(٥) ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في مُلَح أهل الأندلس، تحق: محمد علي شوابكة، دار عمار ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، ط١، ص٢٠١ .

عليـــك ســـلام الله إنـــي مفـــارقٌ

وحسبك زاداً من حبيــب مفــارق

فلا تنسى تــأبيني إذا مــا ذكرتنـــي

إذا غيبــوني كُــلَّ ســهم غُرانــق

وهو يوصي بهذه الأبيات صديقه ابن حزم– وقد شعر بدنو أجله – بأن يشيّعه ويؤبّنه.

المبحث الثالث
الوصايا السياسية

لا يستطيع أي شاعر أن يتصدى للحديث في أمور السياسة ثم لا يتأتى لكل القادرين على الحديث في شؤونها أن ينبروا ليعظوا ويوجهوا، فهي شأن من شؤون الخاصة دون شك، لذا فإننا لا نعثر على كثير من الوصايا السياسية، غير أن ما نعثر عليه في هذا المجال صادر عن صاحب خبرة يستحق البحث والدراسة فعندما ينصح لسان الدين بن الخطيب في هذا الشأن، فإن نصائحه جديرة بالأخذ لأنه لازم الولاة والسلاطين، وخَبر شؤونهم، فهو يقول في قصيدته (المَنْح الغريب في الفتح القريب) [١]:

أهديك من أدب السياسة ما به   تبأى الملوك على الملوك وتفضل

وأول ما يستهان به وصايا للملوك السلاطين الحزم فهو عقال الإمارة والإدارة ، يقول [٢]:

لا تُغفلِ الحزم الذي بعقالِهِ   إبل الإمارة والإدارة تُعْقَلُ

وينصح له بالصمت آخذا العبرة مما فات لما هو آت، يقول[٣]:

واجعل صُماتك عِبرةً فيما مضى   وعليه قِس مِن بعدما يُستَقْبَلُ

ويعظه بألا يُغفِلَ صغائر الأمور لأهميتها؛ إذ ربما نَجم عنهاالأمر الخطير قائلاً[٤]:

والأمْرُ تَحْقِرُه وقد يَنْمي كما   تنمي الجُسُوم على الغِذاء و تَعْبَلُ

فاحذر صغير الأمر ولْتَحْفَل به   وإذا غَفَلْتَ فإنّه يُستَعْجَلُ

---

(١) ديوان لسان الدين،ج٢، ص٥٠٣.

(٢) السابق نفسه، ص٥٠٣.

(٣) السابق نفسه، ص٥٠٣.

(٤) السابق نفسه، ص٥٠٣.

**فالنّـــار أوّل مـــا تكـــون شَـــرَارةً		والغيـــث بَعْـــدَ رذاذِهِ يـــسترسِلُ**

وينصحه بمشاورة أصحاب العقل دون غيرهم فيقول[١]:

**شاور إذا الشورى دَعَتْكَ، أولى النُّهــى		فخَطابُ غيرِ أولي النُّهى لا يَجْمُــلُ**

ويوصيه أن يحكم بين الناس وفقاً لأفعالهم وحسبما يستحقون بالعدل، فإنه متى يعرف به فلن يحاول أحدٌ استمالته، وأن يعطي كل ذي حق حقه، ويقدر الناس حق قدرهم قائلاً [٢]:

**وأجِــز المــسيء إذا أســاء بفعلــه		والمحسنَ الحــسنى جــزاءً يَعْــدِلُ**

**وإذا عَدَلت فــلا الهــوادة والهــوى		مِــن بعــده أبــداً لــديك تؤمَّــلُ**

**ومَـــن اســـتبَحت ذِمـــاره بعُقوبَـــةٍ		فبغيـــره مِـــن بَعْـــدِها يُـــستَبْدَلُ**

**وإذا عَقَــدْتَ فللغنـــي لا للهـــوى		فبكـــل قـــدْرٍ رُتْبـــةٌ لا تُهْمَـــلُ**

ووعظه أن يصون لسانه عن القبيح، فاللسان أحَدُّ من السيف لا يُدْمَلَ جُرحَه، يقول[٣]:

**وصُن اللسانِ عــن القبــيح فرُبّمــا		يمضي اللسانُ بحيثُ ينبــو المَنْــصلُ**

**وإذا جَرَحْتَ فــؤاد حُــرٍّ لــم تُطِــق		إدْمَالـــهُ وبـــأيِّ شـــيءٍ يَـــدْمُلُ**

وأوصى السلطان أن يستمع إلى كل من يحاول أن يعظه ولو كان كاذبا فقد يصدق وهو كذوب، يقول[٤]:

**وأقبَل وصِيّة مَنْ أتــى لــك ناصــحاً		واشكره وهــو الكــاذب المُتحَيِّــلُ**

---

(١) ديوان لسان بن الخطيب، ج٢، ص٥٠٤.

(٢) السابق نفسه، ص٥٠٤.

(٣) السابق نفسه، ص٥٠٤.

(٤) السابق نفسه، ص٥٠٤.

وأن يتثبت في السعاية، ويتحقق منها؛ لأن الأحكام لا تستعاد بعد نفاذها، وفي هذا المعنى يقول(١):

وعلى التثبذت في السِّعاية فاعتمد فمَردُّ أمرٍ فات لا يُستَسهَلُ

وأن يحلم السلطان مع مَن يقترف ذنباً وهو جاهل فالجاهل يعذر بجهله(٢):

وإذا جنى جانٍ تبيّن جَهْلُهُ فاحلُم عليه، فأين مَن لا يجهلُ

وأن يتحرّى ما يقوله الناس عنه،وأن يعرف لأهل السابقة فضلهم ولا ينسيّه المنصب، وفيه يقول(٣):

وارع السوابق، لا تُضِعها إنها دينٌ يلام لأجله مَن يَمْطُلُ

وإذا تَرَحَّل عن جوارك راحِلٌ فانظر بعقلك عنك ماذا ينقل

ولتجعل السِّيَرَ التي رتبتها عيناً تجيء بكل ما يُتَقوَّل

ويعظ السلطان أن يتجلد و ألا يتهاون في الشدائد؛ لأن ضعفه ووهنه يحط من قدره ، ولأن حسن تصرفه فيها يحفظ قدره، يقول(٤):

لا تُبْدِ هوناً في الشدائد إن عَرَت فبقدْر ما تُبديه قدرك يَخْمُلُ

و أوصاه أن لا يدخل بيت مال المسلمين وخزينة الدولة درهما إلا بحقه ، لأن المال عصب الدولة ، ويستعان به على الشدائد ، وعلى صروف الدهر وتقلباته ، كما أوصاه أن يوازن بين المدّخر والمنفق ، وأن يكون كيسا لبقا يدرك مواطن البذل والإنفاق فينفق ، ويعلم متى ينبغي له الإمساك فيمسك، قال(٥):

---

(١) ديوان لسان الدين، ج٢، ص٥٠٤.

(٢) ديوان لسان بن الخطيب، ج٢، ص٥٠٤.

(٣) السابق نفسه، ص٥٠٤.

(٤) السابق نفسه، ص٥٠٤.

(٥) السابق نفسه، ص٥٠٤.

والمــالُ خُــذهُ بحَقّــهِ واعلــم بــأنّ   المــالَ للغــرض البعيــد يُوَصِّــلُ

وازن بـــه مُــؤن الــسياسة وادّخــر   فــضلاً ووازِ بخرجــه مــا يــدخُلُ

والمــنح والمنــع اعتبــر قطاســه   فالبخـــل والتبـــذير ممـــا يُـــرْذَل

وأوصاه بتقوى الله وحسن الخُلق، لأنه ينهى عن الرذائل، وأن يشغل نفسه عن ملــذات الدنيا بما يشغل الحكيم به نفسه، يقول[١]:

وعليــك بــالتقوى وبــالخُلُق الــذي   ينهى النفوس عن القبــيح ويَعْــذِلِ

واشغل عن اللــذات نفــسك بالــذي   نَفْسُ الحكــيم بــه تَلَــذُّ وتُــشْغَلُ

وأن يأخذ رعيته بالعفو واللين، يقول[٢]:

بالعفو خُذ مــنهم ولا تكــشف لهــم   ستراً، فَلَسْتَ على كبيــر تَحْــصُلُ

وأن يحمد الله ويشكره فالله يزيد الشاكرين [٣]:

واشـــكر صـــنيع الله فيـــك فإنـــه   يُنمي ثــواب الــشاكرين ويجــزل

ولسان الدين بن الخطيب إذ يعظ السلطان وينصح له في سياسة الرعية وشؤون الحكم، لا ينسى أن يتأدّب في هذا الوعظ فهو يعي أنه لا يعظ من هو دونه، فيحترز لذلك مُعلياً من شأن المتلقي ومشيداً بحكمته وعلمه وخبرته، قائلاً[٤]:

هذا، وعقلــك فـــي الخلافـــة قــدرُهُ   أسنى، ورأيك في السياسة أفــضل

---

(١) ديوان لسان الدين، ج٢، ص٥٠٤.

(٢) ديوان لسان بن الخطيب، ج٢، ص٥٠٤.

(٣) السابق نفسه، ص٥٠٤.

(٤) السابق نفسه، ص٥٠٤.

ولكنه لا يقلل من شأن وصيته أبداً بل ينوّه بفضلها ويشيد بها قائلاً [١]:

خُذها كما شاء الخلوص كأنها عِقدٌ بألقاب البديع مُفَضَل

أهدى البيانُ بها فرائِد حِكْمَةٍ يبأى الندى بنشرها والمَحْفِل

وقد تَحدّث الشعراء الأندلسيون عن كيفية التعامل مع الملوك والسلاطين وتباينت هذه النصائح بين موص بالإقبال عليهم وناصح بتجنبهم، فابن خاتمة يرى ضرورة الحذر من السلاطين طالما لم تستقر أركان ملكهم بعد، فهم إذ ذاك كالبحر الهائج يخشى ركوبه، وفي هذا يقول ناصحاً[٢]:

خَفِ السلاطن واحذر أن تُلابِسَهُم ما دام أمْرُهُم في المُلْكِ مُضطرِبا

إن الملوكَ بحارٌ في خلائقهم ومَن سما البحرَ، في أهوالهِ، عَطِبا

وهو في موضع آخر ينصح من يريد العز أن يغشَ أبواب الملوك ويدانيهم، فالذل في قربهم عز، يقول[٣]:

إن شئت عِزاً فاغشَ أبواب الملوك ولا تُبَل

فالذل من قبل الملوكِ أجَلُّ من عِزِّ الخَوَل

لكن ثمة من يخالف ابن خاتمة الرأي ، ويرى أن يقف الإنسان عزيزا بين أيدي الولاة ، وألا يريق ماء وجهه على أعتابهم وأبوابهم فهم لفرط كبرهم واختيالهم تخالهم يتمايلون تمايل النشوان ، ويشير ابن جبير إلى قضية عقدية وهي أن التعظيم لا يكون إلا لله وأن تقبيل أيدي الملوك والانحناء لهم قد يورد المرء الشرك والعياذ بالله ، يقول[٤]:

ولا تتواضع للولاة فإنهم مِن الكبر في حال تموج بهم سُكرا

---

(١) ديوان لسان الدين،ج٢، ص٥٠٤.

(٢) ديوان ابن خاتمة، ص١٣٢-١٣٣.

(٣) المرجع نفسه، ص١٣٢.

(٤) ديوان ابن جبير، ص٦١.

وإيّـــاك أن ترضـــى بتقبيـــل راحـــة   فقد قيل فيها إنها السَّجدة الــصغرى

وقد كتب أبو عبدالله محمد بن عبدالله العربي العقيلي في: "الروض العاطر الأنفاس فـــي التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس"(١) تجربته وعصارة ما علمته الحياة .

وأوصى فيها سلطان فاس الشيخ الوطاسي بضرورة اليقظة والتنبّه والاتّعاظ بما جـــرى للسلطان أبي عبدالله محمد الذي زالت بزوال دولته مملكة الإسلام بالأندلس، يقول فيها(٢):

كُنّــا ملوكــاً لنـــا فـــي أرضـــنا دول   نمنا بها تحت أفنـــان مـــن الـــنّعم

فأيقظتنــــا ســـــهامٌ للـــردى صُـــيُبٌ   يُرمى بأفجع حتف مَن بهن رُمـــي

فلا تنم تحـــت ظـــل الملـــك نومتنـــا   وأيُّ ملك بظِـلِّ الملـــك لـــم يـــنمِ

ونصحه لسلطان فاس في البيت الأخير واضح بيّن، فهو يوصيه بالتنبه واليقظة والحذر لئلا يصيبه ما أصابهم .على أن من يتولى فعل النصح للحكام يحترز لئلا يبدو كمن يعلمهم بأنه أعلم منهم، لذا يلجأ الموصي – في مثل هذه الحالة – إلى تبيان فضل المتلقي وعلمه ومنه(٣):

فَلَقَد علمت ولـــن نُبَـــصِّرَك الهـــدى   فلأنت أهدى في الأمـــور وأحـــزمُ

ومِن وعظ الملوك في شؤون الدولة والحكم ما حمله أتباع ابن صمادح إلى المعتمـــد(٤) ينصحونه بقطع دابر المتمادين والمنافقين:

يـــا أيهـــا الملـــك المُعَلّـــى الأعظـــم   اقطـــع وريـــدي كُـــلِّ بـــاغ ينـــئِمُ

فاحـــسم بـــسيفك داء كـــل منـــافق   يبدي الجميـــل وضـــد ذلـــك يكـــتمُ

---

(١) نفح الطيب ،ج٤، ص٥٢٩-٥٣٥. وأزهار الرياض، ج١، ص٧٢-١٠٢.

(٢) انظر نفخ الطيب، ج٤، ص٥٢٨.

(٣) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج١، ص٧٤.

(٤) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج١، ص٧٤.

وفي المقابل فإن الحكام يوصون رعاياهم بالتوقف عن إثارة البلابل والقلاقل والفـتن ، وبمدّ يد الولاء والطاعة ، وقد يأتي ذلك في سياق التحذير والتهديد ، ومِـن ذلـك مـا قالـه المعتمد[1]:

كُفّـوا وإلا فـارقبوا لـي بطـشة يُلقـى الـسَّفيه بمثلهـا فـيَحْلِمُ

(١) ابن خاقان، قلائد العقيان،ج١، ص٧٦.

الفصل الثاني
خصائص الوصايا الشعرية

- التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

ويأتي هذا في مضامين الوصايا الدينية بوجه خاص، ويقل في الوصايا الاجتماعية والسياسية، ويختلف مستوى هذا التأثر فيأتي واضحاً في بعض المواضع كقول محمد بن عبد السلام الخشني[١]:

تَزَوّد أخي مِن قبل أن تسكن الثرى   ويلتف ساق للنشور بساق

إذ يبدو التأثر بقوله تعالى[٢]: "**والتفت الساق بالساق إلى ربّك يومئذٍ المساق**" واضحاً.

وقد يأتي التأثر بالقرآن الكريم في الصورة والتشبيه فابن الجياب الغرناطي يشبه ما تؤمل به النفس صاحبها بسراب بقيعة في قوله ناهياً عن اتباع هوى النفس[٣]:

ولا تعبأنّ بميعادها   فميعادها كسرابٍ بقيعة

وهو ما شبّه الله به أعمال الكافرين في قوله تعالى[٤]: "**أعمالهم كسراب بقيعةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن ماءً**".

وهنا نلاحظ أن ابن شكيل يقتبس اللفظ القرآني "فارتقبهم واصطبر" ولم يخرج المعتمد بن عبّاد و ابن الأبّار عن المعاني القرآنية والنبوية لفظاً تارة ومعنىً تارةً أخرى فالقبول والرضا بالقدر أمر حضّ عليه الشارع الحكيم في مواضع أسلفنا الإشارة إليها.

وعبد الكريم القيسي وهو يوصي الغافل بالتنبه واليقظة والأوبة والتوبة علّ من رفع السموات العلى يكشف الكربة و يغفر الزلة ويمحو الحوبة يذكر بنعم الله وبديع صنعه مقتبساً من معاني وألفاظ القرآن الكريم نحو قوله: "قم للذي عنت الوجوه لوجهه ... فاللفظ والمعنى مقتبسان من قوله تعالى: "**وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً**"[٥].

---

(١) جذوة المقتبس، ١/١١٨.
(٢) سورة القيامة، آية ٢٩-٣٠.
(٣) ديوان ابن الجياب الغرناطي، ص٢٠٤.
(٤) سورة النور، آية ٣٩.
(٥) سورة طه، آية ١١١.

وقوله: "ودحا بسيط ... مستمد من قوله تعالى: "**والأرض بعد ذلك دحاها**"(١).

وكذلك اقتباسه للنص القرآني : "**خلق الإنسان من علق**"(٢).

وبالنسبة للذكر فهو وصية الله لعباده ووصية حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم للمسلمين "**فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا**"(٣) وقوله تعالى: "**فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**"(٤).

والواحد الصمد من قوله عز وجل: "**قل هو الله أحد الله الصمد**"(٥).

وقيام الليل والناس نيام مذكور في قوله تعالى: "**تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا**"(٦).

وقوله : "**قم الليل إلا قليلا...**" (٧) و في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل"(٨) يعني يبكي.

وأوصى القرآن الكريم وحذّر من اتباع الهوى وجعله إلهاً "**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً**"(٩) وقوله تعالى واصفاً المؤمنين الذين يعصون الهوى بغية رضا الله بأن مثواهم الجنة "**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**"(١٠).

وعلي الغراب الصفاقسي يذهب إلى المعنى نفسه ولكن الجياب الغرناطي يقتبس ألفاظاً قرآنية نحو قوله: كسراب بقيعة فهو مقتبس من قوله تعالى : " **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً**"(١١).

---

(١) سورة النازعات، آية ٣٠.
(٢) سورة العلق، آية٢.
(٣) سورة البقرة، آية ٢٠٠.
(٤) سورة النساء، آية ١٠٣.
(٥) سورة الإخلاص، آية ١.
(٦) سورة السجدة، آية ١٦.
(٧) سورة المزمل، آية ٢.
(٨) سنن النسائي ١٣/٣.
(٩) سورة الفرقان، آية٤٣.
(١٠) سورة النازعات، آية ٤٠.
(١١) سورة النور، آية ٣٩.

وابن الجياب الغرناطي يستمد من معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "**أول ما يقضى بين الناس بالدماء**"(١) وهو قوله به "غداً يبدأ الحساب" ويذكر رأي فئة من العلماء تـرى أنّ القاتل لا توبة له ثم يعود مرة أخرى لاقتباس المعنى القرآني "**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهانا**"(٢).

ولسان الدين ابن الخطيب يوصي بالعمل لما بعد الموت وادخار شيء ليوم لا ينفع فيـه الإنسان إلا عمله وكأنما يغرف من نبع النبوة من نحو قول المصطفى صلى الله عليـه وسـلم: "اغتنم خمساً قبل خمس ومنها : حياتك قبل موتك".

وكذلك ابن خاتمة كأنما يشير إلى قوله تعالى: "**وما تدري نفس ماذا تكسب غـداً ومـا تدري نفس بأي أرضٍ تموت**"(٣) حين قال: فما تدري متى يُمضى بعمرك . وعبد الكريم القيسي حين يتحدث عن عدم القدرة على ردّ الموت ونفاذه في البشر يستمد من نحو قوله تعالى: "**أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة**"(٤).

ونلاحظ أن عبد الكريم القيسي يرى بأن الشيب ما هو إلا بمثابة جرس إنـذار وضـوء تحذير لصاحبه بأن ساعة الرحيل قد اقتربت ولحظة الفراق قد أزفت وأن على المرء أن يتنبّـه لذلك كما يحدثنا القرآن عن تنبّه زكريا حين دعا ربه بأن لا يذره فرداً لا ذرية له لأنه استشعر دنو الأجل حين استفحل الشيب برأسه ورقَّ عظمه فقال: "**قال ربِّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً**"(٥) وسبق وأسلفنا الحديث عن الإشارات النبوية والقرآنية التي تحث أولي الشيب أنْ يتنبّهوا فلم يبق من العمر قدر ما مضى وأن الموت لا يفرق بين قوي ولا ضعيف ولا حاكم ولا محكوم فهو أمر محتوم لا مفرّ منه وإنّ سعى المرء واجتهد وركب لذلك سبل الخلاص كلها: "**قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم**"(٦).

---

(١) صحيح البخاري ٢٣٩٤/٥.
(٢) سورة الفرقان، آية ٦٩.
(٣) سورة لقمان، آية ٣٤.
(٤) سورة النساء، آية ٧٨.
(٥) سورة مريم، آية ٤.
(٦) سورة آل عمران، آية ١٥٤.

ويحذو الخشني حذو القيسي وأقرانه من شعراء الأندلس فينهل من قبس النبوة ويقتبس ألفاظ القرآن ومعانيه من نحو قول الله عزوجل "**والتفت الساق بالساق**"(١) وقول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم : "**ما أنا والدنيا إنما أنا والدنيا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها**"(٢).

والحال نفسه عند عبدالله بن محمد وعند ابن سعيد فالحديث عن قصر العمر الذي أقرّه البارئ جل وعلا بقوله: "**قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون. أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا تُرجعون...**" (٣).

ويتحدّث الغزال عن حُسن الخاتمة فيرى أن خير ما يكافأ به المرء أن يختم له بعمل صالح وابن الأبّار يطلب التزوّد من الدنيا للآخرة ويراها – الدنيا – ممراً ومعبراً لدار الخلود والسعيد من تزوّد بأسباب العبور وأعد للأمر عدته وأخذ له أهبته.

ومرج الكحل يقتبس معانٍ قرآنية صرفة ومقاصد نبويّة بيّنة المعالم واضحة الآثار فمراجعة النّفس والتفكّر والتدبّر بالأفعال قبل فوات الأوان أمور حضّ عليها القرآن وحثت عليها سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ونرى مرج الكحل ينهل من هذا المعين أكثر من نحو قوله تعالى:

"**والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون**"(٤) ويحثّ مرج الكحل على المبادرة والتعجيل قبل فوات الأوان وقبل الانتقال إلى الدار الآخرة وقبل ورود القبر حيث لا ينفع مال ولا بنون، والآيات القرآنية زاخرة بهذه المعاني نحو قوله تعالى:

"**واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً**"(٥)، وقوله : "**أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن السخرين أو تقول حين ترى العذاب لو أنّ لي كرّة فأكون من المحسنين**"(٦).

---

(١) سورة القيامة، آية ٢٩.

(٢) سنن ابن ماجة ١٣٧٦/٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية ١١٥.

(٤) سورة آل عمران، آية ٣٥.

(٥) سورة لقمان، آية ٣٣.

(٦) سورة الزمر، آية ٥٦، ٥٨.

وقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "**يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله**"(١).

وكذلك فإن عبد الكريم القيسي لم يجاوز هذه المعاني في الحض على التوبة ونفض غبار المعصية علَّ المرء يستدرك فيما بقي له شيئاً مما فاته والأمير عبدالله بن محمد يستفيد من المعنى القرآني إفادة مباشرة ويستمدّ من نحو قوله تعالى: "**وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب** "(٢).

فالسنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وقد اتكأ الشعراء الأندلسيون في وصاياهم ووعظهم عليها، واستمدوا منها كثيراً من المعاني والقيم، وحضوا على التزام أوامر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم واجتناب نواهيه وضمنوا أقواله عليه الصلاة والسلام في أشعارهم.

فهذا ابن الجيّاب الغرناطي يضمن قوله صلى الله عليه وسلم في الحَضّ على الإنفاق "**اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى وابدأ بمن تعول**"(٣).

في قوله في المعنى ذاته(٤):

وقدّم الأمرَ بين واذكر ما روى ابدأ بمن تعول

والحق أن مثل هذا كثير كثير، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مواضع كثيرة مبثوثة بين ثنايا الصفحات السابقة في التعليق على الوصايا الشعرية ولعله من التكرار أن نعيد ذلك.

٣. التأثر بالشعراء السابقين:

استفاد الشاعر الأندلسي من الإرث الثقافي السابق عليه فَضَمَّن تجربة غيره من الشعراء صراحة تارة وضمناً تارةً أخرى. فقد حرص الشعراء الأندلسيون على ربط إنتاجهم الأدبي

---

(١) صحيح البخاري ٢٣٨٨/٥.
(٢) سورة الزمر، آية ٥٤.
(٣) صحيح البخاري ٥١٨/٢.
(٤) ابن الجياب الغرناطي، ص٢٠٥.

بشعر الشعراء الفحول من المشارقة وسواء أكان ذلك الربط بهدف الإفادة من تجارب الآخـــرين أم بهدف إثبات التفوق والتميّز فإنه ظهر جلياً في أشعارهم بعامّة[١].

فهذا الحكيم ينصح في معاملة الصديق بقوله:

ولم يبق فــي البــاقين حــافظ خُلّــه　　　فعِش واحداً ما عشت تنج وتــسلم[٢]

ثم ينهي ذلك بقول زهير بن أبي سلمى[٣]:

ومن لم يصانع فــي أمــور كثيــرة　　　يضرس بأنيــاب ويوطــأ بمنــسم

وقد تأثر ابن حمديس بالمتنبي[٤] بقوله في فضل الكتاب:

أعزُّ مكان في الــدنا ســرج ســابح　　　وخير جليس فــي الزمــان كتــاب

قد أفاد منه ابن حمديس في قوله[٥]:

وألفيـــتُ الجلـــيسَ علـــى خلافـــي　　　فلـــــست مجالـــــساً إلا كتابـــــا

وقد يأتي التأثر بالشعر واضحاً صريحاً ومنه قول الموصي[٦]:

لا تتــركَن للنـــاس موضـــع تهمـــة　　　واحزُم فَمِثْلُكَ في العظــائم يحــزُم

قد قال شـــاعر كنـــدةٍ فيمـــا مـــضى　　　بيتـــاً علـــى مـــر الليـــالي يُعْلَـــمُ

"لا يسلم الشريف الرفيع مـــن الأذى　　　حتّى يراق علـــى جوانبـــه الـــدَّم"

---

(١) انظر: مصطفى عليان، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص٣٠٤-٣١٤.

(٢) ديوان الحكيم، ص١٤٣.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص.

(٤) ديوان المتنبي، ص.

(٥) ديوان ابن حمديس، ص١٥.

(٦) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج١، ص٧٤.

فاجعلـــه قُـــدوتك التـــي تعتادهـــا   في كل مَن يبغـــي ورأيـــك أحْكـــم

إذ وظّف بيت المتنبي كاملاً في سياق نصه الشعري معتمداً عليه؛ إذ قدّم لـــه بمقدمـــة احتفالية معلناً عن استثماره له في قوله.

- **الوعظ المباشر الذي صُرّح به بلفظ الوعظ ومضمونه:**

ومن ذلك ما صَرّح به القاضي جعسوس بقوله[١]:

ووالله يـــا إنـــسان لـــولا وصـــيةً

لشيخ نصيح كان من خيرة الجـــنس

قول : عبد الكريم القيسي[٢]:

اسمع وصـــيّة ناصَـــحٍ لـــك مـــشفق   يبغي الخلاص لنفـــسك المـــسكينة

ومن ذلك قول ابن الأبّار[٣]:

يـــا شـــقيق الـــنفس أوصـــيك وإن   شقّ في الإخـــلاص مـــا تنتهجـــه

فالشاعر يرى النصيحة للآخرين واجباً دينياً وهذا قول الرسول صلى الله عليـــه وســـلم "**الدين النصيحة**"[٤].

وفي تمثّل ها يقول ابن جبير[٥]:

اســـــمع أخـــــي نـــــصيحتي   والنـــصح مـــن محـــض الديانـــة

---

(١) هو القاضي علي بن عبدالله بن الحسن النباهي البني ، لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص١٥٠.

(٢) ديوان عبد الكريم القيسي، ص٢٣٥.

(٣) ديوان ابن الآبّار.

(٤) صحيح مسلم١/٧٤.

(٥) ديوان ابن جبير، ص٩٨.

- **الوعظ عن طريق التهكم والهزل:**

ونجد ذلك فيما كتبه المعتمد بن عبّاد إلى ابنه الراضي الذي ترك الحرب وانشغل بالعلم فكتب إليه متهكماً هازلاً ينصحه بالتزام الدفاتر والتخلّي عن قيادة الجيش، لأن العلم يقهر الجيوش وأن القلم أشدُّ طعناً في النحور ، وذبّا عن الثغور ، وأن الدواة أحدّ من الحسام، والمعتمد يلجأ إلى التهكم ويتخذ من السخرية سبيلا للنصيحة والوعظ علّها تترك أثرها على فلذة كبده ، فيتدبر ويتفكر ويتعظ ويعتبر، فيقول[١]:

المُلْكُ في طيِّ الدفاتر فَتَخَلَّ عن قَوْدِ العساكر
طُف بالسرير مسلّما وارجع لتوديع المنابر
وازحف إلى جيش المعارف تقهر الحِبْر المقامر
واضرب بسكين الدوا ة مكان ماضي الحدِّ باتر

- **التمهيد بين يدي الوصية**

يسعى الشاعر قبل أن يبثّ المتلقي نصائحه ووصاياه إلى التمهيد بين يدي وصيته بشيءٍ عن خبرته الخاصة التي تجعل منه إنساناً مجرّباً ذا حكمة ودراية تؤهله لنصح غيره، وهو في هذا يُقَدِّم لخطابه الوعظي الإقناعي ويجعل المتلقي مستعداً، وقد فَعَلَ هذا كثير من الشعراء، ومن ذلك قول ابن حمديس في تجربته الخاصة : [٢]

وقفتُ مِن التناقض مستريباً وقد يقف اللبيب إذا استرابا
وفي خلق الزمان طباع خُلف تُمَرِّرُ في فمي النُّغَبَ العذابا
وقد بُدّلت بعد سراة قومي ذئاباً في الصّحابة لا صحابا
وألفيتَ الجليسَ على خلافي فلست مجالساً إلا كتابا
وما ضاقت عليّ الأرض إلا دحوت مكانها خُلُقاً رحابا

فهو اللبيب الذي جَرّب حوادث الدهر التي تجعل العَذب مُرّاً وقد خَبر الأصحاب على اختلافهم فلم يجد جليسا أفضل من الكتاب وتنقل في بلاد الله مما أغنى تجربته.

---

(١) ديوان المعتمد بن عبّاد، ص١٣٨.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص١٥.

فالإنسان يتعلم من خلال التجربة، إذ يكون قبلها جاهلاً وفي هذا يقول ابن حمديس[(١)]:

علمــت بتجربتـــي أمـــوراً جهلتهـــا وقد تُجهل الأشياء قبــل التجــارب

ويفطن الموصي إلى ضرورة أن يبدأ بنفسه ناصحاً وواعظاً لها ومنه[(٢)]:

قعَدْتُ لتــذكير ولــو كنــت منــصفاً لذكرت نفسي فهي أحــوج للــذكرى
إذا لم يكُــن مِنّــي لنفــسي واعظــاً فيا ليت شعري، كيف تفعل في أخرى

كما ينصح عبد الكريم القيسي نفسه بأن تبتعد عن الهوى وتتعظ بما فات قائلاً[(٣)]:

إذا مــا الــنفس مــال بهــا هواهــا لأمـــر مـــا شِـــمالاً أو يمينـــا
أقول لهــا اقــصدي نفــسي وكُفّــي فـــإني قـــد بلغـــت الأربعينـــا
وحسبي مــا مــضى عنّــي وولّــى وأصـــبحت الغـــداة بـــه رهينـــا
فمـــا زال الهـــوى يُـــردي قـــديماً ويـــــورث أهلـــــه داء دفينـــــا

إذ على الموصي أن يتمثل النصائح ويكون نموذجاً حياً يمثلها كما كان الرسول صـــلى الله عليه وسلم يوصي بما يفعل وقد قالت عنه السيدة عائشة: "**كان خلقه القرآن**"[(٤)] وفـــي هـــذا المعنى مدَح ابن هانىء الأندلسي قائلاً[(٥)]:

وأوصـــيته مـــنهم برفقـــك مردفـــاً بجودك معقوداً بـــه عهـــدُك البَـــرُّ
وصاةً كما أوصـــى بهـــا اللهُ رُسْــلَه وليس بأذنٍ أنـــت مُـــسمعها وَقْـــرُ

(١) ديوان ابن حمديس، ص٢٩.
(٢) ديوان لسان الدين، ج٢، ص٤٠٨.
(٣) ديوان عبد الكريم القيسي، ص٤٠٧.
(٤) مسند الإمام أحمد ٩١/٦.
(٥) ديوان ابن هانىء الأندلسي، ، ص١٣٧.

وقد تؤهل الخبرةُ الطويلةُ الموصي ليوصي ويعظ لغيره ممن يتصدون لهذا الأمر فهـذا لسان الدين ابن الخطيب يوصي لمن يوصي غيره فيقول[(١)]:

خُـذ مـن حياتـك للممـات الآتـي — وبـدار مـا دام الزمـان مـواتي
لا تغتـرر فهـو السـراب بقيعـةٍ — قد خودع الماضـي بـه والآتـي
يـا مـن يؤمّـل واعظـاً ومُـذكِّراً — يومـاً ليوقظـه مـن الغفـلات
هلاّ اعتبرت ويا لهـا مـن عبـرة! — بمـدافن الآبـاءِ والأمهـات*

والموصي قد لا يلقي اهتماماً إلى ردة فعل من يتوجه إليهم بالنصح لأنهم قد لا يتفاعلون معه، وكلهم ينصح إرادة منه في ذلك وفي هذا يقول ابن الخطيب[(٢)]:

ولكننـي أهـدي إليـك نـصيحتي — وإن كنتَ قد أهديتها ثم لـم تُجْـدِ
إذا مِقْـوَل الإنـسان جـاوز حـدّه — تحوّلت الأغراض منه إلـى الـضِّدِّ
فأصبح منـه الجِـدُّ هـزلاً مُـذَمَّماً — وأصبح منه الهزل في صوره الجِدِّ

لكن الشاعر ينبه الموصَى ليسمع الوصية قبل أن يلقيها إليه، وهو في هذا يريد لنصحه أن يحقق مقصده ويربأ به عن العبث؛ إذ غاية هذا النص التأثير والاتعاظ والاعتبار ومن ذلك قول عبد الكريم القيسي[(٣)]:

اسمع وَصِـيَّة ناصـح لـك مـشفق — يبغي الخلاص لنفـسك المـسكينة

والموصي إذ يقدم نُصحَه حريصٌ على أن يبين للمتلقي مكانته من نفسه لتكون وصيته أوقع في النفس وأعظم فائدةً وأعمَّ عائدة، ومن ذلك قول ابن حزم[(٤)]:

أوُدُّك وُدّاً لـيس فيـه غـضاضة
وبعض مَـودّات الرجـال سـراب

---

(١) ديوان لسان الدين، ص١٨٧.
* كذا في الديوان، ولعلها "الأمات".
(٢) ديوان لسان الدين، ص٣٣٣.
(٣) ديوان عبد الكريم القيسي، ص٢٣٥.
(٤) ابن حزم، طوق الحمامة، ص٤-٥.

وأمحــضك النُــصح الــصريح وفـــي

الحشا لوُدّك نقش ظــاهر وكتــاب

بل إن الشاعر الأندلسي يرى أنه من الواجب عليه أن ينصح لغيره وفي هذا يقول الشاعر القيسي[(١)]:

بذل النــصيحة واجــبٌ لــك ســيّدي   فأصِخ فَعَنكَ نصيحتي لــم أخْــزُنِ

وقد تأتي النصيحة رداً على سؤال ينهل فيه السائل من خبرة المسؤول، وقد نصح ابن حمديس لمن سأله عن خبرته قائلاً[(٢)]:

فيا سائلي عن أهل ذا العصر دعهــم

فبالفرع منهم يستدلّ على الأصــل

إذا خلل فـــي الحــال منــك وَجَدْتَــهُ

فإيّاك والتعويل مــنهم علــى خِــلّ

يستخدم الموصي الموازنة العقلية ليقنع المخاطَب بما يريد في محاولة منه لحشد طاقاته المعرفية واللغوية في إيصال رسالته، وهو ما تحدّث عنه القرطاجني في الإقناع من أن النفس تتعلق بفعل الشيء واعتقاده لأنه يحس من جهة العقل[(٣)].

فهذا ابن صمادح يحشد الموروث الثقافي وحصيلته المعرفية ليقنع المعتمد بصدق نصحه له ليوقع بابن زيدون فيقول[(٤)]:

إن الملــوك تخــاف مـــن أبنائهـــا   فتُحِلُّ مـــن مهجــاتهم مــا يَحْــرُمُ

ولذاك قيل: الملــك أعقــم لــم يــزل   فيه الــولي يثيــر حربــاً تُــضْرَمُ

---

(١) ديوان عبد الكريم القيسي، ص٣٤٥.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص٣٦٥.

(٣) انظر: القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص١٠٦.

(٤) قلائد العقيان، ج١، ص٧٤.

فاحْسِمْ دواعي كــلِ شَـــرٍّ دونــــه   فالدّاء يــسري إن غــدا لا يُحْــسَمُ
كم سقط زَنْدٍ قد نمــى حتــى غـــدا   بركـــان نـــار كـــلَّ شـــيءٍ يحطِــمُ
وكـــذلك الـــسيل الجُحـــاف فإنمـــا   أولاه طـــلٌّ ثـــم وبـــل يَـــسْجِمُ
والمال يُخْــرج أهلــه عــن حَــدّهم   فـــافهم فإنّـــك بـــالبواطن أفهـــم

ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من احترام لعقل المتلقي؛ إذ ترك الموصي الإفصاح عن ير من مكنون نفسه اعتماداً على حصافة المتلقي وقدرته على التأويل والفَهْم.

الباب الثالث
دراسة تطبيقية لوصيتين أندلسيتين

الفصل الأول

وصية لسان الدين بن الخطيب النثرية لأبنائه

أولاً: نص الوصية[(١)]:

الحمد لله الذي لا يروعه الحِمام المرقوب، إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب، مُلْهم الهدى الذي تطمئن به القلوب، ومُوضِح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب، لا سيّما للولي المحبوب، والولد المنسوب، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب "أم كنتم شُهداءَ إذّ حضَرَ يعقوب" (البقرة-١٢٣) "ووصّى بها إبراهيم بَنِيه ويَعْقوب" (البقرة:١٣٢) والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زرّت على نوره جيوب الغيوب، وأشرف مَنْ خُلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تقتحمه العيون ولا تصِمُه العيوب، والرضى عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل المسلوب، والاقتداء الموصل للمرغوب، والعز والأمن من اللغوب.

وبعد، فإنّي لما علاني المشيب بقمته، وقادني الكبر في رمَّته، وادكرت الشباب بعد أمته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكّد وجوب نصحي لمن لزمني رَعْيُه، وتعلّق بعيني سعيُه، وأمّلت أن تتعدى إليّ ثمرة استقامته وأنا رهين فوَات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري، إن سلك – وعسى أن لا يكون ذلك – على آثاري، فقلت أخاطب الثلاثة الولد، وثمرات الخلد، بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجَمْع تفريقهم، وأن يمن عليّ منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف، فهو ولي ذلك، والهادي إلى خير المسالك:

اعلموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضُّلّال، وبرضاه تُرفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها الشمال – أني مودعكم وإن سالمني الردى، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عدا ممّا بدا، فكيف وأدوات السفر تجمع، ومنادي الرحيل يسمع، ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر، وعجالة مقتصر، ورتيمة[(٢)] تُعقد في خنصر، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر، تتكفّل لكم بحسن العواقب من بعدي، وتوضح لكم من الشفقة والحنوّ قصدي، حسبما تضمّن وعدُ الله من قبلِ وعدي، فهي أرَبُكم الذي لا يتغير وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رفَّ عليكم سقفه، وكأنّي بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل، لا بل

---

(١) نفح الطيب، ج٦، ص٣٩٢-٤٠٥.

(٢) الرتيمة: الخيط الذي يشد في الإصبع لتستذكر به الحاجة.

السام(١) من كل حدب قد نَسَل، والمعاد اللحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم أبناء عسكر مَجْر، وغداً شيوخ مضيعة وهجر، والقبور فاغرة، والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها السداد، وعلامة سلامة الاعتقاد، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملّة، وأئمتها الجِلّة، فهم صَقَلة نصولهم، وفروع ناشئة من أصولهم، وورثتهم وورثة رسولهم.

واعلموا أنّني قطعت في البحث زماني، وجعلت النظر شأني، منذ بَرَاني الله تعالى وأنشاني، مع نبل يعترف به الشاني، وإدراك يسلّمه العقل الإنساني، فلم أجد خابط ورَق، ولا مصيب عرق، ولا نازع خطام، ولا متكلّف فطام، ولا مقتحم بحر طام، إلاّ وغايته التي يقصدها قد نضلتها(٢) الشريعة وسبقتها، وفرَعَتْ ثنيتها وارتقتها، فعليكم بالتزام جادّتها السابلة، ومصاحبة رفقتها الكاملة، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين "ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلَنْ يُقبَلَ منه، وهوَ في الآخرة مِنَ الخاسرين" (آل عمران:٨٥) وقد علت شرائعه، وراع الشكوك رائعه، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين، وابذلوا دونه النفوس فعل المهتدين، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الآبدين، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين، اللهم قد بلّغت فأنت خير الشاهدين.

فاحذروا المَعاطب التي توجب في الشقاء الخلودَ، وتستدعي شَوْه الوجوه ونضج الجلود، واستعيذوا برضى الله من سخطه، وارْبأوا بنفوسكم عن غَمْطه، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل ائتلافكم، واقتنعوا منه بما تيسّر، ولا تأسوْا على ما فات وتعذّر، فإنّما هي دُجُنة ينسخها الصباح، وصفقة يتعاقبها الخسار والرباح، ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجذ عليها، وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها.

واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤهُ عمل، وكل ما سوى الراعي همل، وما بعد الرأس في صلاح الجسم الميت أمل، وتمسكوا بكتاب الله تعالى حفظاً وتلاوة، واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة، وتفكروا في آياته ومعانيه، وامتثلوا أوامره ونواهيه، ولا تتأولوه ولا تغلوا فيه، وأشربوا قلوبكم حب من أنزل على قلبه، وأكثروا من بواعث حبه، وصونوا شعائر الله صون المحترم، واحفظوا القواعد التي ينبني عليها الإسلام حتى لا ينخرم.

---

(١) السام – بتخفيف الميم – : الموت.

(٢) الأزهار و ق: فضلتها؛ ونضلتها : سبقتها وبزتها في الرمي.

الله الله في الصلاة ذريعة التجلة، وخاصة الملّة، وحاقنة الدم، وغنى المستأجر المستخدم، وأم العبادة، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة، والناهية عن الفحشاء والمنكر وإن عرض الشيطان عرضهما، ووطّأ للنفس الأمّارة سماءهما وأرضهما، والوسيلة إلى بل الجوانح ببرود الذكر، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر، وضامنة حسن العشرة من الجار، وداعية للمسالمة من الفجار، والواسمة بسمة السلامة، والشاهدة للعبد برفع الملامة، وغاسول الطبع إذا شانه طَبَع، والخير الذي كل ما سواه له تبع، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة، فالخير عادة، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية، وتؤثروا على العلية الدنية، فإن أوقاتها المعينة بالانفلات تنبس[1]، والفلك بها من أجلكم لا يحبس، وإذا قورنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل، والحكم الذي لا يغيّره الغدو ولا الأصيل، والوظائف بعد أدائها لا تفوت، وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها، وأتبعوها النوافل ما

أطقتموها، فبالإتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحقت الكمال، ولا شكر مع الإهمال، ولا ربح مع إضاعة رأس المال، وذلك أحرى بإقامة الفرض، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض.

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل، وشرط لمشروطها محصل، فاستوفوها، والأعضاء نظفوها، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها، والحجول والغرر فأطيلوها، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها، فالبناء بأساسه، والسيف برئاسه، واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور، وذكر مجهور وغير مجهور، تستغرق الأوقات، وتنازع شتى الخواطر المفترقات، فلا يضبطها إلاّ من ضبط نفسه بعِقال، وكان في درج الرجولية ذا انتقال، واستقاض صدأه بصقال، وإن تراخى قهقر الباع، وسرَقته الطباع، وكان لما سواها أضيع فشمل الضياع.

والزكاة أختها الحبيبة، ولِدتها القريبة، مفتاح السماحة بالعرض الزائل، وشكران المسؤول على الضدّ من درجة السائل، وحق الله تعالى في مال من أغناه، لمن أجهده في المعاش وعنّاه، من غير استحقاق ملأ يده وأخلى يد أخيه، ولا علّة إلاّ القدر الذي يخفيه، وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه. فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها، في اختيار عرضها ونتاجها، واستحيُوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل، وخالفوا الشيطان كلّما عذل، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون، ولا تدرون أين تسلكون، فوهب وأقدَر، وأورد بفضله

---

(١) تنبس: تسرع.

وأصدر، ليرتب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج والدلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، واغتنموا رضاه ببعض نواله.

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زُلفى، الممحوضة لمن يعلم السر وأخفى، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببر القيام، والاجتهاد، وإيثار التهجد على المهاد، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية، ولواحقه الشرعية، فبذلك تحسن الوجوه، وتحصل من الرقة على ما ترجوه، وتذهب قسوة الطباع، ويمتدّ في ميدان الوسائل الباع.

والحج – مع الاستطاعة – الركن الواجب، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فرَض عن ربه وسنّه، وقال ليس لهُ جزاء عند الله إلاّ الجنّة.

ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوّة عليه، وغنى لديه، فكونوا ممن يسمع نفيره ويطيعه، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه.

هذه عمد الإسلام وفروضه، ونقود مهره وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناويكم ظاهرين، وتلقوا الله لا مُبدّلين ولا مُغيرين، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين.

واعلموا أن بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النافع، دليلاً بين يدي السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللّباب، والله عزّ وجل يقول: "قُل هَل يَستَوي الذينَ يعلمُون والذينَ لا يَعْلَمون، إنما يتذكّر أولو الألباب" (الزمر:٩) والعلم وسيلة النفوس الشريفة، إلى المطالب المنيفة، وشَرْطُه الخشية لله تعالى والخيفة، وخاصة الملأ الأعلى، وصفة الله في كتبه التي تُتلى، والسبيل في الآخرة إلى السعادة، وفي الدنيا إلى التجلّة عادة، والذخر الذي قليله ينفع، وكثيره يشفع، لا يغلبه الغاصب، ولا يسلبه العدوّ المناصب، ولا يبتزّه الدهر إذا مال، ولا يستأثر به البحر إذا هال، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله، وقليل وإن جم ماله، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتخطى حسابكم، فالتمسوه لبنيكم، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم، واحملوهم على جمعه ودَرْسِه، واجعلوا طباعهم ثرىً لغرسه، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه، وسهر يهجر له الجفنُ كراه، تعقدوا لهم ولاية عزّ لا تُعزل، وتُحلّوهم مثابة رفعة لا يُحطُّ فارعها ولا يُستنزل، واختاروا من العلوم التي ينفقها الوقت، ما لا يناله في غيره المقت.

وخير العلوم علوم الشريعة، وما نجم بمنابتها المَريعة، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها، فإنّما هي آلات لغير، وأسباب إلى خَيْر منها وخير، فمن كان قابلاً لازدياد، وألفى فهمه ذا انقياد، فليخص تجويد القرآن بتقديمه، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنّة، المهدي كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة، والتدرّب في طرق النظر وتصحيح الأدلة، وهذه هي الغاية القصوى في الملة، ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى، وتقاعد ع ن التي هي أسمى، فليروِ الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه، وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً، ورأياً ركيكاً، ولا يثمر في العاجلة إلا اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسمة الصّغار، وخمول الأقدار، والخسف من بعد الإبدار، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال، وأوفق من قطع العمر في الجدال، هذا ابن رشد قاضي المصر ومُفتيه، وملتمس الرشد ومُوليه، عادت عليه بالسخطة الشنيعة، وهو إمام الشريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، والتورّط في ازدحامها، ولا تخلطوا سامكم بحامها، إلا ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحة، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور، وضَرَمٌ مسجور، وممقوت مهجور.

وأمُرُوا بالمعروف أمراً رفيقاً، وانهوا عن المنكر نهياً حريّاً بالاعتدال حقيقاً، واغبطوا من كان من سِنَةِ الغفلة مفيقاً، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنهُ حتى لا تسلكوا منه طريقاً.

وأطيعوا أمر من ولاهُ الله تعالى من أموركم أمراً، ولا تقربوا من الفتنة جمراً، ولا تُداخلوا في الخلاف زيداً ولا عمراً.

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين، وأهم ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين، وأكرم منسوب إلى مذهبه، ومن أكثر من شيء عُرف به . وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُوارى، والسوأة التي لا يُرتاب في عارها ولا يُتمارى، وأقلّ عقوبات الكذاب، بين يدي ما أعد الله له من العذاب، أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق، ولا يعول عليه إن كان بالحق نطق.

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم، وفي وجه الديانة كُلُوم، ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها، أداء الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة والصيانة، ولا تجزوا من أقرضكم دَيْن الخيانة، ولا توجدوا للغدر قبُولاً، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولاً "وأوفُوا بالعهْدِ إنَّ العَهْدَ كان مسؤولاً" (الإسراء:٣٤) ولا تستأثروا بكنز ولا خَزْن، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في

سهل ولا حَزْن، ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كل أو وزن، والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام، واعلموا أن الإنسان في فُسحة ممتدة، وسبل الله تعالى غير مُنْسدة، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه، ويغمس في الحرام بيده أو لسانه، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سنناً قويماً، وجلى من الجهل والضلال ليلاً بهيماً "ومَن يقتُل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيما" (النساء: ٩٣) واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتد في سبيل السعادة باعه، لو لم تتلقّ نور الله الذي لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت عليه غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يُزنى بأهله، والله قد أعدّ للزاني عذاباً وبيلاً، وقال: "ولا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشةً ومقتاً وساءَ سبيلا".(النساء:٢٢).

والخمر أم الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر، واللهو لم يجعله الله في الحياة شرطاً، والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذي سوّغ وأعطى، وقد تركها في الجاهلية أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد، والله تعالى قد جعلها رجساً محرماً على العباد، وقرَنَها بالأنصاب والأزلام في مباينة السّداد.

ولا تقربوا الربا فإنه من مناهي الدين، والله تعالى يقول: "وذَرَوا ما بقيَ مِنَ الرّبا إن كنتم مؤمنين" (البقرة:٢٧٨) وقال : "فإنْ لَمْ تَفْعَلوا فأذَنوا بحربٍ مِنَ اللهِ ورسولهِ"(البقرة:٢٧٩) في الكتاب المبين، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق يبيحه، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه، والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خدمه، ولا تلجأوا إلى المتشابه إلا عند عدمه، فهو في السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع، والمحافظ عليه مغبوط، وإياكم والظلم فالظالم ممقوت بكل لسان، مجاهر الله تعالى بصريح العصيان، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان. والنميمة فساد وشتات، ولا يبقى عليه متات، وفي الحديث "لا يدخل الجنّة قتّاتٌ"(١).

واطرحوا الحسد فما ساد حسود، وإياكم والغيبة فباب الخير معها مسدود، والبخل فما رؤي البخيل وهو مودود، وإياكم وما يُعتذر منه فمواقع الخزي لا تستقال عثراتها، ومظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها، وتفقّدوا أنفسكم مع الساعات، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات، ورقوا على ذوي الزمانات والعاهات، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في

(١) القتات: النمام الذي ينقل الحديث أو الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون.

البضاعات، وعوّلوا عليه وحده في الشدائد، واذكروا المساكين إذا نصبتم الموائد، وتقربوا إليه باليسير من ماله، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله، وارعوا حقوق الجار، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار، وتعاهدوا أولي الأرحام، والوشائج البادية الالتحام، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر، وتفسد السرّ والجهر، والرُّشا فإنها تحط الأقدار، وتستدعي المذلة والصّغار، ولا تسامحوا في لعبة قمر، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر. وصونوا المواعيد من الإخلاف، والإيمان من حِنْث الأوغاد والأجلاف، وحقوق الله تعالى من الإزراء والاعتساف، ولا تلهجوا بالآمال العِجاف، ولا تكلفوا بالكهانة والإرجاف. واجعلوا العمر بين معاش ومعاد، وخصوصية وابتعاد. واعلموا أن الله سبحانه بالمرصاد، وأن الخلق زَرْع وحصاد، وأقلوا بغير الحالة الباقية الهموم، واحذروا القواطع عن السعادة كما تُحذر السموم. واعملوا أن الخير أو الشر في الدنيا محال أن يدوم، وقابلوا بالصبر أذية المؤذين، ولا تَقارضوا مقالات الظالمين، فالله لمن بُغيَ عليه خير الناصرين، ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت، ولا تضجوا للأمراض إذا أعضلت، فكل منقرض حقير، وكل مُنْقض وإن طال قصير، وانتظروا الفرج، وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرج، وأوسعوا بالرجاء الجوانح، [واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح] ، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء، والجأوا إليه في البأساء والضّراء، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد، ويعذّب الوارد، وأسهموا منها للمساكين وافضُلُوا عليهم، وعيّنوا الحظوظ منها لديهم، فمن الآثار "يا عائشة، أحسني جوار نعم الله، فإنّها قلّما زالت عن قوم فعادت إليهم". ولا تطغوا في النعم فتقصروا عن شكرها، وتلفكم الجهالة بسكرها، وتتوهموا أن سعيكم جلبها، وجدّكم حلَبها، فالله خير الرازقين، والعاقبة للمتقين، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين، والله الله لا تنسوا الفضل بينكم، ولا تُذهبوا بذهابه زينكم، وليلتزم كل منكم لأخيه، ما يشتد به تواخيه، بما أمكنه من إخلاص وبر، ومُراعاة في علانية وسر، وللإنسان مزية لا تُجهل ، وحق لا يُهمل. وأظهروا التعاضد والتناصر، وصِلوا التعاهد والتزاور، تُرْغموا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأوداء، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان، وطاعة النساء شرّ ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه، وإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعظم النساءُ أمراً فاحقروه.

والله الله لا تنسوا مقارضة سجلي، وبروا أهلَ مودّتي من أجلي، ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار، وساعياً لنفسه إن تغلب العدوّ على بلده في الافتضاح والافتقار،

ومعوقاً عن الانتقال، أمام النُّوَب الثقال، وإذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال في الطلب أولى، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرّها، ونفعُها لا يقوم بضرّها، وأعقاب من تقدّم شاهدة، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة، ومن بُلي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال، والتقلل من المال، وليحذر معاداة الرجال، ومزلات الإدلال، وفساد الخيال، ومداخلة العيال، وإفشاء السر، وسكر الاغترار، وليصُن الديانة، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة، ويسير من رضى الله على أوضح الطرق، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان، والزعازع تسالم اللّدْن اللطيف من الأغصان، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً، واستظهاراً على الحظوظ وغِلاباً، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داع إلى الفضيحة والعار، ومن امتحن بها منكم اختياراً، أو جبر عليها إكراهاً وإيثاراً، فليتلقّ وظائفها بسعة صدره، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحْنَة، وهي بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتوقع عزل، وإدالة بإزاء بيع جد من الدنيا بهزل، ومزلّة قدَم، واستتباع نَدَم، ومآل العمر كلّه موت ومعاد، واقتراب من الله وابتعاد، جعلكم الله ممّن نفعه بالتبصير والتنبيه، وممّن لا ينقطع بسببه عمل أبيه.

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها، وتجارتي التي لربحكم أدرتها، فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها، واستغشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة، وبقدر ما أضعتم لآليها النفيسة القيم، استكثرتم من بواعث الندم. ومهما سئمتم إطالتها، واستغزرتم مقالتها، فاعلموا أن تقوى الله فذلكه الحساب، وضابط هذا الباب، كان الله خليفتي عليكم في كل حال، فالدنيا مناخ ارتحال، وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء، دار البقاء، جعلها الله من وراء خطة النجاة، ونفّقَ بضائعها المزجاة، بلطائفه المرتجاة، والسلام عليكم من حبيبكم المودع، والله سبحانه يلأمه حيثُ شاء من شمل متصدع، والدكم محمد بن عبدالله بن الخطيب، ورحمة الله وبركاته.

مناسبة الوصية:

يبدو أن لسان الدين بن الخطيب، وقد شعرَ بدنو أجله أراد أن يَخُصَّ أبناءه – وهو الناظم الناثر – بوصيّة تسير على نحو لطيف البيان، يُضَمِّنها خلاصة تجربته، وقد عركته الأيام، وخبر منها ما شان وزان، فكتب إليهم موصياً واعظاً موجهاً مرشداً، مُبَيِّناً لهم أصول السداد، وسبل الرشاد، وهذا واضح في قوله: "**فإني لما علاني المشيب بقيمته وقادني الكبر في رمته، وادكرت الشباب بعد أمته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رعيه وتعلّق بعيني سعيه، وأملت أن تتعدّى إليّ ثمرة استقامته...**".

والنص السابق يوضح أنها وصية أب حريص مشفق أراد أن يترك لأولاده خلاصة تجربته. وأولاد لسان الدين بن الخطيب ثلاثة هم: عبدالله ومحمد وعلي.

وقد اكتسبت هذه الوصية أهمية لمضمونها الوعظي ومستواها الفني ثم لأنها واحدة من إبداعات لسان الدين بن الخطيب.

ثانياً: تحليل مضمون الوصيّة

يستطيع الناظر في وصية لسان الدين بن الخطيب هذه أن يتبين أجزاءً ثلاثة انتظمتها بعامّة، وهي مقدمة وعرض وخاتمة، ولعل الأجدى أن نعرض لمضمون هذه الوصية وفقاً للطريقة التي اجتباها صاحبها.

المقدمة:

بدأ لسان الدين وصيته بمقدمة تقليدية، سارت على الخُطى المرسومة في أسس الكتابة العربية التي تفتتح بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه الكرام.

وهو إذ بدأ مُقَلّداً في مقدمته بدا مُجَدّداً بأسلوبه الرائق الذي سخّر الكلمات وطوّع العبارات لتمهد منذ الكلمات الأولى لغرضه العام.

لقوله: "الحمد لله الذي لا يروعه الحمام المرقوب إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب... وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب، ولا سيّما للولي المحبوب، والولد المنسوب...".

وهو بهذا يرمي باتجاه هدفه، ويستثمر المساحات الكلامية ليصل إلى غرضه، ولعلّ هذا يعودُ إلى أنّه يكتب إلى أبنائه لينصح لهم ويعظهم، فلا مكان للإطالة في غير الموضوع الرئيسي ثم لا مجال للمقدمات الطويلة والتمهيد.

فهذا خطاب الوالد إلى ولده حيث لا تكلف ولا تورية على أن هذا لا ينفي جمال الأسلوب وحُسن المدخل كما سيأتي.

ولسان الدين بن الخطيب في هذه المقدمة يُصَرّح في الكلمات الأولى بغرضه ألا وهو النصيحة؛ إذ قدّم لذلك ببيان وجوبها مستشهداً عليه بآيات من القرآن الكريم.

ثم ينتقل لسان الدين من ذلك الخطاب العام إلى خطاب أكثر اختصاصاً، إذ ينتقل إلى الحديث عن تقدمه في السن واستشعاره دنو أجله فباتت الوصية لأقرب المقربين واجبة وغدت النصيحة لازمة وأمسى الوعظ حاجة ملحة، وجاءت الوصية جملا قصيرة متتابعة لتخبر عن قصر العمر من ناحية ، وتنبئ عن قرب الأجل من ناحية أخرى وكأن لسان الدين ينبه بهذه الجمل إلى قصر الأعمار وقرب لقاء القهار ؛ إذ يمهد إلى أن ما دفعه إلى كتابتها إنما هو وجوبها من ناحية، وقُرب أجله من ناحية أخرى، ويعلل لذلك بأن رعايتهم – أي أبناءه – منوطة به، وهو إذ يعظهم يأمل أن تتعدّى إليه ثمرة صلاحهم.

ويجنح لسان الدين بعد ذلك إلى الإطالة وتكرار المقالة ، مؤكداً علاقته ببنيه وحرصه عليهم وأمله في صلاحهم، وهو ما يُكسب الوصية – مسبقاً – صفة الخطاب العقلي العاطفي فهي صادرة من رجل مُسِنٍّ و أبٍ حانٍ ومربٍّ عزيزٌ عليه مآلهم. وهو يستند إلى قواعد عقلانية تجعل من خطابه مشروعاً فالموت والفراق حق على العالمين "**ولا أقلّ للحبيب المودع من وصية محتضر**".

وعلى عادة القدماء يمهد لسان الدين بين يدي وصيته بالدعاء للموصى لهم برضى الله وتوفيقه الأمر الذي يجعل هدفه واضحاً مبدئياً ألا وهو الغرض الديني العام. فهو يربط بين العمل الصالح ودنو الأجل، ويذكر متلقيه بقرب آجالهم، وضرورة التزوّد ليوم المعاد،وهو ما أكسب الوصية طابعا دينيا ظل يكتنفها من مبدئها إلى منتهاها ، وبدا حرص صاحبها جليا في تقديم الدين على الدنيا من مستهلها إلى ختامها حاثا ذريته بخبرته وتجربته على التزامها في كافة شؤونهم إن أرادوا الفلاح والنجاح، وهذا بيّن في قوله: "**وكأني بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروعُ بأسل، لا بل السام من كل حدب قد نسل، والمعاد اللحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم أبناء عسكر**

مَجْر، وغداً شيوخ مضيعة وهَجْر، والقبور فاغرة، والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة".

وهو إذ يقدم لهم وصيته يؤكد أهميتها وما تعود به عليهم من خير وحفظ إن هم التزموها لقوله: "**فهي أدبكم الذي لا يتغير وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رفّ عليكم سقفه**".

وهذه دعوة صريحة إلى التمسك بفرائد نوادرها والتزام أوامرها واجتناب زواجرها و الاعتصام بحبلها.

على أنّ لسان الدين أراد لهذه الوصية أن تكون هداية لأولاده الثلاثة وذريتهم من بعدهم أيضاً؛ لذا فهو يوصي بضرورة تناقلها فيما بينهم لقوله : "**فاقتنوها من وصية، ومرام في النصح قصية، وخصّوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا**".

ثم يعود مرة أخرى ليؤكد أهمية وصيته وخالص نصحه لبنيه، وكأنه يرفض الانتقال إلى مضمونه الوعظي قبل أن يتيقن من حصول الاقتناع لدى بنيه بأهمية هذه الوصية، وبصدق غرض الموصي منها وبأنها الطريق إلى نيل الشرف والسعادة في الدين والدنيا لقوله: "**ولتلقنوا تلقينا، وتعلموا علماً يقينا، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي، ويفترش التراب جنبي، ويسح انسكابي، وتهرول عن المصلى ركابي أحرص مني على سعادة إليكم تجلب، أو غاية كمال بسببكم ترتاد وتطلب، حتى لا يكون في الدين والدنيا أورف منكم ظلاً، ولا أشرف محلاً، ولا أغبط نَهَلاً وعَلاً**".

ثم يبين لسان الدين دور الموصى له وما يجب عليه تجاه هذه الوصية الناصحة بقوله: "**وأقلّ ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الآذان، وتستملحوا صُبح نُصحي فقد بان**".

المضمون:

افتتح لسان الدين وصيته على عادته بحمد الله والثناء عليه(١) ثم وَشّحها بلوحة غنيّة من الاقتباسات والإشارات إلى بعض الوصايا التي أوصى بها الأنبياء والأتقياء مقتبساً من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد اقتبس وصية لقمان الحكيم لابنه، وهي وصية عامة في التوحيد، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر والحض على التواضع وترك الكبر بكل مظاهره ثم انتقل إلى وصية (خليل الله وإسرائيله) لأبنائه بضرورة الالتزام بالشرائع السماوية والتسليم لله.

---

(١) وهذه عادة لسان الدين في نثره، انظر على سبيل المثال: ريحانة الكتاب،ج٢، ص٤٣٧، ٤٤٧. وج١، ص٤٥٠، ٤٦٠، ٤٦٥، ٤٧٥ وغيرها.

ثمّ بدأ لسان الدين يُرسي دعائم عامة توجّه إلى التزام شعائر الإسلام، وكُلّ ما جاء من أمور تستند إلى عقل أو نقل، والعمل بهما معاً واجب، وبدأ من الأساس العام وهو التوحيد لقوله: "**فالله واحدٌ أحد، فردٌ صمد، ليس له والد ولا ولد، تنزّه عن الزمان والمكان، وسبق وجوده الأكوان، خالق الخلق وما يعملون، الذي لا يُسأل عن شيء وهم يُسألون...**".

ولسان الدين إذ يبدأ من التوحيد إنما يريد أن ينطلق في بناء وصيته من الأساس الذي إن صلُح صلُحَ بصلاحه البنيان، فانطلق من الركنين الأساسيين وهما: كتاب الله وسنة نبيه.

ثم أوصى أولاده بالعمل بوصايا النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته وأصحابه منبهاً على ضرورة تقديم أولي الفضل من الصحابة، والبعد عن العصبية في ذلك، ولعله يشير في هذا إلى اختلاف أصحاب الفرق في نظرتهم إلى الصحابة رضوان الله عليهم، ثم أوصى بضرورة إجلال الفقهاء والأئمة لأنهم أي العلماء ورثة الأنبياء وحملة كتاب الله تعالى.

وبعد هذا المضمون يعود لسان الدين ليتحدث عن ثقافته العريقة وخبرته العميقة التي جعلته للنصح أهلاً وللثقة محلاً، فقد نال من كل علم حظاً ونهل من كل فن قسطاً، وكلما حلق حظ حيث انطلق في ربوع كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهما المقصد والغاية، والمبتدا والنهاية، وضمانة الفلاح والنجاح .

ولسان الدين يُلح على أهمية وصيته في غير موضع منها فهو يؤكد أهمية الوصية ويؤكد أنها الإرث الثمين الذي يرثه الأبناء عن الآباء لقوله: "**ومتاع الحياة الدنيا أخَسّ ما ورث الأولاد عن الوالدين**".

ثم ينتقل مرة أخرى إلى الوعظ فيستأنف محذراً من اقتراف المهلكات من الذنوب التي تستدعي النار عقاباً؛ فالدنيا متاع زائل، وهي دار غرور. والرابح فيها من التزم عقيدة الإيمان، وهو بعد أن حذّر بنيه من الحرام البيّن حذّرهم من الوقوع في الشبهات. وأوصاهم مكرراً ومؤكداً ضرورة التمسك بكتاب الله فصلاح الدين هو الصلاح، وفساده يفسد ما سواه إذ هو بمثابة الرأس من الجسد ولا قيمة للجسد إذا انفصل عنه الرأس .

وهو إذ يوصي بالتزام كتاب الله يبين لمتلقيه كيفية حمل تعاليمه بأن يتمسكوا به، وأن يتفكروا في معانيه، ويمتثلوا أوامره، ويجتنبوا نواهيه، وألا يتأولوه، ولا يغلو فيه. وأن يشربوا قلوبهم حُبّه وحبّ الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه إلى يوم الدين.

لينتقل إلى التخصيص في حديثه عن التزام الأوامر واجتناب النواهي منطلقاً من

الفرائض، إذ بدأ بضرورة المحافظة على الصلاة أم العبادة، الناهية عن الفحشاء والمنكر، والواسمة بسمة السلامة، والشاهدة للعبد برفع الملامة، داعياً إلى الصبر على أدائها على أحسن وجه، والقيام بذلك في الوقت المفروض، ثم نوه على أهمية النوافل على أن يكون ذلك كله متقناً كاملاً.ولمّا كان السياق يستدعي الحديث عن الطهارة في سياق يبسّط فيه لسان الدين الحديث في الأمور الدينية مفصلاً شارحاً انتقل إلى الطهارة التي هي شرط لصحة الصلاة، فقد أوصى بضرورة تنظيف الأعضاء ومراعاة النية في ذلك فالبناء بأساسه مبيناً أن الصلاة والطهارة والذكر تستغرق الأوقات فلا يؤديها إلا من ملك زمام نفسه، ولسان الدين إذ يذكر الطهارة هنا يبدو منطقياً في عرض أفكاره التي تأتي منسجمة متناسبة منظمة في أماكنها الواجبة لها.

ثم انتقل إلى الزكاة أخت الصلاة التي بها يشكر العبد ربه على إكرامه له وإنعامه عليه بأن رفعه عن درجة السائلين والمحرومين، فوجبت على العبد الغني حقاً للعبد الفقير، فلا يمنع البخل ولا وسوسة الشيطان العبد من أدائها.

ويأتي بعدها ذكر الصوم حتى يستكمل الموصي أركان الفرائض التي بدأ بذكرها فانتقل إلى صيام رمضان مؤكداً صيام الجوارح عن الآثام، ومراعاة القيام، والاجتهاد والتهجد والاعتكاف إن أمكن، فالصيام يكسب الوجوه ضياء ونورا ويجعل للرقة في النفوس حضورا ويورث القلوب من قسوة الطباع نفورا .

ثم انتقل إلى الحج الركن الواجب مع الاستطاعة الذي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره وليس له جزاء عند الله إلا الجنة.

لتحط به الرحال بعد ذلك عند الحديث عن وجوب الجهاد – في سبيل الله تعالى – بالنفس لمن قدر على ذلك فإن عجزوا فعليهم أن يعينوا من يستطيعه وذلك إنما يكون بالمال والقلم.

وبهذا يكون قد أرسى – في أذهان متلقيه – فروض الإسلام، "**هذه عمد الإسلام وفروضه، ونقود مهره وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناديكم ظاهرين، وتلقوا الله لا مُبدّلين ولا مُغيرين، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين**".

ثم انتقل من بعد ذلك إلى الدعوة إلى تعلّم العلم النافع،وأن يبتغي به وجه الله تعالى ويقصد رضاه ، فالعلم مفتاح العمل بما يُرضي الله وهو وسيلة النفوس الشريفة إلى مطالبها على أن يقوم ذلك العلم على خشية الله تعالى، فالعلم هو المغنم الذي لا ينقضي، والعزّ الذي لا يزول،

وهو إذ يوصي بنيه بالعلم يعي أنهم ربما لا يقدرون على تحصيله وهم في هذه السن؛ لذا وجّههم إلى التماسه لبنيهم وحضهم – أي أحفاده – على جمع العلم وتدارسه، والسهر على تحصيله.

وهو إذ يحضُّ على طلب العلم بوجهٍ عام يخصص بعد ذلك ليحض على تعلم علوم الشريعة خاصة فهي أسباب إلى الخير، ثم يخصّ من علوم الشريعة تجويد القرآن ثم حفظ الحديث الشريف، ومعرفة صحيحه من سقيمه، ثم أصول الفقه، ثم المسائل المنقولة عن العلماء والتدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة، فإن قصّر الساعي دون تلك العلوم فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب، وإحكامه ثم ليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه.

ولم يكتف لسان الدين بأن جعل العلوم منازل في الخير؛ إذ جعل من العلوم ما هو شرّ حذّر من الإقبال عليه وذمّه، وذكر الأسباب الموجبة للذم، والعلوم المذمومة من وجهة نظره هي العلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة لأن أكثرها لا يورث صاحبه إلا تشكيكاً وولعا بالجدل، وعلوم الشريعة أحرى بالإقبال عليها.

وهو إذ يذم تلك العلوم يذكّر بما حصل لابن رشد من جرّاء إقباله على تلك العلوم لكنه يستدرك على حكمه على تلك العلوم السابقة، ويستثني من ذلك بعض العلوم النافعة من الحساب والمساحة والزراعة والطب. ثم انتقل بعد ذلك ليحضّ متلقيه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم وجههم إلى إطاعة ولي الأمر، والابتعاد عن الفتن. ثم أوصاهم بالتزام الصدق فهو شعار المؤمنين ، وحذرهم الكذب الذي هو العورة التي ينكشف خباؤها وإن طال إخفاؤها ، وذكر لهم ما أعده الله للكذابين.

ثم انتقل ليوصي بالتزام الأمانة، واجتناب الخيانة، وضرورة أداء الأمانات إلى أهلها، وأن يلتمسوا صالح المسلمين في كل أمر هيّن أو عظيم، وألا يبخسوا الناس أشياءهم . وألا يعينوا على سفك الدماء بالإشارة أو بالكلام أو بالكتابة، فسبل التوبة مفتوحة والدروب مفسوحة بين العبد وربه ما لم يقع في الحرام ويقتل مؤمناً متعمداً .

ثم أوصى باجتناب الزنا وكل ما تعلق به من أخلاق، والاستغناء بما أحلّ الله عما حَرّم، والاتعاظ بما أعد الله للزاني من عذاب وبيل.

ثم دعا إلى اجتناب الخمر التي هي أم الكبائر ومفتاح الجرائم.

كما دعا إلى الابتعاد عن الربا لأنه من مناهي الدين منوهاً إلى أهمية الابتعاد عن

المتشابه لأنه يورد المهالك ، إلا عند انعدام وجود نص محكم في ذلك.

وحذّر من الظلم لأنه ممقوت، ولما فيه من مجاهرة بصريح العصيان، وحذّر من النميمة ودعا إلى اطراح الحسد، والابتعاد عن الغيبة والبخل، ثم دعا إلى الابتعاد عن كل ما يشين "**وإياكم وما يعتذر منه فمواقع الخزي لا تستقال عثراتها، ومظنات الفضائح لا تؤمن غمراتها...**".

ثم حضّ على إفشاء السلام، والعطف على ذوي العاهات، والحرص على الصدق، وضرورة التوكل على الله عزّوجل ، وإطعام المساكين ورعاية حقوق الجار، وصلة الرحم، والابتعاد عن شهادة الزور والرّشا ولعب الميسر، وعدم مخالطة أهل البطالة، والالتزام بالمواعيد، وصون الأيمان من الحنث.

وأن يراعوا أعمالهم ناظرين إلى عواقبها فالله تعالى بالمرصاد، وأنّ الدنيا لا تدوم فلا بدّ من الصبر على الأذى، وحوادث الأيام والمرض، ولا بدّ من انتظار الفرج، والتضرع إلى الله تعالى بالدعاء، واللجوء إليه في البأساء والضرّاء، ومقابلة أنعمه بالشكر.

ثم أوصى بنيه بأمور تنظم علاقتهم، وتحفظ بينهم المودة؛ إذ أوصاهم بألا ينسوا الفضل بينهم، وأن يلتزموا الإخلاص فيما بينهم وأن يبروا بعضهم في السر و العلانية ، وأن يتناصروا ويتعاضدوا ويتزاوروا فيقهروا بذلك أعداءهم ويظهروا عليهم، وألا يتنافسوا في أمور الدنيا، وألا يفسدوا المعروف بينهم بالمن والأذى، وألا يطيعوا نساءهم في تنظيم الأمور فيما بينهم فطاعة النساء شرّ ما أفسد بين الإخوان، وأن يستروا القبيح بينهم، ويحقروا ما تستعظمه النساء.

ثم أوصاهم بضرورة التزام وصيّته وبرّ أهله وأصدقائه، ليرشدهم بعد ذلك إلى تنظيم أمور معاشهم فلا يستهلكوا جميع أموالهم في العقار؛ لكيلا يصبحوا عرضة للمذلة والاحتقار، فهم يعيشون في بلد قلق المهاد لا يصلح إلا للجهاد وهذا يدل على اضطراب الأحوال آنذاك في بلاد الأندلس ، فإذا وقع القدر منعهم جمع المال في العقار من الانتقال على أن الله هو الرازق ولكن السعي أولى.

وأوصاهم بالزهد في مصاحبة أهل الدنيا، والصبر على نوائب الدهر، وأن لا يستكثروا من الأموال، ويحذروا معاداة الرجال ومداخلة العيال، وإفشاء السر. وإن اشتبه على أحد منهم أمر أن يختار أقربه إلى الحق.

ثم حذّرهم من طلب الولاية والسعي وراء المناصب لأن الولاية امتحان واختبار فإن

ابتلى أحد منهم بها اختياراً، أو أسندت إليه إكراهاً أو إجبارا ، فليتلقها بالصبر وسعة الصدر، فهي زائلة وليس لها دوام ، وفتنة تزل بها الأقدام .

الخاتمـــــــة:

ختم لسان الدين وصيته بالدعاء لبنيه بأن ينير الله بصائرهم ويجعلهم من الصالحين الذين ينفع الله بهم وبدعائهم أباهم، وأن يجعلهم سببا في اتصال أعماله بعد انتقاله ، واستمرار أجره بعد ارتحاله .

ثم أعاد على مستمعيه أهمية وصيته، وذكّرهم بفوائدها، وأنها خلاصة تجربة غنية داعياً إياهم إلى الإقبال عليها، والاهتداء بنورها. فإنما يحصلون سعادة الدنيا والآخرة بقدر ما يمضون من فروعها ويقتنون من مناقبها وإلا يفعلوا فإنهم سيندمون.

ثم أشار إلى أن هذه الوصية وإن وجدوها طويلة غزيرة المقال فإنها تقوم على أساس تقوى الله، وأن الدنيا دار زوال وفناء وثواء وانقضاء ، والكيّس من عمل لدار البقاء.

وختم وصيته بتحية الإسلام ، وكانت تحيته مثاراً للغرابة والإعجاب ، فلم يؤد التحية كما ألفتها النفوس بل خرج عن النطاق المألوف والسلام المعروف ليقول :" **والسلام عليكم من حبيبكم المودع، والله سبحانه وتعالى يلأمه حيث شاء من حبيب متصدع ، والدكم محمد بن عبد الله الخطيب ، ورحمة الله وبركاته** " ، وشتان بين تحايا التلاقي والتجميع ، وتحايا التواري والتوديع ، وأي توديع ؟؟ إنه وداع الأهل والأحباب والخلان والأصحاب، وداع خاص يتطلب تحية خاصة كلما وقعت عليها النظرات فاضت العيون بالعبرات ، وتذكرت بأن العمر وإن طال منصرم ، والشمل وإن التأم والتحم متصدع منخرم .

ثالثاً: الدراسة الفنية

اللغـــــة

الجملـــــة:

للموضوع تأثير في تشكيل البنية اللغوية للعمل الأدبي على نحو معين؛ إذ يستدعي استعمال كلمات ذات طابعٍ خاص، ويقضي خَلْقَ مجاورات ومحاورات بين الألفاظ(١)، ولعل هذا ما تكشف عنه اختيارات لسان الدين اللغوية، إذ يقع اختياره على الجملة الفعلية لتؤدي معاني الوصية وتنهض بمضمونها، فقد استخدم خمسمئة وسبعة وعشرين فعلاً تراوحت بين الماضي والمضارع والأمر، وهو ما وضع الوصية في جَوّ من الحركة والانفعال فأكسبها بذلك أبعاداً عاطفية أكثر.

ثم إنّ لسان الدين إذ يختار الجملة الفعلية يركز على الجملة الشرطية، وهو اختيار منسجم مع الغرض العام الذي يقدم نصيحة بالتزامها وتحققها يتحقق الخير لصاحبها فإن لم يتحقق الشرط تعذّر تحقق الجواب؛ فقد استخدم سبعاً وثلاثين جملة شرطية، وهو الأمر الذي يستحوذ على أذهان المتلقين الذين حُفّزوا واستُنْفِرَت عقولهم بإثارة الشرط لتلقي الجواب ومن أمثلة ذلك:

- **مَنْ رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلِق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار.**
- **ومَنْ امتُحن بها منكم اختياراً، أو أجبر عليها إكراهاً وإيثاراً، فليتلقَّ وظائفها بسعة صدره.**
- **ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق.**

ثمّ إنّ البنية الفعلية في الوصية تتراوح بين الأمر والنهي غالباً؛ إذ نقع على تسعة وتسعين فعلاً أمرياً، وأربعة وثلاثين فعلاً مسبوقاً بنهي.

وهذا كله يَصُبُّ في صالح المضمون الوعظي المتأرجح بين "اِفعل ولا تفعل" وهذا يضع

(١) انظر: عدنان حسين قاسم، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، مؤسسة علوم القرآن بعجمان ودار ابن كثير بدمشق، ط١، ١٩٩٢، ص١٥٨.

المتلقي في جوّ عام يَحُضُّ على امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ولعل هذا أدعى إلى الاتعاظ وتلبية ما يدعوهم إليه والدهم.

الثنائيات اللغوية:

لمّا كان مِن النادر أن تُترجم واقعة ذهنية برمز واحد(١)، فإن لسان الدين لم يكتف بهذا التنوع الغني على مستوى الجملة الفعلية؛ فقد حشد طاقات لغوية تتكئ على المفرد أيضاً؛ إذ نقع على اثنتين وخمسين مفردة متضادة في المعنى من مثل:

المعروف – المنكر.

صحيح – سقيم.

الآخرة – الدنيا.

السـر – الجهر.

الخيـر – الشر.

محرم – حلال.

سهل – حَزن.

الأمانة – الخيانة.

وغيرها، وهو أمر تقتضيه طبيعة المضمون الذي يأمر ببعض الأفعال فيحبب المتلقي إليها ويرغّبه فيها عن طريق ذكر مزاياها وعواقبها المحمودة، وفي المقابل يُنَفّر من مخالفتها ومن اقتراف ما يغايرها من الأفعال فيبغضها إلى المتلقي، ويُنَفّره منها عن طريق ذكر مساوئها وعواقبها الوخيمة، وعليه فإن صاحب الوصية لا بُدّ سيختار ألفاظاً وتراكيب من الوجهين: المرغوب فيه والمرغوب عنه وهذا سيقتضي الانزياح إلى الثنائيات اللغوية.

كما أنّ هذا منسجم مع أسلوب لسان الدين في نثره بعامّة إذ لجأ لسان الدين إلى استخدام المحسّنات البديعية في كتاباته ولا سيّما الطباق منها وهذه الوصية شاهد حيٌّ على هذا.

---

(١) انظر: شارلي بالي، علم الأسلوب وعلم اللغة العام، في: شكري عياد، اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم، ١٩٨٥، ص٢٥.

التكـــــــرار:

صَرّح لسان الدين بن الخطيب بهدفه الوعظي غير مرة في مقدمة وثنايا الوصية فهو يورد الكلمة (وصيّة) وجذرها اللغوي ثماني مرات في ثنايا الوصية.

والجذر اللغوي (نصح) ثماني مرات أيضاً، ويستخدم الفعل (وعظ) أيضاً.

وهو إذ يقدم هذا المضمون الوعظي يوجهه وجهة دينية صَرْفة – كما اتضح – لذا فهو يكرر استخدام لفظ الجلالة (الله) اثنتين وستين مرة. الأمر الذي ينسجم مع هدفه، وهو ربط الحياة الدنيا بالآخرة، وهو الذي يدفع إلى إدراك الغاية الأسمى، وهي تحقيق مرضاة الله سبحانه وتعالى.

فلسان الدين إذ يكرر ذلك إنما يُلح على هدفه حتى يبلغ به درجة الرسوخ في أذهان المتلقين. لا غَرو وهي وصية أبٍ ناصح ينشُد لأولاده الفلاح في الدنيا والآخرة. ولا يخفى ما للتكرار من تأثير على نفوس المتلقين.

التّنـــــاص:

القرآن الكريم:

جعل لسان الدين من وصيته لوحةً فنية تستأنس بالموروث الثقافي العام، فهو يقتبس من القرآن الكريم ما يُعَضّد به مبدأ الوصية العام، ومن ذلك أنه استشهد بقوله تعالى:

"**أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب**"(١).

وقوله تعالى: "**ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب**"(٢).

وقوله تعالى: "**وإذ قال لُقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تُشرك بالله إنّ الشرك لظُلمٌ عظيم**"،" **يا بُنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إنّ ذلك مِن عزم الأمور ولا تُصَعّر خدّك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إنّ الله لا يُحبُّ كُلَّ مختالٍ فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير**"(٣).

---

(١) البقرة، ١٣٣.

(٢) البقرة، ١٣٢.

(٣) لقمان، ١٣-١٩.

وقوله تعالى: "**يا بني إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون**"(١).

وقوله تعالى: "**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**"(٢).

وقوله تعالى: "**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكر أولو الألباب**"(٣).

وقوله تعالى: "**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**"(٤).

وقوله تعالى: "**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعَنَه وأعدّ له عذاباً عظيماً**"(٥).

وقوله تعالى: "**ولا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا**"(٦).

وقوله تعالى: "**وذروا ما بقي من الرّبا إن كنتم مؤمنين**"(٧).

وقوله تعالى: "**فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله**"(٨).

وهو إذ يقتبس – فيما مضى عرضه – النص القرآني بلفظه فإنه في عموم الوصية يقتبس النص بمضمونه ومحتواه، إذ يَصْدُر فيها عن معانٍ إسلامية سعياً وراء مرضاة الله وقد ابتدأ وصيته بتلخيص محتواها وتوجيهها نحو هدفها الذي هو حضّ أبنائه على التزام جادّة الشريعة الإسلامية.

والتزاماً بهذا الهدف وصدوراً عن تلك الغاية يقتبس نصوصاً من القرآن الكريم باللفظ تارةً، وبالمعنى تارةً أخرى، ومن ذلك قوله: "**فالله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد تنزّه عن الزمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان**" ناقلاً مضمون سورة الإخلاص.

ومنه قوله في الحضّ على الصلاة "... **والناهية عن الفحشاء والمنكر**..." في إشارة إلى قوله تعالى "**إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**".

---

(١) البقرة، ١٣٢.
(٢) الشورى، ١١.
(٣) الزمر، ٩.
(٤) آل عمران، ٨٥.
(٥) النساء، ٩٣.
(٦) الإسراء، ٣٢.
(٧) البقرة، ٢٧٨.
(٨) البقرة، ٢٧٩.

الحديث النبوي الشريف:

ويقتبس لسان الدين نصوصاً من الأحاديث النبوية الشريفة، وهذا أمر منسجم مع غرضه ومتناغم مع سياق الوصية الوعظي العام؛ فالأحاديث النبوية هي المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله، وهو يفتتح اقتباساته من الأحاديث النبوية بقوله صلى الله عليه وسلم : "**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه**"(١) وهو إذ يورد هذا الحديث يأتي به في سياق الحض على التمسك بأعمدة الشريعة القرآن الكريم والسنة النبوية لينطلق بعد ذلك إلى سلسلة من الاقتباسات مما ورد عنه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :"**لا يدخل الجنة قتات**"(٢) وقوله : "**يا عائشة، أحسني جوار نعم الله، فإنها قلّما زالت عن قوم فعادت إليهم**"(٣).

وهو إذ يذكر الحديث النبوي بلفظه في المواقع السالفة الذكر يشير إليه في مواضع أخرى كقوله : "**والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان**".

ومن ذلك قوله في الحج : "**وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فرض عن ربه وسنّه، وقال ليس له جزاء عند الله إلا الجنة**"(٤).

ومنه قوله في ختام وصيته: "**جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه**" وذلك في إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له**"(٥).

الموروث الثقافي:

ويضمن لسان الدين وصيته عبارات وإشارات من الموروث الثقافي العام، وهو أمر مألوف في سياق النصح والإرشاد، إذ يلجأ عادة إلى الإفادة من تجارب السابقين والاتعاظ بهم الأمر الذي يُغني المضمون الوعظي، ويكسبه بعداً إضافياً يتكئ على التجريب، ويعرض لنماذج بشرية تركت آثاراً وتناقلت الأجيالُ أخبارها، فذهب ما حدث لها مَثَلاً أو ما هو بمثابة المثل، ومن ذلك إيراده لقول الزبّاء حين انتحرت وأبت أن تستسلم لعمرو بن عدي "بيدي لا بيد عمرو"

---

(١) موطأ مالك ٨٩٩/٢.
(٢) صحيح البخاري ٢٢٥٠/٥.
(٣) المعجم الأوسط للطبراني ٣٨/٨.
(٤) صحيح البخاري ٨٦٤/٢.
(٥) صحيح مسلم، ١٢٥٥/٣.

وهو اقتباس مُوَفّق في توجيه المتلقي نحو الحزم واتخاذ نهج قويم في الحياة حتى يفوز ولا يكون من الخاسرين.

ومن هذا استئناسه في الحديث عن تفاضل العلوم، وذم الإقبال على العلوم القديمة والفنون المهجورة بما حدث لابن رشد الفيلسوف، وهو إذ يُذَكّر بذلك يشير إلى حادثة إحراق كتب ابن رشد وما تعرّض له من اتهام واضطهاد، بسبب إقباله على تلك العلوم وهو أي ابن رشد – قاضي المصر وإمام الشريعة، وهذه إشارة ذكية تثمر ما ابتغاه لسان الدين منها؛ إذ لا أدلّ على خطر تلك العلوم على المقبلين عليها مما حدث مع ابن رشد.

يتضح مما سبق أن لسان الدين بن الخطيب حشدَ النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية والتجربة الإنسانية العامة من أجل ترسيخ هدفه إلا أنه لم يخصص للشعر نصيباً من ذلك ولعل مضمون ومناسبة الوصية لا يسمحان بهذا؛ إذ هو يقصد إلى الوعظ والإرشاد، وهي وصية والد لأولاده أراد بها أن يوجههم إلى ما ينفعهم، وما فيه صلاح أمرهم، وهو مدرك أنه في سنٍ متقدمة وأنه يغتنم الفرصة من أجل أن يعظهم.

لقوله :"**إني مودعكم وإن سالمني الردى، ومفارقكم وإن طال المدى وما عدا مما بدا فكيف وأدوات السفر تجمع ومنادي الرحيل يسمع ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر وعجالة مقتصر ورتيمة تعقد في خنصر ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر...**".

ولربما كان الشعر غير ملائم لمثل هذا السياق العام لا سيما وأنه – كما أسلفنا – سياق وعظي يستند إلى الشريعة الإسلامية، وليس أنسب لذلك من إيراد نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية وقد فعل لسان الدين ذلك كما بيّنا.

فهو إذ يُسقط الشعر لا يكون قد انتقص من عناصر الوصية شيئاً فلا يكاد القارىء يستشعر أثر ذلك ، إذ لا يتطلب ذلك المضمون ولا المقام، هذا بالإضافة إلى أن لسان الدين بن الخطيب أراد ــ وهو يوصي أبناءه ــ أن يكون مباشراً يخاطب عقولهم ، وغير خافٍ أبداً أن النثر يخاطب العقول في حين يخاطب الشعر العواطف ، كما أن الشعر ــ في الغالب ــ يبتعد عن الصراحة والمباشرة إلى الكنايات والاستعارات والمبالغات والخيال ، بينما يحتاج الموصي ــ خاصة وهو مفارق مودع ــ إلى الصراحة والمباشرة والوضوح ليضمن سلامة الفهم وحسن الاستيعاب ، والنثر أقدر على ذلك .

وهذه الوصية – لا ريب – تحمل مضموناً قيّماً، ومعاني سامية، وأهدافاً نبيلة، بالإضافة

إلى ما تتمتع به مِن جمال أسلوب، ورقة عبارة، وحسن جُملة؛ إذ جاءت هذه الوصية قطعة نثرية تمثل ذكاء صاحبها وعظيم خبرته، وقدرته على استشراف الأحداث لا أدلّ على ذلك من شعوره المسبق بزوال دولة الأندلس الذي يظهر جلياً في تحذيره لبنيه من اقتناء العقارات فيها وكأنه يستشعر الخطر قبل وقوعه، وهذا يحمل دلالة واضحة على الأوضاع غير المستقرة التي عاشتها الدولة آنذاك، وعلى سوء أحوال الساسة وتقلب الدول إذ حَذّر أبناءه من العمل في السياسة وبيّن أنه أمر غير دائم.

الحق أن هذه الوصية تنطوي على ملاحظ قيّمة ولطيفة شديدة التمثيل لعصر كاتبها وغرضه وثقافته. فهي لوحة جميلة تضمنت كثيراً من الاقتباسات والإشارات التي تعكس ثقافة لسان الدين بن الخطيب واطلاعه على العلوم العقلية والنقلية[١].

(١) انظر في هذا: ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، ١٩٦٧، ص٢٤٢-٢٤٥.

الفصل الثاني

وصية أبي مروان الجزيري الأندلسي الشعرية لأبنائه

أولاً: نص الوصية[١]:

شَحَطَ[٢] المزارُ فلا مَزارَ ونافرت	**عيني الهُجُودَ[٣] فلا خيالٌ يَعْتري[٤]**
وقُصِرْتُ[٥] عنهم فاقتصرتُ على جوى[٦]	**لم يُدْعَ بالواني[٧] ولا بالمُقْصِرِ[٨]**
أزْرَى[٩] بصبري وَهْوَ مشدودُ القُوى[١٠]	**وألانَ عودي وهوَ صَلْبُ المَكسِرِ**
وَطَوى سروري كلّه وتلذُّذي	**بالعَيْشِ طيَّ صحيفةٍ لم تُنْشر[١١]**
ها إنّما ألقى الحبيبَ توهُّماً[١٢]	**بضمير تذكاري[١٣] وعَيْنِ تفكُّري**
سدّت سبيلُ الوصلِ وانحلّت عُرا	**أسبابِهِ[١٤] بحلول يومٍ أزوَر[١٥]**
تركَ القلوبَ صوادياً[١٦] يحدو[١٧] بها	**حادي الردى بين اللّهى[١٨] والحَنْجَر**

---

(١) شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي، تحق: احمد عبد القادر صلاحية، دار المكتبي، ط١، ١٩٩٧، دمشق، ص١٣٢-١٦٥.

(٢) شحط: بَعُد.

(٣) الهجود: النوم.

(٤) يعتري: يأتي إليه.

(٥) قصرت عنهم: مُنعت وكُففت عنهم.

(٦) الجوى: شدة الوجد من عشق أو حزن.

(٧) الواني: الضعيف الفاتر.

(٨) المقصر: المنتهى والمكفّ عن الأمر.

(٩) أزرى بصبري: هونه وأضعفه وعابه.

(١٠) القوى: الطاقة الواحدة من حبل أو وتر.

(١١) يقال: نشر الكتاب : بسطه، وصحف منشّرة، والنشر ضد الطي.

(١٢) التوهم: التخيّل والتمثل.

(١٣) التذكار: التذكّر، ذكره : ذكراً وتذكاراً.

(١٤) الأسباب: جمع سبب: الحبل؛ كل ما يتوصّل به إلى غيره.

(١٥) الأزور: المائلن والناظر بمؤخر عينه، والمقصود: يوم شديد.

(١٦) الصوادي: شديدو العطس.

(١٧) يحدو بها: يسوقها ويحثّها على السير.

(١٨) اللّهى: أقصى الفم، اللحمة المشرفة على الحلق.

فكـــأن نُغْبَـــةَ[١] بَيْنِهـــا[٢] مَزَجَـــت لـــهُ　　　في كأسِهِ حُمَةَ[٣] الــشُّجاع[٤] الأبتــر[٥]

صَفِرَت[٦] يداهُ كم شــجا[٧] مــن طفلــةٍ　　　صفراءَ تُنْسبُ فــي بنــاتِ الأصــفر[٨]

قـــد قـــسّمَ التوديـــع لحـــظَ جفونِهـــا　　　قـــسمينِ بـــينَ مُعـــرّضٍ[٩] ومُعبّـــر[١٠]

وترقرقـــــتْ[١١] عبراتُـــــه فـــــشغلنَهُ　　　عن شغلِهِ بسنا[١٢] الوجوهِ الحُــسّر[١٣]

وأراهُ عِرفانُ[١٤] النوى[١٥] مــن حــسنها　　　مَرْأى مِنَ المــوتِ الــزؤامِ[١٦] الأحمــر

أنّى لنـــا بالوصـــلِ إلا فـــي الكـــرى[١٧]　　　لـــو أنّ وصْـــلَ النـــومِ لـــم يتعـــذّر

فوصــــالُنا لمـــــا تعـــــذَّرَ بـــــالمنى　　　أو بالتحيّـــةِ فـــي مثـــاني أســـطر[١٨]

ولربّمـــــا حمَّلتُهـــــا ريـــــحَ الـــــصّبا　　　وسنا البروقِ المُنْجِـداتِ[١٩] الغُــوَّرِ[٢٠]

---

(١) النغبة: الجرعة.
(٢) البين: البعد والفراق.
(٣) الحمة: سمّ كل ما يلدغ ويلسع.
(٤) الشجاع: الحية، أو الحية الذكر.
(٥) الأبتر: المقطوع الذنب من أي موضع كان، والأبتر – أيضاً – حية خبيثة قصيرة الذنب.
(٦) صفرن يداه: خلت، والمقصود الدعاء عليه، يقال: صفرت إناؤه ومرّ طابه: أي خلا من جسمه روحه، أي مات.
(٧) شجا: أحزن.
(٨) بنات الأصفر: بنات الروم، ويقصد زوجه.
(٩) يقال: نظر إليه معارضة وعن عُرض وعن عُر ُض أي جانب.
(١٠) معبّرك مدمّع، عبرت عينه: دمعت، وعبّر به: أراه عُبر عينه أي ما يسخنها ويبكيها.
(١١) ترقرقت عبراته: جالت دموعه في عينه، أي عن دموعه حجبت عنه وجوه أحبته المشرقة.
(١٢) السنا: الضوء.
(١٣) الحسّر: المكشوفة.
(١٤) عرفان: عرفه عرفاناً ومعرفة: علمه، وأدركه بتفكّر وتدبّر لأمره.
(١٥) النوى: البعد.
(١٦) الزؤام: الكريه، او المجهز.
(١٧) الكرى: النوم.
(١٨) مثاني أسطر: تضاعيفها وطاقاتها، أي بوساطة الرسائل.
(١٩) المنجدات: المرتفعات.
(٢٠) الغوّر: المنخفضات.

فــإذا الـــدّبورُ[١] ســـرتْ يرجْـــع[٢] جَوَابهـــا جاءتْ بأعطرَ من دُخـــانِ[٣] المِجْمَـــر[٤]

ســـقياً[٥] لمثـــواهم[٦] ومَـــن يثـــوي بـــه ولعهـــدِهم إن كـــانَ لـــم يتغيّـــر

يـــا عابـــد الـــرحمن[٧] – جُنّبْـــتَ الأســـى– كم من أسىً لكَ في الجوانح[٨] مضمرِ

تتقطـــعُ الـــصُّعداء[٩] أنفاســـي بـــهِ وتفـــيضُ أجفـــاني وإن لـــم أشـــعُرِ

أبلـــغ عُبيْـــدَ الله صِـــنوكَ[١٠] أننـــي لفراقِـــهِ كالـــسَّادِرِ[١١] المتحيّـــر

عِلقي[١٢] النفيسُ الخطرُ[١٣] أفديهِ مِـنَ الـــ ـــخطبِ الملـمِّ بكـلِّ عِلـقٍ مُخطِـر

ومحمـــــداً لله درُّ محمـــــدٍ زَهْرٌ تفتّحَ غِـبَّ[١٤] مُـزْنٍ[١٥] مُمطـر

وصـــغيركُم عبـــدَ العزيـــز فـــإنني أطوي[١٦] لفرقته جوى[١٧] لـم يَـصْغُر

ذاكَ المقـــدّمُ فـــي الفـــؤادِ وإن غـــدا كُفْواً[١٨] لكم في المنتمى والعُنـصُرِ[١٩]

---

(١) الدّبور: ريح شديدة، سميت في الأصل بذلك لأنها تأتي من دُبُر الكعبة.

(٢) الرجع: جواب الرسالة.

(٣) الدّخان: "وتشدد الخاء" جمع أدخنة: ما يتصاعد من النار إذا لم يتم اشتعالها.

(٤) المجمر: العود نفسه، وكذلك ما يوضع فيه العود.

(٥) سقياً: دعاء بالسُّقيا، يقال: سقياً له ورعياً.

(٦) المثوى: المنزل الذي يقام فيه.

(٧) عابد الرحمن: ابنه عبد الرحمن الذي وجّه إليه القصيدة.

(٨) الجوانح: الأضلاع التي تحت الترائب مما يلي الصدر.

(٩) الصعداء: تنفّس ممدود طويل النفس بتوجّع.

(١٠) الصنو: الأخ الشقيق.

(١١) سدر: تحير من شدة الحرّ أو ما شابهه، وسدر في البلاد: ذهب فيها فلم يثنه شي.

(١٢) العلق: النفيس من كل شيء.

(١٣) الخطر والخَطر: ارتفاع القدر والمنزلة.

(١٤) غبّ: بعد.

(١٥) المزن: السحاب ذو الماء أو المضيء.

(١٦) أطوي: أخفي وأكتم.

(١٧) الجوى: شدة الوجد من عشق أو حزن.

(١٨) الكفء: النظير المساوي.

(١٩) العنصر: الأصل والحسب.

إنّ البنانَ[١] الخمسَ أكفاءٌ معاً — والحليُ دونَ جميعها للخِنصَرَ[٢]
وإذا الفتى فقدَ الشبابَ سما لهُ[٣] — حُبُّ البنين ولا كحبِّ الأصغر
واذكرْ بسرّ[٤] تحيتي من لم أبُحْ — لكَ باسمه ولعلّةٍ لم يُذكر
ممن أودُّ له الردى[٥] لا عن قلىً[٦] — وتودُّ لو أبقى بقاءَ الأدهُر
بأبي الدّرَاريُّ[٧] المنيرةُ في الدجى — للناظرين وأنتِ منها المشتري
عُوّضتُ من رَعيي لها وحَضانتي — رعيي كواكبَ كلّ داج[٨] أخضر[٩]
وبحالِ قُربي من مطالع زُهرها[١٠] — حالَ القصيّ الثاكل[١١] المستعبر
في رأسِ أجْرَدَ[١٢] شاهقٍ عالي الذُّرا[١٣] — ما بعده لموحّدٍ مِن معصرِ[١٤]
يأوي إليه كلُّ أعورَ ناعِبٍ[١٥] — وتَهبُّ فيه كلُّ ريح صَرْصَر[١٦]
ويكادُ منْ يرقى إليه مرّةً — في عمرِهِ يشكو انقطاع الأبهر[١٧]
وتَخالُ معمورَ المنازل حولَهُ — ضِيْقاً وإظلاماً ملاحدَ مقبَر[١٨]

---

(١) البنان: الأصابع.
(٢) الخنصر: الإصبع الصغرى أو الوسطى.
(٣) سما له: ارتفع حتى ظهر.
(٤) السر من كل شيء: جوفه ولبه، والسر ما يكتم في النفس.
(٥) الردى: الهلاك.
(٦) القلى: البغض وأشد الكراهية.
(٧) الدراريّ: الكواكب.
(٨) الداجي: الليل الهادىء الساكن.
(٩) الأخضر: الأسود.
(١٠) الزّهر: المقصود النجوم الزهر، أي المشرقة البيض المنيرة.
(١١) الثاكل: الفاقد الولد.
(١٢) الأجرد: لا نبات فيه، والمقصود الجبل الأجرد.
(١٣) الذروة من الشيء: أعلاه.
(١٤) المعصر: اسم مكان من العصر، أي الملجأ والحرز والمنجاة.
(١٥) الناعب: الغراب، نعب الغراب: صاح وصوّت.
(١٦) الصرصر: من الرياح الشديدة البرد جداً.
(١٧) الأبهر: الوريد في العنق، عرق مستبطن الصلب والقلب متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة.
(١٨) لحد القبر: حفرة، حفر حفرة مائلة عن الوسط.

كنـــــتم لنفـــــسي جنّـــــة فارقتُهـــــا إذ راقَ منهـــا كـــلُّ غـــرسٍ مُثمِـــر
أســقي علــى فقــدِ المتــاع(١) بحــسنِها وظلالهـــا ونـــسيمها المُتعطّـــر
الله يعلـــمُ أننـــي – مُـــذ غُيّبـــت عن نـاظريَّ(٢) – هجـرتُ حُـسْنَ المنظـر
وجَنَيــتُ صــبراً(٣) بعــدها مــرّ الجنــى ومريــتُ(٤) ســمّاً دِرّة(٥) العــيش المــري(٦)
يـــا قـــرّة العينـــين إنـــي كلّمـــا رُمــتُ الــسُّلُوّ(٧) أبــاهُ شــوقي المُعتــري
وطـــوارق(٨) الفِكـــر التـــي عوّضـــتني من صـحتي حـالَ الـسقيم(٩)المُحـضَر(١٠)
بَــرِحَ الخفــاءُ(١١) فمــا لنفــسي حِيلــةٌ فـي الـصبر عنـكَ ولـو دنـا لـم أصـبر
يلتــاحُ(١٢) مــن تلقــاءِ أُفقِــكَ لــي ســناً وأريْــحُ(١٣) مــن ذكــراكَ ريــحَ العنبَــر
وإنِ اســتحالتْ(١٤) عنــدها نفــسي دمــاً تهمي(١٥)به عيني فيُخـضَبُ(١٦)مَحْجِـري(١٧)

---

(١) المتاع: ما يستمتع به الإنسان في حوائجه، وكل ما ينتفع به من عروض الدنيا كثيرها وقليلها، ولعل المقصود زوجه.

(٢) الناظران: العينان أو سوادهما اللذان يُبصر بهما.

(٣) الصبر: عصارة شجر مرة، قال الجوهري: لا يسكّن إلا لضرورة.

(٤) مرى الناقة: مسح ضرعها لتدرّ.

(٥) الدرّة: اللبن، سيلان اللبن وكثرته.

(٦) المري: الهني لم يعقبه ضرر.

(٧) السلو: النسيان وترك الذكر.

(٨) الطوارق: جمع طارق، القادم ليلاً.

(٩) السقيم: المريض.

(١٠) المحضر: الذي نزل به الموت.

(١١) برح الخفاء: ظهر بعد خفاء.

(١٢) يلتاح: يظهر، يبين، يبرز.

(١٣) أريح: أجد نسيم الريح.

(١٤) استحالت: تحوّلت، تغيرت.

(١٥) تهمي: تسيل، تصب الدمع.

(١٦) خضب: غيّر لونه، صبغ.

(١٧) المحجر: ما دار بالعين من العظم في أسفل الجفن.

ويَشي[١] بوجدي أن أرى لك رقعةً ... لبست بخطّك بُردَ[٢]وشي[٣]عَبقري[٤]

ويمرُّ[٥] حبلُ صبابتي إن بنتُمُ ... وطوى سروركُمُ مرورُ الأعصُرِ[٦]

وإذا دنا فطرٌ أو أضحى هاجني ... فبعلّتي[٧] أُضْحي ودمعي مُقْطري

حيرانُ أذّهلُ[٨] عن إجابةِ مَنْ دعا ... باسمي وأوحَشُ[٩] في الجميع الحضّر

خرسُ اللسانِ كأنما مستنطقي ... مستنطقٌ طللاً[١٠] بربع[١١] مقفر[١٢]

ما كنتُ ذا عُذرٍ يبينُ لعاذري ... لو لم يسِمْني[١٣]الشوقُ سِيماً[١٤] المُعْذَر[١٥]

أشكو إلى الرحمن فُرقةَ شملنا ... حَقَباً[١٦] ثلاثاً قد وُصِلْنَ بأشهُر

يا ليتَ شعري هل لشعبِ[١٧] وصالِنا ... مِنْ شاعبٍ[١٨] وليومِهِ من مُبْشِر

بل ليتَ شِعري هل تُلبّى دعوتي ... بإجابةٍ في مجلس أو محضَر[١٩]

---

(١) يشي: ينمّ، يدلّ.

(٢) البرد: ثوب مخطط، أو يخص بالقصب والوشي.

(٣) الوشي: نقشُ الثوب ونمنمته.

(٤) العبقري: الفاخر من كل شيء، الديباج.

(٥) يمرّ الحبل: يحكم فتله.

(٦) الأعصر: جمع صر، وهو كل مدة ممتدة غير محدودة تحتوي على أمم تنقرض بانقراضهم.

(٧) الغلة: حرارة الحزن والشوق، وشدة العطش وحرارته.

(٨) أذهل: أغفل عنه وأنساه لشغل.

(٩) أوحش: أجد وحشة ولم أجد أنساً.

(١٠) الطلل: الشاخص من آثار الديار.

(١١) الربع: المنزل والدار بعينها.

(١٢) المقفر: الخالي.

(١٣) وسمه: علم عليه بكيّ وغيره.

(١٤) السيماء: العلامة التي يعرف بها الشيء، وهي مسهلة الهمزة.

(١٥) أعذر، وأعذِر: أشرف على الهلاك.

(١٦) الحقبة: السنة أو السنون أو مدة لا وقت لها، والمقصود هنا السنة.

(١٧) الشعب: المتفرق، البعد.

(١٨) الشاعب: الجامع، المصلح.

(١٩) المحضر: المشهد، القوم الحضور.

أو هـــل أقلـــبُ نـــاظري فـــأراك فـــي قربـــي توقـــدُ كالـــشهاب[١] الأزهـــر[٢]
أو هـــــل ألـــــذّ مـــــسمعي بـــــتلاوةٍ من فيك[٣] تُفصِحُ عن لقـيطِ[٤] الجـوهر
أو هـــلْ أجلّـــي[٥] خـــاطري بخـــواطرٍ لكَ تقتفي[٦] وهـجَ الـسراج[٧] النيِّـر
أو هـــل أروّحُ عـــن فـــؤادي ســـاعة بمـــشمّك العـــذب المـــشمّ الأذفـــر[٨]
عجبـــاً لقلبـــي يـــوم راعتنـــا[٩] النـــوى ودنـــا وداعُـــكَ كيـــفَ لـــم يتفطّـــر
مـــا خِلتنـــي أبقـــى خلافـــك ســـاعة لولا الـسكون[١٠] إلـى أخيـك الأكبـرَ
إنـــسانُ[١١] عينـــي إن نظـــرتُ وســـاعدي مهما[١٢] بطشتُ وصـاحبي المـستوزَر[١٣]
وإذا شـــكوتُ إليـــهِ شـــكوى راحـــةٍ ذكّرتُـــهُ فـــشكا إلـــيّ بـــأكثر[١٤]
أربـــى[١٥] علـــيّ فحظُّـــه ممـــا بنـــا حظُّ المُعلّى[١٦] مـن قِـداح[١٧] الميـسر
قد شـابَ همّـاً فـي اقتبـالِ شـبابهِ[١٨] إن كنتُ شِـبتُ مـع الـشّباب المُـدْبِرِ

---

(١) الشهاب: شعلة نار ساطعة، والكوكب ينقضّ بالليل.

(٢) الأزهر: الأبيض المستنير المشرق المتلألىء.

(٣) من فيك: من فمك.

(٤) لقيط: ملتقط.

(٥) أجلّي خاطري: أذهب همّه.

(٦) تقتفي: تتبع، أي خواطر مشرقة مضيئة.

(٧) السراج: المصباح.

(٨) الأذفر: ذكي الرائحة طيب إلى الغاية.

(٩) راعه: أفزعه.

(١٠) السكون: الاستئناس.

(١١) إنسان عيني: ناظرها، بؤبؤها.

(١٢) مهما: حرف من حروف الشرط يُجازى بها.

(١٣) استوزر الشيء: حمّله عبأه.

(١٤) بأكثر، أي بأكثر مما شكوت إليه.

(١٥) أربى عليّ: زاد.

(١٦) المعلّى: سابع قداح الميسر، له غنم سبعة أنصبة إن فاز، وعليه غرم سبعة إن لم يفز.

(١٧) القداح: جمع قدح، وهو السهم إذا قوّم وأنى له أن يراش وينصل، وكان العرب في الجاهلية يستقسمون بها في قمارهم.

(١٨) اقتبال شبابه: أوله، ليس عليه أثر كِبَر.

أنحى[١] الزمانُ عليه في حالِ الصّبا ورماهُ من مكروهِهِ[٢] في أبحُر
بغريبةٍ[٣] نكراءَ[٤] من خطرانه[٥] بلقاء أشهرَ من كذاب[٦] المِنبر
هذا ولما يلتبس[٧] بخطوبهِ في موردٍ[٨] منها ولا في مصدر[٩]
إلا بقولِ مدافعٍ عن نفسهِ فيما جنى باغ[١٠] علينا مُفتر[١١]
قدرٌ أتيحَ لنا بلغناهُ معاً ومن العسير بلوغُ ما لم يُقدَر[١٢]
قد ذُقتَ يُتمَ أبيكَ قبلَ وفاتهِ إلا تَعِلّة[١٣] مُرتَّجٍ مُتنظّر
ورُزِئتَ[١٤] عمرَ أخيكَ فهو لحالِهِ كالغابر[١٥] المودي[١٦] وإن لم يغْبُر
فاندُبهما[١٧] حيّينِ وابك عليهما فكلاهُما ميتٌ وإن لم يُقبَر
ابكِ الغريبين اللذين تبدّلا بالدار والأهلينَ أقصى الأدْؤر[١٨]
وابكِ الفقيدين[١٩] اللذين تواريا عن مُخبرٍ خبراً وعن مُستَخبر

---

(١) أنحى عليه: أقبل عليه وقصده بالمساءة، يقال أنحى عليه ضرباً، وأنحى عليه باللائمة.
(٢) مكروه الزمان: شدائده وما يكره منه.
(٣) بغريبةٍ: بصنع قبيح مستغرب.
(٤) نكراء: المنكرة الشديدة، الداهية.
(٥) خطرانه، يقال: خطر الدهر خطرانه وبخطرانه: ضرب ضربانه وبضربانه.
(٦) الكذاب: مصدر كذب.
(٧) يلتبس بخطوبه: يخالطها.
(٨) المورد: الطريق إلى الماء، ومكان الورود، والمقصود المدخل.
(٩) المصدر: الانصراف عن الورود أي المرجع والمخرج.
(١٠) الباغي: المعتدي الظالم.
(١١) المفتري: الكاذب.
(١٢) يُقدر: يُكتب ويُقسم لنا.
(١٣) التعلّة: ما تعلل به النفس لتقرّ وتهدأ.
(١٤) رزء: أصابته مصيبة.
(١٥) الغابر: الذاهب الماضي.
(١٦) المودي: الهالك.
(١٧) الندب: للميت: وهو بكاء على الميت وتعداد لمحاسنه وذكره.
(١٨) الأدؤر والأدوُر: جمع دار.
(١٩) الفقيدان: المفقودان.

وابــكِ الــشّجيين[١] اللــذينِ طوتهُمَــا حالُ الفِراق علــى الجحــيم المُــسعر[٢]
الــــواردين[٣] لهـــا مـــواردَ كلمـــا دعــوا إلــى إصــدارها[٤] لــم تــصدُر
طــال العنــاءُ وجــدَّ[٥] بــالنفس الأســى مُذْ جدّ بــي ســقمي[٦] وطــال تنظُّــري
وأخــافُ فاجئــة المَنــون[٧] فــإن تكُــن فاقن[٨] العزاءَ-فدتكَ نفــسي-واصــبر
إنّ الحِمــام[٩] لمنهــلٌ[١٠] مــا دونــهُ لممتّـــع بـــالعيش مـــن مُتـــأخّر
فعليـــك تقـــوى الله فالزَمهـــا تفُـــزْ وحـــدودَهُ حـــافِظ عليهـــا تُـــؤجر
وصـــراطه فـــاتبع منـــاهجَ سُـــبْلِهِ وســـتورَهُ فاشـــدد عُراهـــا تُـــستر
واعمــل بطاعتــه تنــل منــه الرضــا والقــرب فــي دار الــسلام وتُحْبَــر[١١]
واجعــل إمامــك وحيــه الهــادي وخــذ مــن علــم مُحكمِــهِ[١٢] بحــظ أوفــر
فهــوَ الــشفاء لمــا تكــن[١٣] صُــدورُنا وهُـــوَ الهـــدى والـــذّكرُ للمُـــذَكّر
واعلـــم بـــأنّ العِلـــمَ أرفـــعُ رُتبـــةٍ وأجــلُّ مُكتَــسَبٍ وأســنى[١٤] مَفْخَــر
فاســلُك ســبيل المُقتَنــينَ لَــهُ تَــسُدْ إنّ الـــسيادَة تُقْتَنـــى[١٥] بالـــدّفتر
والعـــالِمُ المـــدعوّ حبـــراً[١٦] إنّمـــا ســمّاهُ باســم الحبــر حمــلُ المَحْبَــر

(١) الشجيان: الحزينان، المشتاقان.
(٢) المسعر: الموقد المهيّج.
(٣) ورد الماء: حضره ليشرب وأشرف عليه.
(٤) صدر: رجع، انصرف عن الشرب.
(٥) جدّ الأمر: اشتدّ.
(٦) السقم: المرض.
(٧) فاجئة المنون: الموت بغتة من غير تقدم سبب.
(٨) اقنِ العزاء: احتفظ به وتعزّ.
(٩) الحِمام: قضاء الموت وقدره.
(١٠) المنهل: المشرب.
(١١) تُحبر: تُسرّ.
(١٢) المحكم: الذي لا تعرض فيه شبهة من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى.
(١٣) تكنّ: تستر وتخفي.
(١٤) أسنى: أكثر رفعةً ومجداً.
(١٥) تُقتنى: تكتسب.
(١٦) الحَبْر والحِبْر: العالم العلامة.

تَسمو[١] إلى ذي العلـم أبـصارُ الـورى وتغضُّ عن ذي الجهلِ لا بل تَزْدَري[٢]
وبـــضُمّرِ الأقـــلامِ يَبلُـــغُ أهلُهـــا مـــا لـــيسَ يبلـــغُ بالجيـــادِ الـــضُمّرِ[٣]
والعلـــمُ لـــيسَ بنـــافعٍ أربابـــهُ[٤] ما لـم يُفِـد عمـلاً وحُـسنَ تبـصّرِ[٥]
فاعمل بعلمِـكَ تُـوفِ[٦] نفـسكَ وزنَهـا لا تـــرضَ بالتـــضييع وزنَ المُخـــسِرِ
سِيّان[٧] عنـدي علـمُ مَـنْ لـمْ يـستفدْ عمـــلاً بـــهِ وصـــلاةُ مـــن لـــم يَطهُـــرِ
واســـتَنّ بالـــسُّنَنِ التـــي ثبتـــت بهـــا صُحُف الرواةِ عـن البـشير المنـذرِ[٨]
صـلى الإلـه عليـه مـا صـدعَ الـدُّجى فجـرٌ[٩] وعرّفنـا بـه فـي المَحْـشرِ
وارفـــض حـــديثات الأمـــور فإنهـــا بـــدعٌ تـــضلل كـــل قلـــب مبـــصر
لا تخـــرُجَنَّ عـــنِ الجماعـــةِ[١٠] إنّهـــا تَـــأتَمُّ بـــالحقِّ الجلـــيّ الأنـــور
واسمع[١١] لوصفي جُملـةً مـن عقـدها إن تلـــقَ معناهـــا بفهـــم تَمهُـــرِ
هـيَ حـدُّ مـا بـينَ الـضلالةِ والهُـدى فـــي ديننـــا والعُـــرف[١٢] دون المنكـــر
جاهـــدْ وصـــلّ مـــع الأئمـــةِ كلهـــم واســـمع لهـــم ولأمـــر كـــلِّ مُـــؤَمّرِ[١٣]
واصـــبر وإن جـــاروا فربّـــة[١٤] فتنـــةٍ تهتاجُهـــا[١٥] أنكـــاد[١٦] جَـــوْرِ الجُـــوَّرِ

---

(١) تسمو: ترتفع وتعلو.
(٢) تزدري تعيب وتحقر وتعنف.
(٣) ضمر الفرس: هُزِل ولحق بطنه.
(٤) أرباب العلم: أصحابه.
(٥) تبصّر: تأمل وتبيّن ما يأتيه من خير أو شر.
(٦) توفي: تبلغ تمام الكيل.
(٧) سيّان: مثلان لا فرق بينهما.
(٨) البشير المنذر: من أسماء رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.
(٩) صدع الفجرُ الدجى: شقّ ظلمته وأشرق.
(١٠) قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية" صحيح البخاري- ٦٦٤٦ [٦/٢٥٨٨].
(١١) يقال: سمعه وسمع له وإليه: أصغى إليه.
(١٢) العُرف: المعروف المستحسن من الأفعال.
(١٣) مؤمّر: من جعل أميراً ووالياً عليك.
(١٤) ربة: ربّ: حرف جر خافض لا يقع إلا على نكرة وتكون للتقليل وللتكثير، وتلحقها التاء.
(١٥) اهتاج: أثار وحرّك وهيّج.
(١٦) الأنكاد: جمع نكد، ورجل نكد: مشؤوم عسر لئيم.

وارضَ القضاء ودِنْ[١] بصرفيهِ[٢] معاً ... للأول العالي الصفات الآخر
وإذا عراك الخير فاشكر وانشر ... وإذا عراكَ الشرُّ فاصبر وابشر
واجعل لوجه الله سعيكَ خالصاً ... يُذخر لك الحظُّ الجزيلُ ويثمُر
من كان يجعلُ في نوافلِ برّهِ ... وفروضه لله شركاً يخسر
وحقيقةُ الإيمانِ قولٌ يقتضي ... عملاً ونيةُ خائفٍ مستشعِر
ويزيدُ بالأعمالِ وهوَ بنقصِها ... في حالِ نقصٍ فاستدِمها واذخر
والوحيُ أجمعُهُ كلامُ الله لا ... خلقٌ كما زعمَ الغويّ[٣] المفتري
والله يبدو في الجِنانِ لأهلها ... فيرونهُ رأيَ العيانِ المُظهِر
من غيرِ أن يُحصُوا حقيقةَ كُنهه[٤] ... أو يُدركوا حدّ الرواء[٥] المُبصر
والحوضُ حقٌّ والشفاعةُ مثله ... لا يُشكلان على امرىءٍ لا يمتري[٦]
وكذلك الميزان يوضعُ قائماً ... بالقسطِ[٧] والزّلفى[٨] لمن لم يخسر
ولكلِّ ميتٍ فتنةٌ في قبرهِ ... يلقى نكيراً عندها معَ منكَر[٩]
ويُثبّتُ الله التقاةَ إذا همُ ... وردوا السؤالَ بقولِ حقٍّ مُصدِر
وذوو الكبائرِ في مشيئةِ ربهم ... إما يعذّبهم وإما[١٠] يغفر

---

(١) دِنْ: أذعن، أطعْ.
(٢) صروف الدهر: نوائبه وحِدثانه.
(٣) الغويّ: الضالّ المنهمك في الباطل.
(٤) الكنه: حقيقة الشيء وجوهره.
(٥) الرّواء: المنظر الحسن.
(٦) يمتري: يشك.
(٧) القسطك العدل.
(٨) الزلفى: القربة والدرجة والمنزلة.
(٩) منكر ونكير: اسما ملكين وهما فتّانا القبور.
(١٠) الجزم ضرورة لحركة الروي، لأن إما أداة شرط غير جازمة.

فاشـــــهد جنـــــائزهم ولا تقـــــنِطهُم[١] وكـــذاك لا تُوجـــب لمـــن لـــم يَكفـــر
وتـــــولّ[٢] أصـــحاب النبـــي وآلـــه وأذِعْ محاســـــنهم جميعـــاً وانـــــشر
وامنحُهُم محـضَ[٣] الـودادِ وقـدّم الـــ ـعُمَرَين[٤] في كـلّ الفـضائلِ وابـدُر[٥]
ويليهمـــا عثمـــانُ ثـــمّ علـــيٌّ الـــ بطلُ المسوّمُ[٦]في الحـروبِ الـشُمّري[٧]
خلفـــاءُ صـــدقٍ وطّـــدوا ديـــن الهـــدى وأروا معالمـــــهُ عيـــونَ النُظّـــر
والـــستةُ الأعـــلامُ مـــن شـــركائهم نُحراءُ[٨] فـي اليـوم الأغـرّ[٩]الأشـهر
واذكـــرهم بالـــسّبق واشـــهد فـــيهم ولهـم بمـا شـهد الرسـولُ وأخبـر
وارغب بسمعك عن أفيكـة[١٠] مـن روى سفكوا الدماء على الثريد[١١] الأعفـر[١٢]
واذكـــر ســـواهم بالجميـــل ولا تكـــن بمقـــــدّمٍ فـــــيهم ولا بمـــــؤخّر
فجمـــيعهم للبـــرّ أهـــلٌ والتُّقـــى قمِـنٌ[١٣] بهـا وبكـلّ صـالحةٍ حـري
ودع المـــراءَ[١٤] فإنـــه داءٌ – بلـــى متقارضـــيهِ– ذو ضـــميرٍ مُـــوْغِر[١٥]
وأشـدُّهُ فـي الـدينِ بـل هـوَ عنـدهم كُفْـرٌ فـإن مـا ريـتَ فيـه تكفُـر
ثـمّ اقـضِ حـقّ الوالـدين وقـم بمـا فـرضَ الكتـابُ عليـكَ منـهُ وابـدُر

---

(١) تقنطهم: تيئسهم. ومن المعروف أن الصلاة على الجنائز إحدى حقوق المسلم على المسلم.
(٢) تولّ: الزم واتبع.
(٣) المحض: الخالص من كل شيء مادة ومعنى.
(٤) العمران: أبو بكر الصديق وعمر الفاروق، رضي الله عنهما وأرضاهما.
(٥) أبدر: أسرع وأسبق.
(٦) المسوّم: المعلم بعلامة يعرف بها.
(٧) الشّمّري: الحاد النحرير، الماضي في الأمور والحوائج.
(٨) نحراء: من نحر الإبل ؛ أي: كرماء.
(٩) اليوم الأغرّ: الشديد الحر.
(١٠) الأفيكة: الكذبة العظيمة.
(١١) الثريد: طعام، وهو ما يهشم من الخبز ويبل بماء القدر والأمراق.
(١٢) الأعفر: الثريد المبيّض، والرمل الأحمر.
(١٣) قمن: حريّ، جدير.
(١٤) المراء: الجدال والاعتراض على مذهب الشك والريبة.
(١٥) وغر صدره عليّ: امتلأ حقداً وغيظاً.

أوسعهما بِرّاً ولا تنهرهما ... وامنحهُما قولاً كريماً واشكر
واخفِض جناحَكَ رحمةً لكليهما ... تمهد لنفسِكَ[١] إن فعلتَ وتذخر
ولكلّ ذي رَحِمٍ وقربى حُرمةً ... ولكلّ جارٍ فارعها وتذكّر
وارغبْ بنفسكَ أن تُعاشرَ غيرَ من ... كرُمت مذاهب نفسه في المعشر
إنّ التعاشُر في الأنامِ تشاكلٌ[٢] ... ولذاكَ يُلقى الجُبن في النطِفِ[٣] الثري
واستصحب الورعَ النزية وجانب الـ ... ـطبعَ[٤] السفيهَ بكلّ حالٍ واهجُر
وإذا دُفعت إلى قرينٍ[٥] فابلُهُ[٦] ... قبل التفاوض[٧] والتشارك واخبرُ[٨]
لا يستفزّكَ[٩] منظرٌ حسنٌ بدا ... حتى تقابلهُ بحُسنِ المخبَر
فالماءُ توردهُ الدّلاءُ[١٠] صفاؤهُ ... ومذاقُهُ للآجِنِ[١١] المُتغيّر
والسيفُ يُكسبُهُ البهاءُ[١٢] حلاوةً ... وفعالُهُ للعاضدِ[١٣] المتأخّر
كم من أخ يلقاكَ منهُ ظاهرٌ ... بادٍ سلامتُهُ وباطنُهُ وري[١٤]
واشرح لكل ملمّةٍ[١٥] صدراً وخُذ ... بالحزمِ في بُهَمِ الأمور[١٦] وشمّر
واستنصح البرّ التقيّ وشاور الـ ... ـفطنَ الذكيّ تكُن ربيحَ[١٧] المتجَر

---

(١) تمهد لنفسك: تجعل لها مكاناً وطيئاً سهلاً، والمقصود أنك ببرك لوالديك تبرّك أبناءك. قال تعالى: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا" الإسراء :٢٤.
(٢) التشاكل: التوافق والتشابه.
(٣) النطف: الرجل المتهم المريب، ونطف الرجل: بشم من أكل ونحوهن وفسد.
(٤) الطبع: شديد الطمع لا يفهم لشدة طمعه.
(٥) القرين: المثل في السن، والمصاحب.
(٦) ابلُهُ: اختبره.
(٧) التفاوض: المشاركة في كل شيء.
(٨) اخبُر: جرّب واعرفه على حقيقته.
(٩) استفزه: ختله حتى ألقاه في مهلكة.
(١٠) الدلاء: جمع دلو، وهو وعاء من جلد أو خشب أو حديد، يستقى به من البئر.
(١١) الآجن: المتغير الرائحة والطعم واللون.
(١٢) البهاء: المنظر الحسن الرائع المالىء للعين.
(١٣) العاضدك المصاب في عضده.
(١٤) وري الزند: اتقدت ناره.
(١٥) الملمّة: النازلة الشديدة من نوازل الدهر وشدائده.
(١٦) بُهَم الأمور: المشكلات من الأمور والمعضلات لا يتجه إليها.
(١٧) الربيح: الرابح.

وإذا أتيتَ نديّ[١] قومٍ فالقهُم ... باسم السلامِ وردْ بحلمٍ واصدُر
واخزن لسانك واحترس من لفظِهِ ... واحذر بوادرَ[٢] غيّهِ ثمّ احذر
واصفح عن العوراءِ[٣] إن قيلت وعُد ... بالحلمِ منكَ على السفيهِ المُعور
وكلِ[٤] المسيء إلى إساءته ولا ... تتعقّب الباغي ببغي تُنتصر
فكفاك[٥] من شرّ سماعك خُبره[٦] ... وكفاك من خيرِ قبولُ المُخبر
وادفع بكظم الغيظِ آفة غيّه ... فإن استخفّك مرةً فاستغفر
واخفض كلامك وامشِ هوناً والق من ... لاقيت طلقاً[٧] لا بخدٍّ أصعر[٨]
وتجنّب الخُيَلاء[٩] إنّ نبيّنا ... كره المخيلة وهي فضلُ[١٠] المئزر
واصدق حديثكَ كل من حدّثته ... واصدع[١١] بحقّ في قضائك تُشكر
واكفل بوعدِكَ وارعَ كلّ أمانةٍ ... واختر لعهدك خطة[١٢] الوافي السري[١٣]
واحفظ يمينك واطو سرّك رقبة[١٤] ... واكتم حِفاظاً سرّ غيرك واستُر
واحفل بشأنكَ إنَ فيه شاغلاً ... لكَ عن سواهُ فاتّعظ وتبصّر
لا تشعُرنّ لعيبِ من لابسته[١٥] ... فتذيعه ولعيبِ نفسك فاشعر

---

(١) الندي: مجلس القوم ومتحدثهم ما داموا فيه، أو مجلسهم نهاراً.
(٢) البوادر: ما يعجل من حدّه في الغضب قولاً أو فعلاً.
(٣) العوراء: الكلمة القبيحة
(٤) كِل: دع.
(٥) كفاك: حسبك.
(٦) الخُبر: العلم بالشيء ومعرفته على حقيقته.
(٧) الطلق: السمح.
(٨) الأصعر: الذي يميل خدّه عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر وكأنه معرض. قال تعالى: "ولا تصعّر خدك للناس ولا تمشِ في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك" لقمان: ١٨-١٩.
(٩) الخيلاء: الكبر.
(١٠) الفضل: الزيادة، أي تطويل المئزر.
(١١) اصدع بحق: اجهر
(١٢) الخطة: الطريقة، المقصد.
(١٣) السري: ذي المروءة والشرف.
(١٤) رقبة: تحفظاً ، تخوفاً.
(١٥) لابسته: خالطته وعرفت دخلته.

كم عائب قد عاب ظاهرَ خلّةٍ[١] ... أمثالها فيهِ وإن لم تظهر

ومنَ العجائبِ والعجائبُ جمّةٌ ... أن يلهَجَ[٢] الأعمى بعيبِ الأعورَ

وابذل لملتمس القِرَى[٣] ازكى القرى ... وتلقّ مقدمَهُ بوجهٍ مُسفِرِ

وإذا سُئلتَ فجُد وإن قلّ الجدا[٤] ... جهدُ المُقلّ إزاء[٥] وُجدِ[٦] المكثر

واشكر لمن أولاك براً[٧] إنه ... حقٌّ عليك فلا تكن بالممتري

وكذلك الدينُ النصيحة فابغها ... للمسلمين وللأئمة تؤجر

لا ترضينّ لمسلمٍ غيرَ الذي ... ترضَى لنفسكَ إن يغبْ أو يحضُرُ

لا تُلفينْ متجسساً ذا غيبةٍ ... متظنناً[٨] يقضي بما لم يخبُر[٩]

لا تظلمن أحداً ولا تُضمر له ... حسداً فتحشر في الفريق الأخسر

لا تشمتنّ بمن رأيتَ بجسمه ... أو حالهِ بلوى ولا تتسخر

ولكل حيّ مدةٌ فإذا انقضت ... بدنو يوم حمامه[١٠] لم يُنظر

فاعمل لذاك اليوم إنك ميّتٌ ... قبلَ المضي إلى المميتِ المُنشر

ما دُمت في مهلٍ، وأعمال التقى ... لك بالحياة مُباحةٌ[١١] لم تُحجر

وارغب عن الدنيا فإنّ وراءها ... يوماً ثقيلاً ذا غِفارٍ[١٢] مُصغِرٍ[١٣]

دارُ التقلّبِ والتغيير إن ترح ... بمسرّةٍ أو نعمةٍ لم تبكر[١٤]

---

(١) الخلة: الخصلة.

(٢) يلهج: يغرى به ويولع ويثابر عليه.

(٣) القرى: إضافة الضيوف.

(٤) الجدا، والجدى: العطية.

(٥) إزاءك ظرف زمان بمعنى حذاء.

(٦) الوجد: الوسع والطاقة.

(٧) أولاك براً: أسداه إليك ابتداء من غير مكافاة.

(٨) المتظنن: الشاك المتهم

(٩) يخبر: يختبر ويجرب. قال تعالى: "ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً". الحجرات.

(١٠) الحِمام: قضاء الموت وقدره.

(١١) مباحة: مسموحة مطلقة غير محظورة.

(١٢) الغفار: ميسم يكون على الخد.

(١٣) مصغر: مذل.

(١٤) لم تبكر: لم تسرع.

تأميلُها غررٌ[1] وصفوُ نعيمها   كدرٌ ومؤثرها عمٍ لم يُبصر
إي[2] والذي تعلو اللغاتُ بذكره   بمنىً وفي عرفاتها والمشعر
فلأي أهليها صفت أو أيّهم   لم يُختَرَم[3] وبأيّهم لم تغدُر
حصّلْ بعقلكَ كمْ لها في طرفةٍ[4]   من مقصدٍ[5] أو مُثبَتٍ[6] أو مشعر[7]
يا رُبّ عالي القدر ممنوع الحمى   متخيّل متشاوس[8] متجبّر
بكرت عليه صروفها[9] في أهبةٍ[10]   وسرت إليه خطوبها في عسكر
فأبحنهُ وحططن ذُروة عزه   وكسونه ثوب الذليل المصغر[11]
ومترّف[12] جذلان يعبق ريحه   طيباً ويرفلُ[13] في النسيج التستري[14]
تركته أشعث[15] ساغباً ذا عيلةٍ[16]   حيرانَ في حال الفقير الموقر[17]
قل للذي يغترُّ من زهراتها   بسراب قاع[18] خادع للمُهجر[19]
قد أنذرتك بحكمها فيمن خلا   أمثالُهُ فانظر لنفسك أو ذر[20]
والرزق أقسامٌ فلا تضمن[21] له   همّاً وقارب[22] في طِلابك تظفَر
ليسَ الحريصُ بزائدٍ في رزقه   فأتمُّ حِليته هَشِيمةُ[23] إذخر[24]

---

(١) الغرور: اسم للتغرير، الخطر.
(٢) إي: حرف جواب مثل نعم. وتخص بالمجيء مع القسم إيجاباً لما سبقه نحو إي والله.
(٣) لم يحترم: لم يمت.
(٤) طرفة العين: إطباق الجفن على الآخر.
(٥) المقصد: المطعون المقتول.
(٦) المثبت: الذي اشتدت به علته فلا يبرح مكانه.
(٧) المشعر: المدمى بطعن.
(٨) المتشاوس: الذي يظهر التيه والنخوة والتكبّر.
(٩) صروف الدهر: نوائبه وشدائده.
(١٠) الأهبة: العُدّة.
(١١) المصغر: الراضي بالذل.
(١٢) المترّف: المنعم البطر الذي أطغته النعمة،والجذلان: الفرح.
(١٣) يرفل: يجر ذيله ويركض برجله ويخطر بيده متبختراً.
(١٤) التُستري: نسبة إلى بلد من كور الأهواز بخوزستان.
(١٥) الأشعث: المغبّر الرأس المنتف الشعر، والساغب: الظامىء.
(١٦) ذو عيلة: ذو فقر.
(١٧) الوقر: الحمل الثقيل، والموقر الذي يتكبّد هذا الحمل الثقيل. والوقير: مَن أبهظه الدين.
(١٨) القاع: أرض مسهلة واسعة مستوية لا حصى ولا حجارة فيها ولا تنبت الشجر، وهي مصبّ السيل.
(١٩) المهجر:الذي يسير في الهاجرة أي في منتصف النهار عند زوال الشمس في شدة الحر.
(٢٠) ذر: اترك.
(٢١) تضمن: تبتلى في جسدك بسببه.
(٢٢) قارب في الأمر: ترك الغلو وقصد السداد واقتصد في الأمر.
(٢٣) الهشيمة: ما يبس من شجر ونحوه.
(٢٤) الإذخر: الحشيش الأخضر.

أو مـا رأيـتَ غبـيّ قـومٍ موسِـراً[١] ولبيـبُهُم يـسعى بحـال المُعسِرِ

قـد أوعـبَ[٢] التكـوين كـلّ مكـوّنٍ مُـذ أحكـمَ التقـديرُ كـلَّ مُقـدّر

وبـذاك يُغـشي الليـل أليـلَ[٣] داجيـاً في كـورهِ[٤] وَضَـحَ النهـار الأبهـر[٥]

فلـو ابتغيـتَ بكـلِّ جَهـدٍ نيـلَ مـا سـبقَ القـضاءُ بمنعِـهِ لـم تقـدِرِ

ولـو اجتهـدتَ لـدفع مـا يُؤتيكـهُ آتاكـهُ إتيـانَ مُزجـىً[٦] مُجبـر

تـدبيرُ مقتـدرٍ تعـالى قـدرُهُ أن يُبتغـى مـن دونـهِ لمُـدبَّر

ودليـلُ حـقٍّ إنـه الفـردُ[٧] الـذي فطـرَ الجميـع لـذي النهـى المُتفكّـر

خلـق الخلائـق كلّها مِـن قُـدرةٍ لـم يَعتَـضِدِ[٨] فيهـا ولـم يـستكثر

كـلاّ وباريهـا[٩] فلـيسَ كمثلـهِ شـيءٌ يقـاس بـه الـسميع المبـصر

فـارضَ القناعـة رتبـةً تُـسعد بهـا واحـرص علـى إيثـار دينـكَ تـؤثر[١٠]

واسـمح بمالـك بـل بعرضِـكَ دونـه تتمـوّل الحمـدَ[١١] العـريضَ وتُعـذَر

ديـنُ الفتـى أولـى بـه مـن عِرضـهِ والعِرضُ أولى مـن يـسارِ الموسِـر[١٢]

فاسـتبق دينـكَ دونَ عِرضِـكَ تـؤجر واستبق عِرضكَ دونَ وفركَ[١٣] تـوفر[١٤]

واصبر علـى نُـوَبِ[١٥] الزمـانِ فإنهـا قـدَرُ الإلـه الواحـد المتكبـر

وإليـه فـافزع[١٦] فـي أمـورك كلهـا فـزعَ التقـيّ المـوقن المُستبـصِر

---

(١) الموسر: الثري الغني.

(٢) أوعبه: أخذه أجمع ووسعه كله.

(٣) ليل أليل: شديد الظلمة.

(٤) الكور: الدورة.

(٥) الأبهر: الأشد بهراً، يقال: بهر القمر النجوم: غمرها بضوئه.

(٦) مزجى: مسوق سوقاً ليناً ومدفوع برفق.

(٧) الفرد: من لا نظير له ولا مثل ولا ثان.

(٨) يعتضد: يطلب العون والمساعدة.

(٩) البارىء والباري (مسهلة الهمزة) : الخالق – سبحانه وتعالى– .

(١٠) تؤثر: تُكرم وتُفضّل.

(١١) تتموّل الحمد: تذخره شكراً لك.

(١٢) الموسر: الغني،الثري.

(١٣) الوفر: المال الكثير الواسع.

(١٤) توفر: تغنى، ووفر عرضه : لم يبتذله.

(١٥) النوب: جمع نائبة، وهي النازلة؛ أي ما ينزل بالإنسان من المهمات والحوادث خيراً وشراً.

(١٦) فزع إليه: لجأ.

إنّ الحوادثَ ما رمتكَ فلم تُصب ... من نفسِ دينك ذاتُ خطبٍ أيسر

أنتَ المخاطَبُ[١] والمرادُ جميعُكُم ... بمقالتي الحُسنى ومَحْضِ تخبُّري

إني نصحتُ بنظمِهِ جَهدي لكم ... وهديتُكُم سَنَنَ[٢] الطريقِ الأخضر

لمّا أحَطتُ بعلمِهِ ورأيتُهُ ... رأيَ العِيانِ[٣] وليس رأيَ المُخبِر

ضَمّنتُ[٤] أسطُرهُ نتيجةَ ما حوى ... للعلمِ فضلُ عِنايتي من أسطُر

مئتان زادت تسعَ عشرةً[٥] وانتهت ... تحبيرُها[٦] مَثَلٌ لكلّ مُحبّر

أوترتُها[٧] والوِتْرُ أفضلُ سُنّةٍ ... ليسَ المُضيّعُ وترَهُ كالموتر

لا عيبَ فيها إن بغاهُ عائبٌ ... إلا خفيٌّ ليسَ بالمستنكر[٨]

أعذرتُ فيهِ فمن تبيّنَ عُذرهُ ... ولّى الملامةَ[٩] كلّ من لم يعذُر

جمعت أصولَ الدّين واشتملت على ... آدابهِ واستأثرتْ بالآثر[١٠]

وتوشّحت[١١] من سيرةِ السّلَفِ الألى ... عَلِموا الحقائقَ بالأعمّ الأشهر

فيها بيانٌ للمُريدِ وعُدّة ... للمستفيدِ ومُتعةٌ للسُمّر[١٢]

فخذوا بأحسنها تكونوا أسوةً[١٣] ... للصالحين وكلِّ برٍّ خيّر

وتقبلوا نُصحي وكونوا أسوةً[١٤] ... فيهِ بصدقِ تأمُّلٍ وتدبّر

وتناصفوا وتقارضُوا[١٥] البرّ الذي ... هو حُلّةُ[١٦] العاري وكنزُ المُقتر[١٧]

---

(١) أي ابنه عبد الرحمن.

(٢) سنن الطريق: نهجه ومسلكه.

(٣) العيان: المعاينة، رأيته عياناً أي لم أشك في رؤيتي إياه.

(٤) ضمّنه: جعله ضِمنه وطيّه.

(٥) يذكر هنا لفظاً عدد أبيات القصيدة المطولة ، وهو ٢١٩.

(٦) حبّر الكلام والشعر: حسّنه وبيّنه.

(٧) أوترها: جعلها عدداً فردياً.

(٨) المستنكر: المنكر القبيح.

(٩) الملامة: اللوم والعذل والتعنيف.

(١٠) استأثرت بالآثر: انفردت بالأجود والأفضل.

(١١) توشحت: قلّدت وشاحاً أي جُمّلت.

(١٢) السمّر: الساهرون في الليل يتحدثون.

(١٣) الأسوة: القدوة.

(١٤) يقال: هم في الأمر أسوة: أي حالهم فيها واحدة.

(١٥) يقال: هما يتقارضان الخير أي يتجاريان.

(١٦) الحلّة: كل ثوب جديد تلبسه.

(١٧) المقتر: المفتقر الذي قلّ ماله وضاق عيشه.

وتواصــــلوا وتعـــاطفوا كيمـــا تُــروا وزنـــادُكُم فـــي كــلّ صـــالحةٍ وَرِي (١)
والله حَســـــبُكُم وحـــــسبي إنّـــــهُ حـــسبُ المنيــبِ(٢) القانــتِ(٣) المــستغفِرِ
وإليـــه أســـنِدُ أمـــرَكُم وكفَـــى بـــهِ ســـنداً لكـــلِّ مُفـــوّضٍ مُـــستقدِرِ
وعليـــهِ أقْــصُرُ حــالكم فهــوَ الــذي مـــا دونـــهُ لعبـــاده مـــن مُعـــصِرٍ(٤)
ولعلّــه فـــي بعــضِ مـــا يقــضي بــهِ ممـــا يـــشاءُ بـــلا وزيـــرِ مُـــوْزِر
يُـــدني لقـــاءكُمُ بـــأوبٍ(٥) عاجـــلٍ ترضـــاهُ نفـــسُ الآمـــلِ المُتحبِّـــر
[لاتــــسأ]مــــوا إحـــضارَهُ رغبـــاتكِم فهباتُـــهُ مبـــسوطةٌ لـــم تُحظَـــر(٦)
وعسى رضـا المنـصور يُـسفرُ وجهُـهُ فيُـديلَ(٧) مـن وجـهِ الفِـراقِ الأغبـر

مناسبة الوصية:

يبدو أن الجزيري قد نظم هذه القصيدة وقد أزرى به الأمل واقترب به الأجل، إذ قالها وهو يعاني ظلمة السجن ومرارة الاغتراب وغُصّة الذلة بعد العزة؛ إذ كان وزيراً للمنصور ابن أبي عامر متقلباً في النعمة مُقرّباً من صاحب الملك ثم قلب له الدهر ظهر المِجنّ وغضب عليه المنصور واعتقله بإحدى قلاعه المنيعة(٨) وقد طال عليه الأمر إذ دام سجنه فوق ثلاث سنوات فكتب قصيدته هذه مشتاقاً لأولاده يوصيهم وينصحهم مستمداً ذلك من خبرته وعلمه ودرايته وهو الرجل المعروف بالبديهة والمعدود في أكابر البلغاء(٩) وهو الذي قال عنه المنصور "لله درك يا

(١) الزناد الوري: الزند: العود الذي تقدح به النار وهو الأعلى، وروى الزند: أشعله، أخرج منه ناراً.
(٢) المنيب: المقبل الراجع إلى الله سبحانه.
(٣) القانت: المصلي العابد القائم بأمر الله.
(٤) مُعصِر: أي مُلجيء ومحزر ومنجٍ.
(٥) الأوب: الرجوع.
(٦) لم تحظر: لم تمنع.
(٧) يقال: أداله الله من عدوّه: كانت له الغلبة والنصرة والدولة عليه.
(٨) انظر:هلال ناجي، قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤، ص٩.
(٩) انظر: أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي (ت ٤٨٨هــ) – جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة، ١٩٦٦، ص٢٨٠.

أبا مروان، قسناك بأهل العراق ففضلتهم فبمن تقاس بعد"(١).

وهو إذ ينصح لهم لا يدري إلامَ عاقبة الأمور والمنصور غاضب عليه، ثم هو ربما يُرَجّي غير فائدة من هذه القصيدة كأن تصادف قبولاً في نفس المنصور فتثمر انفراجة في التوتر بينهما.

ثانياً: تحليل مضمون الوصية

تقع القصيدة في مئتين وتسعة عشر بيتاً ، وقد صرّح بذلك الجزيري فقال:

مئتــان زادت تــسع عــشرة وانتهــت تحبيرهـــا مَثَـــلٌ لكـــلِّ مُحَبِّـــر

وتشتمل هذه القصيدة على ثلاثة موضوعات رئيسية هي المقدمة والمضمون الوعظي والخاتمة؛ إذ يبدأ الشاعر بذكر أحبته وتذكّرهم والتحنان إليهم فقد بَعُدَ المزار عنهم وأبَت عيناه الهجود شوقاً إليهم، و أضعفه البعد وأضناه الشوق وألانه طول الفراق وأبعد عنه السرور ، إذ ليس يلقى أحبّته إلا تَوَهُّماً وتخيُّلاً، فقد سُدَّت السبل دون وصالهم بحلول يوم الفراق الذي ترك قلبه متعطشاً إليهم وكأنه شرب بفراقهم سُمّاً زُعافاً.

ثمّ أخذ يتذكر أحبته فرداً فرداً فبدأ بذكر زوجته الرومية الأصل التي راحت جفونها بين إعراض عن مشاهدته مخفوراً وبكاء على حاله وفراقه وهي الزوجة التي جعله الفراق يدرك بتدبر حسنها وجمالها؛ إذ لم يعد وصالها ممكناً إلا بالنوم على أنه لا يحصل إذ سبق البيان بأن النوم جفاه مما جعل الوصال متعذراً حقيقةً وممتنعاً مناماً وخيالاً ، ولم تعد المكاتبة ممكنة، فعمد إلى تحميل ريح الصبا والبروق أشواقه علّها تأتيه برجع جوابٍ لمقالاته، وهو من فرط شوقه يدعو لها – أي زوجته– ولمنزلها إن كانت ما تزال على العهد.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر أبنائه منادياً إيّاهم بأسمائهم موجهاً وصيته إلى ابنه عبد الرحمن طالباً منه أن يوصلها إلى إخوته عُبيد الله ومُحمّد والصغير عبد العزيز المقدم في فؤاد والده لصغر سنه. والجزيري إذ يبيّن حُبّه وشوقه إلى أولاده جميعاً يخص عبد العزيز لأنها سنة الحياة– كما يرى– أن يُحبّ المرء – إذا شاب – أولاده ويخص الأصغر بالحُظوة الكبرى. ثم هو يطلب إلى عابد الرحمن أن يوصل تحيته إلى مَن لا يريد أن يذكر اسمه وعلى ما يبدو أنه

---

(١) انظر: ابن بسام، الذخيرة،ج٤ ،ص٣٦.

يقصد ابنته التي يودُّ لها الهلاك لا عن بغضٍ وكراهية، وتوَدُّ هي له أن يعمر أبد الدهر، وهذه البنت التي لا يأتي الشاعر على ذكر اسمها الصريح جميلة كالكوكب الدري في الليل الهادىء الساكن وليس دونه إلى قربها وصول، فهو مقيم في حرز منيع في ذروة جبلٍ أجرد لا تأوي إليه سوى الغربان والرياح الباردة، وهو لفرط عُلّوه يقطع الأنفاس. ثم يتحسّر على مفارقة أحبته إذ كانوا من نفسه بمثابة الجنة التي غيّب عن ناظريه بمفارقتها كل منظر حسن، فتجرّع لذلك مُرّ الصبر، فهم قُرّة عينه التي لا يستطيع السلو عنها ، ولا ينفك يفكر فيها حتى عاد ذلك التفكير على جسمه بالسقم. فهو يجِدُ ريحهم في تذكرهم الذي يستحيل في نفسه دماً يقطر من عينيه.

فهو يتذكّرهم كلما اقترب عيدا الفطر والأضحى، فيغدو حيران ذاهلاً مستوحشاً مع وجود الأنيس، فهو كالأخرس لا يُناطق أحداً، لكنه معذور كساه الشوق ملامح خاصّة جعلت من يراه يعذر حاله تلك.

وهو يشكو إلى الله الرحمن فراق أحبته الذي طال سنواتٍ ثلاث زدن أشهراً، ثم يتساءل إن كان لافتراق الشمل من اجتماع ؟ وكأن الأمل على ضعفه لا يزال يحدوه .

و يتعجّب من قلبه كيف لم يتقطّع ألماً يوم الفراق، إذ كان يظن أنه لن يبقى حياً بعدهم ساعةً لولا أنّ أخاهم الأكبر شريكه في المحبس فهو بؤبؤ عينه إن نظر وساعده إذا مال وانكسر. وهو إذا شكا إليه ليرتاح من فَرط ما به ذكّره بهمه فشكا إليه أيضاً بدوره فزاد على شكايته، وقد أورثته الهموم الشيب المبكر ، وهو بهذا يتحسّر على حال ابنه الذي جار عليه الزمان وهو في ريعان الشباب إذ رُميا معاً – الأب والابن – بتهمة كاذبة ومفتراه، وهو يُسلّم بقدر الله الذي قضى أن يكونا معاً في هذه المحنة.

ثم يعود ليتحسّر على أبنائه من خلال توجيه الخطاب إلى المقصود الأول– عبد الرحمن– الذي ذاق يُتم أبيه قبل وفاته، وابتُلي بفقد أخيه فهما كالهالكان وإن لم يهلكا حقاً.

وهو بهذا يطلب إلى عبد الرحمن أن يندبهما ويبكي عليهما فكلاهما ميت، وإن لم يُقبر فهما غريبان بُدّلا بالدار والأهلين داراً بعيدة بل سجناً وهما فقيدان لا يسمع عنهما خبر ولا يصل إليهما مثله وهما حزينان مشتاقان طال بهما الأسى.

والجزيري يخاف فاجئة المنون فالموت حق وبهذا ينتقل إلى موضوعه الثاني، وهو الغرض الرئيسي من هذه القصيدة، إذ يوصي فيه أبناءه بجملة مِن الوصايا داعياً إيّاهم إلى الالتزام بتقوى الله طريقاً نحو الفوز والمحافظة على حدوده طريقاً نحو الأجر والثواب واتباع

سبيله والعمل بطاعته حتى ينالوا رضاه سبحانه.

ويتابع وصاياه الموجهة إلى عبد الرحمن والمعني فيها عموم أولاده بأن يتّخذ القرآن هادياً ومرشداً فهو شفاء لما في الصدور وذِكر للمتذكرين، ثم أوصاهم بطلب العلم، فهو أرفع رتبة وأجلُّ مكتسب، وهو سبيل السيادة فالمُحَبِّر لم يُسمَّ كذلك إلا لِطول حمله للمحبر وللعالم مكانة بارزة إذ تتابعه أبصار الخَلْق وتزدري أبصارهم الجاهل؛ فبالأقلام يبلغ المرءُ ما لا يبلغه بالخيول،وهو بهذا يرمي إلى فضل القلم على السيف على أن العلم لا ينفع أهله إذا هو يثمر عملاً حسناً ورأياً صائباً، لذا فإن على الإنسان أن يعمل بما علم فالعلم دون عمل كالصلاة دون طهور.

ثم هو يحثّ على العمل بالسنة النبوية الشريفة المأخوذة عن النبي الكريم البشير المنذر صلى الله عليه وسلم. وينادي إلى ترك البدع والمحدثات من الأمور، ويدعو إلى التزام نهج الجماعة التي تتبع الحق الجلي، ثم هو يقدم وصفاً لتلك الجماعة ليعين أبناءه على الاهتداء إليها فهي أي الجماعة الحدُّ بين الضلالة والهدى في الدين وهي المعروف دون المنكر.

ثم يوصي عبد الرحمن بالجهاد والصلاة مع الأئمة كلهم، وإطاعة ولاة الأمر ووّصاه بالصبر على ظلمهم إن هم ظلموا إذ قد يُحرّك الفتن الأنكاد الظالمون – ولعله بهذا يلمح إلى الوشاية التي تعرض إليها من قبل بعضهم – ووصّاه بأن يرضى بالقضاء ويذعن لصروف الدهر، وأن يشكر إن أصابته نعماء، ويصبر إن أصابته ضراء، وأن يخلص النية لله في الأعمال كلها فمن يجعل لله شركاء يخسر فحقيقة الإيمان تستلزم القول والعمل والنية.

ثم يؤكد أن القرآن كلام الله وليس مخلوقاً كما زعم أهل الاعتزال .

ثم يقول إن الله عزوجل يتجلى لأهل الجنان فيرونه من غير أن يحصوا حقيقة كنهه، وأن حوض النبي صلى الله عليه وسلم حق وشفاعته كذلك، وهو إذ يتحدث عن ذلك يحبب إلى أبنائه العمل الصالح ليحصدوا الخير والفوز. ثم هو يذكرهم بالميزان ويوم الحساب، وأن المنزلة الرفيعة تكون لمن علت درجاته وعلا به عمله. ويذكرهم بفتنة القبر التي يتعرّض إليها كل ميت حين يأتيه الملكان منكر ونكير، ويذكرهم بأن الله يثبت عباده الأتقياء عند السؤال، وأن أصحاب الكبائر أمرهم في مشيئة ربهم فإما يعذبهم وإما يغفر لهم، وأن ليس للإنسان أن يتدخل في الحكم على مصائرهم، وليس له إلا أن يشهد جنائزهم – وهي تأدية لحقهم-.

وأن يتبعوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يتحدثوا في محاسنهم، وأن يحبوهم ولا سيما العمرين: أبا بكر وعمر ثم عثمان ثم علي عليهم رضوان الله جميعاً خلفاء الصدق

الذين وطدوا دعائم دين الله ونشروه في الآفاق. وأن يحبوا معهم الصحابة الستة من المبشرين بالجنة وهم الزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد رضي الله عنهم.

ثم أوصى أولاده بترك الأكاذيب والافتراءات التي تحكى عنهم وأن يذكروا ما سوى الصحابة الذين سلف ذكرهم بالخير غير مُقَدّمين منهم أحداً على أحد فجميعهم أهل للبر والتقوى.

ثم أوصى أولاده – بخطابه الموجه إلى عابد الرحمن– بأن يتركوا المراء لأنه مرض يوغر الصدور، ويملؤها حقداً وغيظاً، والمراء في الدين كفر.

ثم أوصاهم بقضاء حق الوالدين وبرهما، وعدم نهرهما، وأن يقولوا لهما قولاً كريماً. وأن يرعوا حرمة ذوي القربى والجيران، وأن يترفعوا عن مخالطة مَن لم يَكْرُم في معاشرة الناس فالإنسان يعاشر مَن يشاكله في الطباع؛ لذا فهو يدعوهم إلى مصاحبة الأتقياء ذوي النزاهة، وأن يجتنبوا السفهاء، وأن يختبروا أصدقاءهم قبل أن يشاركوهم في أي شيء، وعليهم ألا ينخدعوا بالمظاهر؛ فالماء قد يبدو صافياً وهو آجن متغير الرائحة والطعم واللون في حقيقته، وقد يبدو والسيف رائعاً في يد من لا يقوى على استخدامه، وكذلك الإخوان والأصحاب فكم منهم من أحد يَغُرّ بظاهره، وباطنه مختفٍ غير ظاهر.

وأوصاهم بسعة الصدر، وأن يستنصحوا التقي، وأن يشاوروا الفطن الذكي كيما يُفلحوا.

وأن يدخلوا المجالس والمنتديات مُسَلّمين حالمين، وأن يصونوا ألسنتهم، ويحذروا من سقطها، وأن يصفحوا ويحلموا على السفيه، وأن يَدَعوا المسيء إلى إساءته، وأن يكظموا غيظهم ويستغفروا إذا غضبوا، وأن يتواضعوا ويجتنبوا الكبر والخيلاء، وأن يلزموا الصدق ويحفظوا الأمانة واليمين، وأن يكتموا أسرارهم وأسرار غيرهم، وأن يهتم كلٌ منهم بشؤونه فإن فيها شُغلاً لهم عن شؤون سواهم، وأن يراقبوا عيوبهم قبل أن يراقبوا عيوب غيرهم ففي كل إنسان عورات كثيرة وإن لم تظهر.

وأوصاهم بالكرم، وإكرام الضيف، وشكر كل متفضل عليهم كفاهم مؤونة السؤال.

وأن ينصحوا للمسلمين ولا سيّما الأئمة منهم، وألا يغتابوا، ولا يتجسسوا، ولا يتّبعوا الظن ولا يظلموا، ولا يحسدوا، ولا يشمتوا فإن لكل امرىء أجلٌ، وأنّ عليهم أن يعملوا قبل الموت، وأن يرغبوا عن الدنيا فإنها فانية وهي دار التقلب التي لا تدوم على حال وكم غررت بآمل فأزرى به أمله. ثم هو يحلف بالله الذي تلهج الألسنة بذكره في عرفات بكل اللغات بأن

الدنيا لا تصفوا ولا يؤمن غدرها، وهو إذ يقول ذلك يدعو أولاده إلى التدبّر والتفكر فيما يقول، فكم من متكبر صاحب عز وجاه دالت عليه الأيام فبدلت عزته ذلة، وكم من غني بدلت غناه فقراً، وإنها – أي الدنيا– دار الغرور. وأن الرزق مقسوم لذا فإن على الإنسان أن يعتدل في السعي وراءه فلا يزيد الحرص في الرزق، ولا أدلّ على ذلك من أن بعض الأغبياء موسرون، وبعض الأذكياء معسرون. فالله عز وجل خلق كل شيء بقدر يغشي الليل النهار، ولا ينفع الجهد في تغيير القضاء والقدر، فالله واحد خلق الجميع دون عون أو مساعدة ليس كمثله شيء؛ لذا فإن على المرء أن يرضى بما قُسِمَ له ويقنع. وإنَّ طلب الزيادة يكون في الدين، ثم في صون العرض، وأوصاهم أن يصبروا على نُوَبِ الزمان، وأن يلجأوا إلى الله في الأمور كلها، وأن كل مصيبة لم تصب في الدين هينة.

ثم يأتي الموضوع الثالث من القصيدة وفيه يبيّن الجزيري أنّ المخاطب في هذه القصيدة عابد الرحمن والمراد جميع إخوته؛ فهو نظمها لينصحهم جاهداً، ويبين لهم الطريق القويم، وهو إذ ينصحهم يقدم لهم علماً وتجربة عاشها بنفسه في مئتين وتسعة عشر بيتاً اعتنى بنظمها، وقد جعلها فردية العدد تيمّناً بصلاة الوتر، وفضلها، وهي قصيدة لا عيب فيها في ظاهرها، وإن وجد فيها عيب فهو غير قبيح؛ لذا فهو معذور فيه، وهي قصيدة جمعت أصول الدين، وانفردت بكل ما هو جيد، وجُمّلت بشيء من سيرة السلف الصالح. فيها بيان ومتعة لكل من بغى الاستفادة؛ لذا طلب إليهم أن يعملوا بما جاء فيها ليكونوا أسوة لغيرهم، وأن يقبلوا نصحه، وأن يتقارضوا الخير ويتواصلوا ويتعاطفوا فيما بينهم. ثم دعا لهم ووكّل أمره وأمرهم إلى الله فلعل الله يقرب لقاءهم وهو بهذا يحثهم على الدعاء، ثم يختم قصيدته بترجّيه وأمله بأن يرضى المنصور بن أبي عامر عنه فيخرج من معتقله ويلقى أحبته.

ثالثاً: الدراسة الفنية

- حسن التخلّص:

لم يجد الشاعر صعوبة في التخلص من موضوعات متنقلاً بينها، فهو بعد أن تحدّث عن ألم الفراق، وشرح ما يلقاه من وجد ومكابدة شوق مبيناً أن الزمان قد أقصاه عن أحبته وأهله وولده، شكا طول العناء وألم الانتظار، وبيّن أنه يخاف من الموت المفاجيء؛ فالموت حق على كل نفس بقوله:

طـال العنـاء وجـدّ بـالنفس الأسـى مُذ جَدّ بـي سـقمي وطـال تنظـري

وأخـافُ فاجئـة المنـون فـإن تكـن فاقن العزاء – فدتك نفـسي– واصْـبر

إنّ الحمـام لَمنهَـلٌ مـا دونـه لممتّـع بـالعيش مـن مُتـأخّر

وبذلك سوّغ انتقاله للوصية التي رجا أن يقدّم من خلالها خلاصة تجربته لأولاده؛ إذ انتقل بشكل انسيابي موصياً قائلاً:

فعليـك تقـوى اللهِ فالزمهـا تفُـز وحـدوده حـافظ عليهـا تـؤجر

ثم تابع مضمون وصيته مخاطباً ابنه عابد الرحمن لينتقل بعد أن نفَضَ جرابه إلى خاتمته التي أعاد فيها مضمون الوصية باختصار بقوله:

أنـتَ المخاطَـبُ والمـراد جمـيعكم بمقالتي الحسنى ومحـض تخبُّـري

إنـي نـصحت بنظمـه جهـدي لكـم وهديتكم سـنَنَ الطريـق الأخـضر

اللغـــة:

الجملـــة:

يبدو أن أبا مروان الجزيري اختار لقصيدته البنية الفعلية، فهو يتكيء على أربعمئة واثنين وأربعين فِعلاً، تراوحت ثلاثمئة وأربعة منها بين الماضي والمضارع في حين أن منها مئة وثمانية وثلاثين فعلاً أمرياً، ولا يخفى ما تعود به هذه البنية الفعلية الواسعة على القصيدة من جوّ حركي يمنحها شحنة انفعالية تجعلها أكثر تأثيراً، لا سيما وأن الشاعر عضّد هذه البنية الفعلية بمئة وأربعة وثلاثين اسم فاعل، وهو في انعتاقه من الزمن ومضيّه في الفعل يزيد من

وتيرة تلك الحركة ويغذي ذلك الانفعال.

- **التكرار:**

وظّف الشاعر التكرار بشكل ملحوظ في قصيدته، إذ كرّرَ مئة وثلاثة ألفاظ على المستوى العام للقصيدة من مِثل:

(أسطر – أسطر).

(عرض – عرض).

(وتر – وتر).

(أولى – أولى).

(ابك – ابك).

(استبق – استبق).

وهو إذ يكرر كل تلك الألفاظ يراوح في تكراره بين التكرار المطابق للمفردات كما سبق، والتكرار غير المطابق – ونعني به تكرار الجذر اللغوي من مثل:

(رأيت – رأي).

(أعذرت – عذر).

(باغي – بغى).

(تشعر – أشعر).

(عائب – عاب).

ولعله غير خافٍ أن انسجام النص مع مقصديته يجعل التطابق أمراً لا مفر منه(١)؛ فيعود بتكرار بعض البنى اللغوية؛ فالتكرار "يعطي منتج النص القدرة على خلق صور لغوية جديدة، لأن أحد العنصرين المكررين قد يُسهّل فهم الآخر(٢).

---

(١) انظر فيه: مفتاح ، محمد، المفاهيم معالم، ص١٩٢.

(٢) بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ص٣٠٦.

الثنائيات اللغوية:

لم يكتف الشاعر بتوظيف البنية الفعلية والتكرار على مستوى اللغة في سياق قصيدته فلجأ إلى الثنائيات مستعملاً ثمان وثلاثين ثنائية ضدية من نحو:

(مُقِلّ – مُكثر).

(غبي ، لبيب).

(موسر، معسر).

(شر، خير).

(ظاهر، باطن).

ولا يخفى ما لهذه الثنائيات الضدية من أثر في المعنى؛ إذ فيها تقريب للمعنى إلى الأذهان، وهي في الوقت ذاته من متطلبات الموضوع، فالشاعر يعظ أبناءه مقارناً لهم بين حال الصالح وحال الضال، ولا بد له من أن يوقع اختياره على هذه الألفاظ المتضادة.

ثمّ إن الشاعر يستخدم الثنائيات اللغوية التأكيدية المنتمية إلى حقول دلالية بعينها؛ إذ يلجأ الشاعر إلى استخدام غير لفظٍ من حقل دلالي واحد من مثل:

(اسلك – سبيل)

(ميت ، قبر).

(الجميع، الحُضّر).

(مناهج ، سبل).

(لحظ ، جفون).

(كرى، نوم).

(شاهق، عالي).

وقد استخدم الشاعر سبعين ثنائية تأكيدية على هذا النحو، وهو بهذا يحفز ذهن المتلقي بحشد القرائن واجتماعها وتضافرها معاً في علائق متشابكة، تنمو بالنص – على المستوى العام وبالفكرة – وعلى المستوى الخاص – ، وتتجه به نحو اكتمال النظر في تلقي النص إيجابياً وتمثّله.

الإيقاع الصوتي:

إنّ توازي العناصر اللغوية في الأنماط التكرارية، والثنائيات اللغوية الضدية والتأكيدية يحدث توازناً صوتياً يشكل أساس الإيقاع(١)؛ والبنية الفعلية وما فيها من تراوح زمني تزيد الإيقاع بحركتها وفاعليتها.

وكل هذه البنى اللغوية على تفاوتها وتباينها تزيد من تتابع الألفاظ على مستوى الزمن العام، وعلى المستوى الصوتي بتلاحقها وتجاورها، وهو الأمر الذي يمنح القصيدة نفساً منتظماً ويعود على العناصر بالانسجام مما يكسب الأبيات بنية إيقاعية زائدة على المستوى العروضي الذي لا بدّ وأن يحققه الشعر بشكل عام.

التنــــــاص:

- **التأثر بالقرآن الكريم:**

تحفل القصيدة بكثير من الإحالات إلى القرآن الكريم، وليس هذا مستغرباً؛ إذ إنها قصيدة وعظية يصب شاعرها جُلّ معانيها في الوعظ الديني الموجه إلى طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وليس للشاعر مندوحة عن النهل من منبع التشريع؛ لذا فهو يقتبس معانيه في مواضع كثيرة من قصيدته فهو يشير في قوله:

إنّ الحمـــــام لمنهـــــل مــــا دونـــــه لممتّـــــع بـــــالعيش مــــن متــــأخّر

إلى قوله تعالى: "**إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون**"(٢).

وفي قوله:

فعليـــــك تقـــــوى الله فالزمهــــا تفُـــــز وحـــــدوده حـــــافظ عليهــــا تـــــؤجر

يقتبس من آيات التقوى الكثيرة في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: "**واتقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين**"(٣).

وفي قوله:

---

(١) انظر : عدنان قاسم، الاتجاه الأسلوبي البنيوي، ص٩٠.

(٢) نوح، آية ٤.

(٣) البقرة، آية ١٩٤.

واعمـــل بطاعتـــه تنَـــلْ منـــه الرضـــا   والقـــرب فـــي دار الـــسلام وتُحْبَـــر

من قوله تعالى: "**ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار**"[١].

وفي قوله:

فهـــو الـــشفاء لمـــا تُكِـــنّ صـــدورنا   وهـــو الهـــدى والـــذكر للمتـــذكر

من قوله تعالى: "**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء**"[٢].

وفي قوله :

وكـــذلك الميـــزان يوضـــع قائمـــاً   بالقسط والزلفى لمـــن لـــم يخـــسر

من قوله تعالى: "**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة**"[٣].

وفي قوله :

ثمّ اقـــضِ حـــقّ الوالـــدين وقُـــم بمـــا   فرض الكتـــاب عليـــك منـــه وابـــدر

أوســـــعهما بِـــــراً ولا تنهرهمـــــا   وامنحهمـــا قـــولاً كريمـــاً واشـــكر

واخفـــض جناحـــك رحمـــةً لكليهمـــا   تمهـــد لنفـــسك إن فعلـــت وتـــذخر

يقتبس من قوله تعالى: "**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا**"[٤].

---

(١) النساء، آية ١٣.

(٢) فصلت، آية ٤٤.

(٣) الأنبياء، آية ٤٧.

(٤) الإسراء، آية ٢٢-٢٤.

وفي قوله :

واخفض كلامك وامش هوناً والقَ مــن لاقيـــت طلقـــاً لا بخـــدٍّ أصـــعر

ومن قوله تعالى: "**ولا تُصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير**"(١).

وهذا غيضٌ من فيض؛ إذ جُلّ معاني القصيدة صادرة عن كتاب الله عز وجل.

الحديث النبوي الشريف:

نَهل الجزيري من الحديث النبوي الشريف، وضمّن وصيته كثيراً مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر طبيعي منسجم مع الغرض العام في القصيدة المتمثل في النصح والهداية إلى سواء السبيل، فالشاعر لمّا استعار كثيراً من المعاني القرآنية لخدمة هدفه كان من الطبيعي أن يلجأ إلى المصدر الإسلامي الثاني في التشريع، وينقل عن المصطفى عليه صلوات الله وسلامه، فهو الذي يصدر في كل ما يقول عن ربّه عز وجل، ولا ينطق عن الهوى.

ومن ذلك تأثر الشاعر بالحديث النبوي في غير موضع من قصيدته ومن ذلك قوله:

وارفـــض حـــديثات الأمـــور فإنّهـــا بـــدع تـــضلل كـــل قلـــبٍ مُبـــصر

متأثراً بقوله صلى الله عليه وسلم : "**شرُّ الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**"(٢).

وفي قوله:

وارض القـــضاء ودن بـــصرفيه معـــاً لـــلأوّل العـــالي الـــصفات الآخـــر

متأثر بقوله صلى الله عليه وسلم: "**من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له**"(٣).

وفي قوله:

---

(١) لقمان، آية ١٨-١٩.

(٢) صحيح مسلم – ٨٦٧ [٥٩٢/٢].

(٣) سنن الترمذي –٢١٥٢[٤٥٥/٤].

وحقيقـــة الإيمـــان قـــول يقتـــضي　　عمـــلاً ونيّـــة خـــائف مستـــشعر

متأثراً بقوله صلى الله عليه وسلم:"**الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان**"[(١)].

وفي قوله:

والله يبـــدو فـــي الجنـــان لأهلهـــا　　فيرونـــــه رأي العيـــانِ المُنظـــر

متأثراً بقوله عليه الصلاة والسلام : "**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر**"[(٢)].

وفي قوله:

أن التعاشـــرُ فـــي الأنـــام تـــشاكل　　ولذاك يُلفىَ الجبنُ في النَطــفِ الثـــري

يضمن معنى الحديث الشريف: "**الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل** "[(٣)]

وفي قوله :

واستصحب الورع النزيـــه وجانـــب ال　　طبع الـــسفيه بكـــلِّ حـــالٍ واهجـــر

ينقل معنى قوله صلى الله عليه وسلم : "**لا تصاحب إلا مؤمناً**"[(٤)]

وفي قوله :

وتجَنّـــــب الخـــــيلاء إن نبيّنـــــا　　كره المخيلة وهـــي فـــصل المئـــزر

من قوله صلى الله عليه وسلم "**مَن جَرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**"[(٥)].

وأمثلة ذلك كثيرة ممتدة في ثنايا قصيدته.

---

(١) سنن ابن ماجة–٦٥[٢٥/١].

(٢) صحيح البخاري –٦٩٩٧[٢٠٣/١].

(٣) سنن الترمذي – ٢٣٧٩[٥٨٩/٤].

(٤) سنن أبي داود – ٤٨٣٢ [٦٧٥/٢].

(٥) صحيح البخاري – ٥٤٤٧ [٢١٨١/٥].

الخاتمــــــــــــة

الخاتمـــــــة

سعت هذه الدراسة إلى البحث في الوصايا في الأندلسية وحاولت أن تجمعها، وتـــصنفها تبعاً لمضامينها، وبينت ما تمتاز به من خصائص على مستوى المبنى والمعنى، وقد وَضُـــح أن لأدب الوصايا خصوصية واضحة تميزه عن سائر الفنون الأدبية الأخرى، فهو وإن انتظم النثر والشعر على حد سواء إلا أنه اختط لنفسه طريقاً مستقلاً تجلّى في أنه نهل من مـــوارد الخبـــرة الشخصية، والمعارف المكتسبة، والقيم الدينية والأخلاقية السامية، ثم إنه ضرب في ميادين الحياة كلها؛ إذ قدم الموصون وصاياهم في سياقات الآداب العامة، والسلوك الشخصي، والمعـــاملات، والوظائف، وآداب الطعام، واللباس وقدّموا وصاياهم لشرائح المجتمع المختلفة للولد، والمـــتعلم، والمعلم، والمريض، والعاشق، والمهموم، والمقبل على الحياة، والمدبر عنها، وللمرأة، والرجل، والبنت، والزوجة، وللكاتب والجندي، والأمير، والحاكم، والقاضي.

وهم في ذلك كله يخوضون في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية.

وقد بينت الدراسة أثر الجو العام والبيئة الأندلسية في هذا الفن الأدبي؛ إذ أثرت الحروب وظروف الدول القَلِقَة في تغذية جذور هذا الفن، وإظهاره إلى الساحة الأدبية الأندلـــسية؛ حيـــث دخلت الوصايا لتشكل وحدات شعرية أو نثرية مستقلة بذاتها حيناً أو بعض مقطوعات نثرية أو شعرية في ثنايا أعمال متكاملة حيناً آخر.

ودخلت الوصايا في ثنايا هذه الأعمال لتكون جزءاً من أجزائها، فالوصايا إذن جـــاءت جزءاً من نص عام غير مستقلة بذاتها أحياناً أو نصوصاً قائمة بذاتها.

وقد كشفت الدراسة عن شيء من تاريخ الوصايا في المشرق العربي، مما يعود إلى ما قبل العصر الجاهلي، وتتبعتها عن طريق عرض ومضات منها عبر عـــصور الأدب المختلفـــة لتمهد بذلك لظهور هذا الفن في الأندلس.

وقد بينت الدراسة أشهر كتّاب الوصايا في الأندلس، وتحدثت عن علاقـــتهم بمـــضامين وصاياهم من خلال ربط ثقافة الموصي وخبرته بما يقدمه من مضمون وعظي.

وقد كشفت الدراسة أن معظم شعراء الأندلس وكتابها ساهموا بشيءٍ من إنتاجهم في هذا

الفن، وأن الحكّام والولاة فعلوا ذلك أيضاً من خلال أقلام كتّابهم ووزرائهم.

وقد بينت الدراسة السمات الفنية واللغوية للوصايا الأندلسية؛ إذ أظهر البحث أن الوصايا تعتمد على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف اعتماداً ظاهراً؛ إذ تلجأ إلى الاقتباس المباشر من النصوص المقدسة، أو إلى الاقتباس غير المباشر، وذلك بالإشارة إلى النص الأصلي أو بتضمين شيء من معانيه في وصاياهم، بالإضافة إلى اتكاء الوصايا على الموروث الثقافي العربي السابق؛ إذ لجأ كثير من شعراء الوصايا وكتّابها إلى الاستفادة ممّا تركه الشعراء السابقون في المغرب والمشرق، بالإضافة إلى مخزون الحكم والأمثال العربية والأقوال المأثورة.

ثم بينت الدراسة السمات اللغوية لتلك القصائد؛ إذ تلجأ إلى أساليب التحذير والإغراء لما لذلك من وَقْع على المتلقي كما تعتمد البنية الفعلية الأمرية، وتلجأ إلى التكرار والترادف والتضاد في كثير مما تقدم.

وقد وضحت الدراسة مقدار التشابه الكبير الذي يجمع بين الوصايا في الشكل والمضمون؛ وإن كانت قد بينت بعض مواطن التباين والاختلاف بين الموصين، وهو أمر عائد إلى اختلاف التجربة الشخصية فحسب، إذ لم يقع الاختلاف في الأمور المتفق عليها شرعاً أو عقلاً، وإنما كانت أموراً هينة في تصريف شؤون الدنيا.

ولعله من المفيد أن نشير إلى أهمية هذا الفن وخطره في توجيه الحياة العامة والخاصة، لا سيّما وإن ازدهاره جاء في ظل المحن والفتن والحروب.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الأبّار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكرالقضاعي،(١٩٦٣). **الحلة السيراء في أشعار الأمراء**. تحق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة.

ابن الابار، أبي عبدالله محمد، (١٩٩٩). **ديوان ابن الأبار**. تعليق: عبد السلام الهراس، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ابن الأحمر،(١٩٦٧). **نثير فرائد الجُمان في نظم فحول الزمان**. تحق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة.

الأزدي، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح، (٤٨٨هـ). **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**. الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦.

الأزدي، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني. **سنن أبي داود**. دار الفكر، تحق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عدد الأجزاء: ٤، مع الكتاب: تعليقات كمال يوسف الحوت والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

الإشبيلي، ابراهيم بن سهل، (١٩٩٨) .**الديوان**. تحق: محمد فرج غنيم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١.

الأصبحي، مالك بن أنس أبو عبدالله. **موطأ الإمام مالك برواية محمد بن الحسن**. دار القلم، دمشق، تحق: د.تقي الدين الندوي أستاذ الحديث الشريف بجامعة الإمارات العربية المتحدة، عدد الأجزاء:٣.

الأصبحي، مالك بن أنس أبو عبدالله. **موطأ الإمام مالك برواية يحيى الليثي**. دار إحياء التراث العربي، مصر، تحق: محمد فؤاد عبد الباقي، عدد الأجزاء:٢.

الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله، (١٤٠٥). **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**. دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، عدد الأجزاء:١٠.

الأصفهاني، أبو الفرج،(١٩٥٥). **الأغاني**. دار الثقافة، بيروت.

الأعلم الشنتمري. **ديوان طرفة بن العبد**. تحق: لطفي الصقال ودرة الخطيب، مجمع اللغة العربية، دمشق.

الأنباري، أبي بكر محمد بن القاسم ، (٢٠٠٢). **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**. ضبطه وعلق عليه بركات يوسف هبود، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت، ط١.

الأندلسي، ابن اللبانة ، (٢٠٠١). **الديوان**. منجد مصطفى بهجت، مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ط١.

الأندلسي، ابن حزم، (١٩٧٧). **طوق الحمامة في الإلفة والآلاف**. ضبط نصه وحرر هوامشه: الطاهر أحمد مكي، ط٢، دار المعارف، القاهرة.

الأندلسي، ابن شهيد. **الديوان**. تحق: يعقوب زكي، راجعه: محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، المغرب.

الأندلسي، ابن هانىء. **الديوان**. دار صادر، بيروت.

الأندلسي، أبو العباس أحمد بن شكيل ، (١٩٩٨). **شاعر شريش**. تحق: حياة قارة، ط١، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي.

الأندلسي، بحتري.(٢٠٠٢). **الديوان**. جمع ودراسة وشرح: يوسف عيد، دار الفكر العربي، بيروت، ط١.

الأندلسي، عبد الكريم القيسي،(١٩٨٨). **الديوان**. تحق: جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس.

الأنصاري، ابن خاتمة ،(١٩٧٢). **الديوان**. تحق: محمد رضوان الداية، دمشق.

الأيادي، لقيط بن يعمر،(٢٥٠ق.هـ). **الديوان**. دار صادر، بيروت.

بالي، شارلي، (١٩٨٥). **علم الأسلوب وعلم اللغة العام** في: شكري عياد: اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم.

البخاري، محمد بن اسماعيل أبو عبدالله،(١٩٨٧). **الجامع الصحيح المختصر**. دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، تحق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة،جامعة دمشق، عدد الأجزاء:٦.

بسام، أبو الحسن علي بن بسام، (٥٤٢هـ). **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**. تحق: سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ٤ج.

بوجراند، روبرت، (١٩٩٨). **النص والخطاب والإجراء**. د.ط، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى. **الجامع الصحيح سنن الترمذي**. دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحق: أحمد محمد شاكر وآخرون، عدد الأجزاء:٥، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

التطيلي، أبي العباس الأعمى،(٢٠٠٤) .**الديوان**. محمد باقر عبد الغني تر: سعاد محمد ابراهيم، مكتبة الرائد العلمية، عمان، ط١.

أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، (٢٣١هـ). **الديوان**. ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦.

جبران، محمد مسعود ،(٢٠٠١). **فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب**. دار المدار الإسلامي، ليبيا، ط١.

جرار، صلاح، (١٩٩٣). **مرج الكحل الأندلسي سيرته وشعره**. دار البشير ، ط١، عمان.

الجرجاني، عبد القاهر، (٤٧٤هـ). **أسرار البلاغة**. تحق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة.

ابن حمديس. **الديوان**. صححه: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

ابن خاقان، (١٩٨٣). **مطمح الأنفس ومسرح التأنُّس في مُلَح أهل الأندلس**. تحق: محمد علي شوابكة، دار عمار ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط١.

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الاشبيلي، (٥٢٩هـ). **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**. (ط١)، تحق: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، (١٩٨٩).

الخزاعي، دعبل بن علي، (١٩٩٧). **وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود**. تحق: نزار أباظة، دار صادر ، بيروت، ط١.

الخشني، أبو عبدالله محمد بن الحارث. **قضاة قرطبة وعلماء أفريقية**. تحق: عزت العطار الحسيني، مكتبة المثنى، بغداد.

الخضري، محمد. **إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء**. المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

الخطبا، فوزي،(١٩٩١). **شعر ابن جبير**. منشورات دار الينابيع للنشر والتوزيع.

الخطيب التبريزي،(١٩٦٩). **شرح القصائد العشر**. تحق: فخر الدين قباوة، ط١، المكتبة العربية، حلب.

ابن الخطيب، لسان الدين. **الديوان**. تحق: محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء.

ابن الخطيب، لسان الدين، (١٩٧٣).**الإحاطة في أخبار غرناطة**. تحق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢.

ابن الخطيب، لسان الدين، (١٩٨١). **ريحانة الكُتاب ونُجعة المنتاب**. تحق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١.

ابن الخطيب، لسان الدين، (د.ت). **الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة**. تحق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

ابن الخطيب، لسان الدين، **نُفاضة الجِرابفي علالة الاغتراب**. تحق: أحمد مختار العبادي، د.معلومات.

ابن خفاجة. **الديوان**. السيد مصطفى غازي، دار المعارف، الاسكندرية.

ابن خميس، أبو بكر محمد بن محمد بن علي المالقي، (١٩٩٩). **كتاب أدباء مالقة المسمى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار**. تحق: صلاح جرار، دار البشير ومؤسسة الرسالة، عمان، ط١.

ذو الرّمة، غيلان بن عقبة، (١٩٩٨). **الديوان**. تحق: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بيروت.

رضا، جهاد،(١٩٨٧). أدب الوصايا في العصر الجاهلي. **رسالة ماجستير**، جامعة اليرموك، الأردن.

ابن زيدون،(١٩٣٢). **الديوان**. شرح وضبط وتفسير: كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

السجستاني، أبو حاتم،(١٩٦١). **المعمرون والوصايا**. تحق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

أبي سلمى، زهير، (١٩٨١). **الديوان**. ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق.

ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل ،(٤٥٨هـ). **المخصص**. تحق: لجنة إحياء التراث العربي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

السيوطي،(١٩٩٢). **ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين**. تحق: أبو علي طه، دار حزم، بيروت.

ابن شداد، (١٩٩٢).**ديوان عنترة بن شداد**. دار صادر ، بيروت، لبنان، ط١.

شريفه، محمد، (١٩٨٥). **البسطي آخر شعراء الأندلس**. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١.

الشيباني، أحمد بن حنبل أبو عبدالله. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. مؤسسة قرطبة، القاهرة، عدد الأجزاء: ٦، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.

صاحب الصلاة، عبد الملك،(١٩٨٧). **المَنّ بالإمامة تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين**. تحق: عبد الهادي التنادي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

صفدي وحاوي، مطاع، إيليا،(١٩٧٤). **موسوعة الشعر العربي**. شركة خياط للكتب ، بيروت.

صفوت، أحمد زكي،(١٩٣٣). **جمهرة خطب العرب**. مطبعة البابي الحلبي ، مصر.

صلاحية، أحمد عبد القادر، (١٩٩٧). **شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي**. دار المكتبي، ط١، دمشق.

الصلت، أمية بن عبد العزيز. **ديوان الحكيم**. تحق: محمد المرزوقي.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، (١٤١٥). **المعجم الأوسط**. دار الحرمين، القاهرة، تحق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن ابراهيم الحسيني ، عدد الأجزاء: ١٠.

الطبري، محمد بن جرير. **تاريخ الرسل والملوك** . تحق: محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف، القاهرة.

الطيالسي، سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري. **مسند أبي داود الطيالسي**. دار المعرفة بيروت، عدد الأجزاء١.

عاصم، أبو يحيى الغرناطي، (١٩٨٩). **جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى**. تحق: صلاح جرار، دار البشير ، عمان، ط١.

العاني، محمد شهاب،(٢٠٠٢). **أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح إلى سقوط الخلافة**. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١.

عباد، المعتمد. **الديوان**. تحق: رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر.

عبد ربه،(٢٠٠١). **العقد الفريد**. تحق: محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط١.

العتاهية، أبو اسحق إسماعيل بن قاسم،(٢١٠هـ). **الديوان**. دار صادر، بيروت،١٩٨٠.

العسكري، أبو هلال،(١٩٦٤). **جمهرة الأمثال**. المؤسسة العربية الحديثة للنشر.

العلام، عزالدين،(٢٠٠٦). **الآداب السلطانية**، عالم المعرفة ، ٢٤فبراير.

عليان، مصطفى، (١٩٨٤). **تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري.** مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١.

الغزال، يحيى بن الحكم، (١٩٨٢). **الديوان.** تحق: محمد رضوان الداية، دار قتيبة ، ط١.

الغزالي، أبو حامد،(١٩٨٧). **التبر المسبوك في نصيحة الملوك.** تحـق: محمـد أحمـد، بيروت.

الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري، (٣٩٨هـ). **تاج اللغة وصحاح العربية.** دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩.

فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس،(٣٩٥هـ). **معجم مقاييس اللغة.** تحق: عبـد السـلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الفريح، سهام،(١٩٨٨). **الوصايا في الأدب العربي القديم.** مكتبة المعلا، الكويت، ط١.

قاسم ، عدنان حسين،(١٩٩٢). **الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي.** مؤسسة علوم القرآن بعجمان ودار ابن كثير بدمشق، ط١.

القرطاجني، حازم، (٦٨٤هـ). **منهاج البلغاء وسراج الأدباء.** (ط٣)، تحق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ١٩٨٦.

القرطبي، ابن حيان، (١٩٧٣). **المقتبس من أنباء أهل الأندلس.** تحق: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

القزويني، محمد بن يزيد أبو عبدالله. **سنن ابن ماجة.** دار الفكر، بيروت، تحـق: محمـد فؤاد عبد الباقي، عدد الأجزاء:٢، مع الكتاب ، تعليق محمد فؤاد عبد البـاقي والأحاديـث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

القسطلي، ابن دراج،(٢٠٠٤) .**الديوان.** تحق: محمود علي مكي، من منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت، ط٢.

القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، (٦٤٦هـ). **تاريخ الحكماء.** مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٠٣.

القيسي، فايز عبد النبي،(١٩٨٩). **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجـري.** دار البشير، عمان، ط١.

لغزيوي، علي، (١٩٩٧). **أدب السياسة والحرب في الأنـدلس.** ط١، مكتبـة المعـارف، الرياض.

ليلى، فرج محمود،(١٩٩٧). **تاريخ الوصايا.** دار الثقافة، الدوحة،ط١.

المبرد، أبو العباس، (٢٨٦هـ). **التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا**. تحق: ابراهيم الجمل، مراجعة: محمود سالم، نهضة مصر للطباعة والنشر.

المتنبي، أبي الطيب، (١٩٩٧). **الديوان**. تحق: كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

محمد، أبو عبدالله ، (د.ت).**التعريف بالقاضي عياض**. تحق: محمد بن شريفة ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية ط١.

محمد، علي، (١٩٩٠). **النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله**. ط١، دار العرب الإسلامي، بيروت.

محمد، مفتاح، (١٩٩٩). **المفاهيم معالم: نحو تأويل واقعي**. ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

المراكشي، ابن البناء أبو العباس، (٧٢١هـ). **الروض المريع في صناعة البديع**. تحق: رضوان بنشقرون، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ١٩٨٥.

المراكشي، ابن عذاري. **البيان المُغرب في أخبار المغرب**. مكتبة صادر، بيروت.

المراكشي، عبد الواحد، (١٩٤٩). **المُعجب في تلخيص أخبار المغرب**. تحق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة.

مصطفى، أحمد أمين، (١٩٩٠). **أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع**. مكتبة الأنجلو المصرية.

المفضل الضبي. **المفضليات**. تحق: أحمد شاكر،ط٣، دار المعارف القاهرة.

المقري، أبو العباس أحمد بن محمد ، (١٠٤١هـ). **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**. صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، ١٩٧٨.

المقري، أحمد بن ،(١٩٩٧). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**. تحق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٨ج.

المقفع. **الأدب الكبير والأدب الصغير**. دار الجيل، بيروت.

ابن منظور، لسان العرب.

منيزل، منال،(١٩٨٥). **شعر أبي عبد الله بن الحداد الأندلسي**. تحق: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١.

الموحدي، أبو بكر يحيى بن مجير، بحتري الأندلس. **الديوان**. تحق: يوسف عيد، دار الفكر العربي، بيروت.

الميداني، أبو الفضل،(١٩٥٥). **مجمع الأمثال**. تحق: محي الدين عبد الحميد، القاهرة.

ناجي، هلال، (١٩٩٤). **قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري**. ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن ، (١٩٨٦). **المجتبى من السنن**. مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، تحق: عبد الفتاح أبوغدة، عدد الأجزاء:٨، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

النقراط، علي محمد. **ابن الجيّاب الغرناطي حياته وشعره**. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع.

النيسابوري، محمد بن عبدالله أبوعبدالله الحاكم، (١٩٩٠). **المستدرك على الصحيحين**. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، تحق: مصطفى عبد القادر عطا، عدد الأجزاء:٤، مع الكتاب: تعليقات الذهبي في التلخيص.

النيسابوري، مسلم ابن الحجاج أبو الحسين القشيري. **صحيح مسلم**. دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحق: محمد فؤاد عبد الباقي، عدد الأجزاء:٥، مع الكتاب، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي.

الهرامة، عبد الحميد، (١٩٨٣). **الأعمى التطيلي حياته وأدبه**. المنشاة العامّة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس.

هشام. **تهذيب سيرة ابن هشام**. تحق: عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت.

الهمذاني. **الإكليل في أخبار اليمن وأنساب حمير**. تعليق: نبيه فارس، برشتن.

يكن، محمد زهدي، (١٩٧٥). **المعتمد بن عباد وشعراء عصره**. دار يكن للنشر والتوزيع، بيروت.

الملخص باللغة الإنجليزية

RECOMMENDATIONS IN THE ANDALUSIAN LITERATURE

By
Huthaifa Abdullah Azzam

Supervisor
Dr. Salah Jarrar, Prof.

ABSTRACT

The aim of this study is to explore recommendations in the Andalusian literature in form and substance, to explain the difference of this art from other literature subjects, explain its particularity in terms of the general circumstance and its relation with the life of communities and individuals alike and to identify the construction and meaning distinguishing, it then to define the general subjects incorporated therein and then the most famous authors and poets of this art and its relation with oriental literature and the Arabic history in addition to its relation with religion.

The study discussed that in an introduction, preface, three parts and a conclusion.

The preface of the study presented some details about the history of recommendations in the Arabic literature and to discuss some oriental recommendations over the different eras of literature, then to show its relation with the Andalusia literature. It unveiled the Andalusian recommendation book indicating to the most important subjects of recommendations.

Part one discussed prose recommendations in the Andalusian literature in two chapters, the first of which dealt with prose recommendations and extended to cover three topics, namely social, religious and political recommendations while the second chapter was short and discussed the characteristics of the prose recommendations in general.

The second part dealt with poetic recommendations in the Andalusian literature under two chapters covered by three topics, which discussed poetic, social, political and religious recommendations. The second chapter of this part touched on the artistic characteristics of the poetic recommendations.

The third part represented an artistic study of two Andalusian recommendations in two chapters, the first of which was earmarked for analyzing the recommendation of Lisan Al Din Bin Al Khatib to his sons, explaining its content and analyzing its construction. The second chapter was dedicated for analyzing the recommendations of Abi Marwan Al Jaziri to his sons in terms of its construction and meaning.

The conclusion of the study incorporated the most important results, which the researcher reached.

Through presentation, the study was concluded in that the literature of recommendations in Andalus is an independent and self-existent art that deals with special subjects and its content presents in particular levels of construction, language, sentence and word. It is therefore an art that has its own eminent men who had contributed to other literary arts and is the one which incorporated poem and prose likewise.